S A D I Q J A F F E R

THE STRATEGY OF SHIA'S RELIGIOUS RITUALS

THE IMPACT OF RELIGIOUS RITUALS ON INDIVIDUALS AND SOCIETY



صادق جعفر

استراتيجية الشعائر الدينية عند الشيعة الإمامية

ما هي الآثار التي تولدها الشعائر الدينية في الفرد والمجتمع؟ وكيف تقوم بذلك؟

جيكور Jeekor
طباعة نشر توزيع

استراتيجية

الشعائر الدينية

عند الشيعة الإمامية

اسم الكتاب: استراتيجية الشعائر الدينية عند الشيعة الإمامية

اسم المؤلف: صادق جعفر

اسم الناشر: جيكور للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

للمؤلف

جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فإنه لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

All rights reserved.Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

2016



Jeekor

For Printing & publishing Ltd.

Beirut- Lebanon

Mob.: 009613458369 -009647819708245

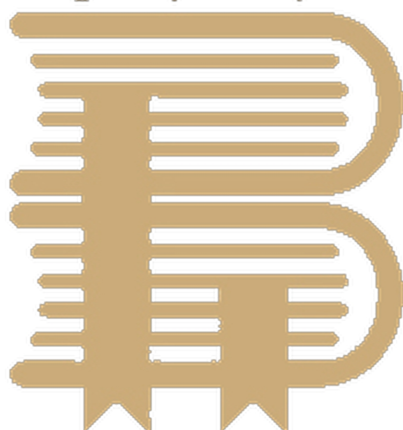
Email: jeekor4@gmail.com

munafhameed4@gmail.com

استراتيجية
الشعائر الدينية
عند الشيعة الإمامية

ما هي الآثار التي تولّدها الشعائر الدينية في الفرد والمجتمع؟
وكيف تقوم ذلك؟

صادق جعفر





إهداء

إلى والداي

أمي كانت أول من أثارني بكاؤها وأنا في سنوات طفولتي الأولى

فسألتها علام تبكين يا أمي؟

قالت: اليوم قتل الحسين. قتله يزيد وبنو أمية، وداسته الخيل الأعوجيّة.

وأبي الذي وعيت على الدنيا وهو يقود موكب عزاء أهالي رأس الرمان، حتى آخر عمره، وكان ينتظرني وأنا طفل أحيي العزاء حتى منتصف الليل في مواسم عاشوراء لكي يرجعني إلى البيت، ثم يوقظني صباح اليوم التالي لنذهب للمأتم من جديد.

مقدمة

إن علاقة الشعائر بالأديان علاقة حيوية بل ويمكن الإدعاء بأنها مصيرية، بمعنى أن الأديان الحيوية هي الأديان التي تتمظهر في شعائر واضحة ومفهومة والأديان الخاملة هي التي تنقصها الشعائر الحيوية، وهنا أقصد جميع ما يمكن أن يطلق عليه البشر لفظ الدين أي حتى الأديان الوضعية التي اخترعها الناس واعتبروها عقائد يتعبدون بها، فبصورة عامة تكون الأديان السماوية حيوية وحافلة بالشعائر والأفعال التعبدية.

ولذا نجد أن الأديان ذات الشعائر هي أكثر حظاً في البقاء والاستمرار من الأديان التي تقتصر على نصوص وأفكار مخزونة بين دفاف الكتب والقراطيس، فالدين يجب أن يتفاعل معه الناس بأبدانهم وعقولهم وسلوكهم وأوقاتهم وبقاعهم وأموالهم وأرواحهم وأعمالهم لكي يشعرون بوجوده باستمرار ولا ينسونه أو ينفصلون عنه، بل حتى الأديان البشرية التي يخترعها الناس فإن أول ما يفكر فيه مبتدعوها هو اختراع مجموعة من الشعائر والطقوس العبادية والمالية والاجتماعية وغيرها لكي يمزجوها بكيانات الأتباع وحياتهم ومشاعرهم واعتقاداتهم، فكلما زادت الشعائر زادت حيوية الدين، ولذلك لا نرى ديناً مليئاً بالشعائر بمختلف أصنافها كالدين الإسلامي، ولا نرى مذهباً إسلامياً تنوعت فيه الشعائر كمذهب أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام.

والشعائر الدينية عبارة عن ممارسات وأفعال تقام بصيغ محددة وتهدف إلى التعبير عن التدين وحالة الالتزام لدى المتدينين، وهي ذات تطبيقات وامتدادات واسعة بحيث تشمل مجالات وحقول دينية عديدة.

يتكلم القسم الأول من هذا الكتاب عن طبيعة الشعائر وتعريفاتها وأصنافها ومكوناتها (الفصل الأول)، ثم يتطرق بشيء من التفصيل إلى المزيج الشعائري أي المكان والزمان والسلوك والخطاب، ويوضح كيف يتشكل المكان والزمان الشعائريان والسلوك الشعائري المناسب لكل صنف من الأصناف، وطبيعة الخطاب الشعائري ومحتوياته وتنوعاته (الفصول من الثاني إلى الخامس).

القسم الثاني بفصوله الثلاثة يتطرق إلى عملية إحياء الشعائر الدينية، ويبين بتفصيل الأدوات والأدوار الأساسية المستخدمة في عمليات الإحياء، وكيف أنها استخدمت منذ العصور الأولى للإسلام وإلى يومنا هذا.

القسم الثالث يتطرق إلى الآثار الاستراتيجية لعملية إحياء الشعائر، حيث يتطرق الفصل التاسع إلى تأثيرها على تشكيل الهوية الشيعية عمودياً على مدى التاريخ وأفقياً على مدى العالم وبقاعه المتناثرة الواسعة، من خلال تشكيل الذاكرة الجماعية والتأسيس للقيم المشتركة.

كما يتطرق الفصل العاشر للتعبئة الدينية التي تولدها عملية الإحياء وتأثيرها الايماني والمعرفي على الفرد الشيعي.

أما الفصل الحادي عشر فيبين الآثار التعبوية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لعمليات الإحياء على المجتمع الشيعي برمته.

ويختم الفصل الثاني عشر بتوضيح آثار الشعائر الدينية وإحيائها على انتشار ورواج مذهب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.

أرجو أن يساهم هذا العمل في فتح آفاق جديدة تزيد من المعرفة الشعائرية، وحقيقتها وأهميتها الكبرى في العقائد والأديان الحيوية، وآثارها الاستراتيجية على الفرد والمجتمع.

صادق جعفر
البحرين- جمادى الأولى ١٤٣٥هـ
مارس ٢٠١٤م

القسم الأول

طبيعة الشعائر الدينية

الفصل الأول
الشعائر الدينية

ما هي الشعائر الدينية؟

ذكرت كلمة الشعائر في القرآن الكريم في أكثر من موضع، حيث يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ (آية ١٥٨)، وفي سورة المائدة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ (آية ٢)، وفي سورة الحج: ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ (آية ٣٢)، وفي آية أخرى من ذات السورة الشريفة: ﴿والبدن جعلناها لكم من شعائر الله﴾ (٣٦).

وتم تعريف وتفسير الشعائر الدينية بصيغ متعددة تقود غالبيتها إلى مضامين متقاربة، فآية الله العلامة الشيخ محمد سند البحراني في كتابه «الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد» يستعرض عدة تعريفات من مصادر الخاصة والعامة، فيشير إلى قول الشيخ كاشف الغطاء حول قبور أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام بأنها قد شعّرت فهي «مشاعر»، ونقل عن المحقق الميرزا النائيني التعبير عن الشعائر الحسينية بأنها «شعائر الله»، وذكر عن السيد محسن الحكيم في بحث الشهادة الثالثة «أشهد أن علياً ولي الله» تطبيق عنوان شعائر الله حيث أنها اتخذت شعاراً للمذهب الشيعي.

أما فيما يتعلق بأقوال العامة فقد نقل عن عطاء أنه فسّر الشعائر بأنها جميع ما أمر الله به ونهى عنه، بينما ذهب القرطبي إلى أن المراد من الشعائر جميع العبادات[1].

ويوضح الشيخ سند رؤيته حول الشعائر بأنها هي التي تفيد الإعلام، وكل ما يُعلِم على «معنى» من المعاني الدينية أو ما يدل على شيء له «نسبة» إلى الله عز وجل.

ويشير الباحث إبراهيم الحيدري إلى أن الشعائر «رموز» تحمل دلالات خاصة، وأنها تمثل الجانب العملي من العبادات باعتبارها سلوكاً يتجه إلى الله سبحانه وتعالى ولهذا اتخذت

---

(١) سند: الشعائر الحسينية

صفة القدسية، وأن الشعائر الدينية قد تختلط بالشعائر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها، وأنها سلوكيات فردية أو جماعية تنتقل عبر الأجيال وتستلزم مراعاة عدد من القواعد الدقيقة والثابتة(١).

أما راشد البدري(٢) فيشير إلى أن الشعائر يمكن أن تسد الحاجات الروحية والعاطفية، وتقوي الروابط الاجتماعية، وتظهر الاحترام والخضوع، وتعبّر عن الانتماء، وتضفي قبولاً اجتماعياً لموضوع ما.

كما يستعرض البدري توكيدات إميل دوركهايم (١٩١٧ - ١٨٥٨) عن الشعائر الدينية بأنها تحوّل المعرفة الدينية إلى إيمان والعضوية إلى انتماء، وأنها تشكل فرص متكررة للمجموعات الاجتماعية لتلم شملها ولتقوم بمظاهر ذات قدسية تعبر عن وجودها ككيان، وبأن الشعائر مصممة لتثير المشاعر الانفعالية والكثافة العاطفية، بحيث يختبر الأفراد شيئاً يتجاوز كياناتهم الفردية.

وتشير أمينة الفردان(٣) إلى تعريف تيرنر بأن الشعائر سياق منمّط من الأنشطة التي تتضمن الإشارات أو الإيماءات والكلمات والموضوعات التي تمارس في مكان محدد ومخصص بغرض التأثير في الكائنات الطبيعية لصالح أهداف واهتمامات الفاعلين.

ويذكر ابن منظور في «لسان العرب» بأن شعائر الحج هي مناسكه وعلاماته وآثاره وأعماله(٤).

والإشعار هو الإعلام، والمشاعر هي المعالم، كالمشعر الحرام الذي هو معلم وموضع للعبادة، والمشاعر معالم ومواضع العبادة التي أشعرها الله تعالى أعلاماً للناس، واستعمل الشعار والشعيرة والشعائر كرموز للأمور الأساسية في الدين التي يعرف بها كون الإنسان متدينا بدين ما، فيقال «شعائر الإسلام» و «شعائر المسيحية» وهكذا(٥).

وبحسب من يرى من علماء الاجتماع بأن الدين يتشكل من أوجه عدة هي المعتقدات والشعائر والتجربة الشخصية والمجتمع الديني، فإن الشعائر تربط هذه الأوجه كلها فهي تعبير عملي عن أغلب المعتقدات العبادية، وممارستها يكسب المتدين التجربة الدينية

(١) الحيدري: تراجيديا كربلاء.
(٢) Elbadri: Shia Rituals
(٣) الفردان: رمزية الألوان.
(٤) ابن منظور: لسان العرب.
(٥) محمد: المقدسات الدينية.

الشخصية، وغالباً ما تقام في أجواء جماعية (مجتمع مصبوغ بصبغة الدين الذي تعبر تلك الشعائر عنه)[1].

وهناك مفاهيم ذات علاقة قوية بالشعائر، كمفهوم القداسة والتقديس بمعنى التطهير والتنزيه عن النقص والعيب، وقد يطلق هذا الوصف على الأماكن والكتب السماوية والأشخاص، قال تعالى: «ادخلوا الأرض المقدسة» (المائدة ٢١)، وقوله تعالى: «اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى» (طه ١٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب ٣٣).

كذلك مفهوم التعظيم أي التبجيل والتوقير والاحترام الجلي لما هو مقدس وحرمة التنقيص من شأنه أو هتكه بالأرجاس والأعمال الشائنة، قال تعالى: «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» (الحج ٣٢)، وقال: «ومن يعظم حرمات الله فهو خير له» (الحج ٣٠)، وقال تعالى: «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه» (الفتح ٩)، وقال سبحانه: «في بيوت أذن الله أن ترفع» (النور ٣٦).

تعريف الشعائر الدينية:

وبناءً على مجمل ما سبق، فإننا نميل إلى تعريف الشعائر الدينية بالصورة التالية:

«الشعائر هي أفعال أو ممارسات أو رموز تعبر عن معتقدات ذات قدسية ما، ويتم تشعيرها من خلال ربطها بقيم أو شخصيات أو وقائع أو أماكن مقدسة».

ويقصد بالأفعال الأمور التي تحتاج إلى القيام بعمل على هيئة معينة كالصلاة والحج والسفر لزيارة رسول الله وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام وإقامة مجالس الذكر وقراءة القرآن الكريم، وغير ذلك.

ويقصد بالممارسات الأمور التي تحتاج إلى اتباع سلوك معين، كلبس الملابس الجديدة في الأعياد والامتناع عن الأكل في الصيام (الامتناع عن الأكل والشرب هو في الحقيقة تصرف سلوكي وليس عمل، فالأكل هو العمل وليس عدم الأكل)، وتوقير واحترام مشاهد آل بيت رسول الله صلى الله عليهم أجمعين، والحزن لأحزانهم والفرح لأفراحهم، وما شابه ذلك.

(١) أكوافيفا: علم الاجتماع الديني.

والرموز هي الأشياء التي يتم إبرازها للتعبير عن روابط صاحب الاعتقاد والتزاماته، كلبس اللون الأسود في عاشوراء واللون الأبيض في الحج والسجود على التربة الحسينية في الصلاة ولبس الخاتم الذي يحمل حجراً (فص) معيناً كالعقيق، وغيرها من الأمور الرمزية.

والتعبير يعني أن تلك الشعائر تنطق بمضمون ما، كالصلاة والتي تعبر عن التواصل مع رب العالمين من خلال العبادة، والحج والصوم الذين يعبران عن الاستعداد لتحمل المشاق لإظهار الطاعة لرب العالمين، وتوقير أهل البيت عليهم السلام الذي يشير إلى اتباعهم والاهتمام لسيرتهم وتعاليمهم والرغبة في كسب رضاهم، واللون الأسود في ذكرى عاشوراء والذي يدل على الاهتمام بمواساة رسول الله (ص) في مصاب حفيده سيد الشهداء الإمام الحسين (ع).

والمعتقدات تعني الأمور التي تصبح حاكمة على تصورات الإنسان وأفكاره وتفاعلاته مع ما حوله من أشياء في الكون على أساس التزامه بدين أو رؤية أو طريقة حياة أو شريعة ما، وهذه المعتقدات بالتالي تكون أساس لتشعير المشاعر وتعيين المعالم لأنها تكون معياراً لما هو صائب أو خطأ ولما هو مهم أو غير مهم، وبالتالي لما يمكن أن يشعّر أو لا يستحق التشعير.

ويقصد بالقدسية هو صيرورة الشيء بحالة من التنزّه عن الإهمال أو التحقير أو التغيير أو الإلغاء بل وصوله إلى درجة من الأولوية والتعظيم والتأثير في حياة الناس بحيث يصبح محوراً تدور حوله مجموعة من سلوكياتهم وأفعالهم بل وبرامج حياتهم.

والمقصود بكلمة تشعيرها هو تحويل تلك الأفعال والممارسات والرموز إلى علامات وإشارات واضحة تدل عما نريد نختزنه داخلنا من أفكار وانفعالات والتزامات واعتقادات.

والمقصود بكلمة ربط هو تخصيص كل شعيرة بموضوع ما يبرر وجود هذه الشعيرة ويبرر علة قدسيتها ووضح حدودها وطبيعتها، وما اذا كانت مختصة بزمن محدد أو مكان محدد أو بمظهر معين أو بفئة معينة من المؤمنين.

والقيم تعني الأمور التي تضع لها العقيدة وبالتالي الشعائر التي تنطلق منها أهمية كبيرة وتريد من خلال تشعيرها أن تدفع المؤمنين بها إلى إبرازها في سلوكهم وأفعالهم ويجعلونها حاكمة على علاقاتهم ومسار حياتهم كقيمة الإصلاح أو التضحية أو الإيثار أو الطهارة أو غير ذلك.

والشخصيات هي الأفراد الذين لهم محورية في العقيدة والدين وبالتالي يمتلكون حالة ما - واسعة أو محدودة - من القدسية والأهمية بسبب كونهم من مؤسسي العقيدة أو المدافعين عنها أو القائمين على توضيح مفاهيمها وتفسيرها أو ما أشبه ذلك.

والوقائع هي الأحداث المحورية في الدين والعقيدة المقدسة كوقائع بعثة الأنبياء والأولياء أو ولادتهم أو استشهادهم أو انتصاراتهم، وغير ذلك من الأمور التي تضفي على الزمن حالة من القدسية المكتسبة بسبب علاقته بشخصيات وقيم مقدسة.

والأماكن المقدسة هي التي تشعّرت بسبب علاقتها بشخصية مقدسة (مكان ولادته أو شهادته أو مبايعته أو عبادته أو غيبته) أو شعيرة مقدسة (كقبلة الصلاة) أو حادثة مقدسة (كحصول معجزة خارقة فيها) وما شابه ذلك، وأهميتها تكمن في أنها تضع القائم بالشعيرة في لحظة زمنية موازية للحظة ولادة الشعيرة وتجعله يتفاعل مع مظاهر الشعيرة في ذات البيئة والبقعة التي ولدت فيها أو بسببها.

أهمية الشعائر: الشعائر تحفظ الدين

تكمن أهمية الشعائر الدينية، في كونها صور خارجية ومفاهيم ملموسة للدين ولعملية التدين، وبالتالي يمكن القول أن «الدين يصنع الشعائر».

كما أن ممارسة وإحيائها يقوم بنقل المعاني والقيم الدينية إلى ذهن ونفس وروح الإنسان، وبالتالي يمكن القول بأن «الشعائر تصنع التدين».

وهي تكشف حالة التدين الظاهري أو الباطني أو كلاهما لدى المتدين، وبالتالي يمكن القول أيضاً بأن «الشعائر تعبّر عن التدين».

إن علاقة الشعائر بالأديان علاقة حيوية بل ويمكن الإدعاء بأنها مصيرية، بمعنى أن الأديان الحيوية هي الأديان التي تتمظهر في شعائر واضحة ومفهومة والأديان الخاملة هي التي تنقصها الشعائر الحيوية، وهنا أقصد جميع ما يمكن أن يطلق عليه البشر لفظ الدين أي حتى الأديان الوضعية التي اخترعها الناس واعتبروها عقائد يتعبدون بها، فبصورة عامة تكون الأديان السماوية حيوية وحافلة بالشعائر والأفعال التعبدية.

ولذا نجد أن الأديان ذات الشعائر هي أكثر حظاً في البقاء والاستمرار من الأديان التي تقتصر على نصوص وأفكار مخزونة بين دفاف الكتب والقراطيس، فالدين يجب أن يتفاعل

معه الناس بأبدانهم وعقولهم وسلوكهم وأوقاتهم وبقاعهم وأموالهم وأرواحهم وأعمالهم لكي يشعرون بوجوده باستمرار ولا ينسونه أو ينفصلون عنه، بل حتى الأديان البشرية التي يخترعها الناس فإن أول ما يفكر فيه مبتدعوها هو اختراع مجموعة من الشعائر والطقوس العبادية والمالية والاجتماعية وغيرها لكي يمزجوها بكيانات الأتباع وحياتهم ومشاعرهم واعتقاداتهم، فكلما زادت الشعائر زادت حيوية الدين، ولذلك لا نرى ديناً مليئاً بالشعائر بمختلف أصنافها كالدين الإسلامي، ولا نرى مذهباً إسلامياً تنوعت فيه الشعائر كمذهب أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ولذا نجد بأن القائمون على الأديان (الحقة والمبطلة) يهتمون بشدة لإحياء الشعائر، بينما غالباً ما يأخذ المبتعدون عن الدين موقفاً مضاداً فيدعون إلى إنهاء الشعائر أو تخفيفها وينحون إلى الاستخفاف والتشكيك بها باستمرار وينسبونها إلى التخلف والهمجية والبدائية وغير ذلك من مصطلحات التحقير.

وتتميز الشعائر في الأديان الحيوية كالإسلام، بالتالي:

١ـ أنها ذات حضور قوي ومتجدد ويومي في حياة المسلمين ومجتمعاتهم، فشعيرة الأذان مثلاً والتي تتكرر لعدة مرات كل يوم وبصورة بارزة يصل صداها إلى أسماع أغلب أو كل الناس بصورة يومية تؤكد بشكل دؤوب لا يعرف الكلل أو الملل بأن رب الناس هو الله الواحد الأحد «الله اكبر» وتلزمهم بهذه الشهادة خمس مرات كل يوم «اشهد أن لا إله إلا الله» والشهادة لنبي الإسلام «وأشهد أن محمداً رسول الله» والشهادة لوصيه وأهل بيته عليهم السلام «وأشهد أن علياً ولي الله» إلى آخر المعاني التي يتضمنها هذا الشعار، هذا إلى جانب طبعاً الصلاة اليومية وصيام شهر رمضان وحج البيت الحرام بصورة دورية من كل عام، وغير ذلك من الشعائر الحيوية والمتجددة والتي تذكر المسلمين والناس عموماً كل يوم بل كل ساعة بمضامين ديانة التوحيد القائمة على التواصل المستمر بين العبد وخالقه وبالوسائل التي ارتضاها سبحانه وتعالى لعباده الصالحين.

٢ـ أن هذه الشعائر تلخص العقيدة كلها في كلمات وشعارات موجزة وممارسات يومية ترسّخ المكونات الدينية بصورة مكثفة وسريعة في نفوس الناس وأذهانهم وأفعالهم

وممارساتهم وتشعرهم بالوجود المباشر لله سبحانه وتعالى في حياتهم أي وجود تعاليمه ودينه وأوامره ونواهيه.

٣- إن هذه الشعائر تشعر الإنسان بحيوية هذا الدين وفاعليته فكيف للإنسان أن يغفل عن عقيدته وهو ملزم بإحيائها يومياً وسنوياً على مدى عمره كله من خلال شعائر وعبادات وأفعال ذات طابع قدسي وتحتاج إلى أن يكون على طهارة مادية ومعنوية حين يقوم بأدائها بل ويكون ملزماً بأن ينويها بصورة صافية قربة إلى الله تبارك وتعالى.(١)

وإلى هذه المعاني يشير حديث الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام، فعن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن علة الصلاة فإن فيها مشغلة للناس عن حوائجهم ومتعبة لهم في أبدانهم.

قال (ع): "فيها علل، وذلك أن الناس لو تركوا بغير تنبيه ولا تذكر للنبي صلى الله عليه وآله بأكثر من الخبر الأول وبقاء الكتاب في أيديهم فقط لكانوا على ما كان عليه الأولون، فإنهم قد كانوا اتخذوا ديناً ووضعوا كتباً ودعوا أناساً إلى ما هم عليه، وقتلوهم على ذلك فدرس أمرهم وذهب حين ذهبوا، وأراد الله تبارك وتعالى أن لا ينسيهم أمر محمد صلى الله عليه وآله ففرض عليهم الصلاة يذكرونه في كل يوم خمس مرات ينادون باسمه، وتعبدوا بالصلاة وذكر الله لكيلا يغفلوا عنه وينسوه فيندرس ذكره"(٢).

والخلاصة هي أن «الدين يصنع الشعائر لتعبّر عنه وتعزّز حالة التدين لدى أتباعه وبالتالي تحفظه من الاندثار».

أصناف الشعائر الدينية لدى الشيعة الإمامية:

في رواية للإمام الحسن العسكري عليه الصلاة والسلام، أنه قال: «علامات المؤمن خمس: صلوات إحدى وخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر ببسم الله الرحمن الرحيم»(٣).

تشير هذه الرواية الشريفة إلى نماذج وأصناف من الشعائر المعبرة عن الهوية الدينية للشيعة

(١) جعفر: التأسيس

(٢) الصدوق: علل الشرائع.

(٣) ابن طاووس: إقبال الأعمال. وراجع أيضاً تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي لنص قريب من ذلك.

الإمامية، فصلاة احدى وخمسين عبارة عن الركعات السبعة عشر الواردة في الصلوات اليومية الواجبة بالإضافة إلى الركعات الأربع وثلاثون الواردة في النوافل اليومية المستحبة، وزيارة الأربعين هي زيارة الإمام الحسين صلوات الله عليه في اليوم الأربعين لذكرى استشهاده (ع)، والتختم باليمين هو من مستحبات الشيعة بل واعتبره مخالفوهم شعاراً لهم، وتعفير الجبين يقصد به السجود على التراب في الصلاة وهو من الأمور الثابتة في الفقه الشيعي، وأما الجهر بالبسملة في الصلوات اليومية فهو واجب لدى الشيعة في بعضها ومستحب في الآخر.

ويلاحظ في نص الرواية أن الإمام عليه السلام ذكر لفظ علامات، والذي يتطابق في تأويله مع التعريفات العامة للشعائر بأنها أيضاً علامات للدين وللتدين.

ويمكن أن نصنف الشعائر الدينية لدى الشيعة إلى ٣ أصناف أساسية تتفرع منها فئات عديدة، وهي:

الصنف الأول: العبادات:

العبادات هي مجموعة الأفعال التي يجب على المسلم القيام بها بالشروط والمواصفات التي نزل بها الوحي من رب العباد، والتي تعبّر عن الطاعة والخضوع لله عز وجل، ولها صور وصيغ عديدة، مثل:

- الطهارة الشرعية، وهي عبارة عن وضوء الصلاة أو الوضوء المندوب بشكل عام، والأغسال التعبدية كالغسل من الجنابة الواجب للصلاة، وغسل الميت الواجب للدفن، والأغسال المستحبة كغسل الجمعة، ولها شعائر وهيئة محددة.
- الصلاة اليومية وغيرها من الصلوات الواجبة كصلاة الآيات مثلاً، والصلوات المستحبة كصلاة الإحرام لنية الحج أو النوافل اليومية، ولها شعائر خاصة وهيئة تعبدية معينة، وهناك شروط في الدعوة إليها كالأذان وشروط في لباس المصلي ومكان إقامتها وطريقة أدائها بصورة فردية أو جماعية، وغير ذلك من المسائل.
- صيام شهر رمضان أو صوم الاعتكاف أو صوم الكفارات الواجب أو الصوم المندوب كصوم شهري رجب وشعبان وغيره، وله شعائر وشرائط وهيئة تنفيذية متعلقة بالوقت والإمساك وما هو محظور أو مندوب، وغير ذلك.

- العمرة والحج إلى بيت الله الحرام، ولها شعائر خاصة متعلقة بالمكان واللباس والإحرام والتلبية والطواف والسعي، وغير ذلك.
- الدعاء، وله أهميته وموقعه من العبادة، وله صيغ وأوقات ومبررات لا تحصى بحيث يمكن القول بأن تراث أهل البيت عليهم السلام هائل في هذا المجال ويغطي كل ما يتعلق بحياة الإنسان من قبل انعقاد نطفته إلى ما بعد وفاته.
- إحياء الأعياد وما يتعلق بها من شعائر كصلاة العيد وإظهار البهجة ولبس الجديد، وغير ذلك.
- عقد النذور وإيفائها، والتكفير عن الأخطاء والآثام، وعقد الجنائز للأموات، وغير ذلك من الممارسات التعبدية والتي وضعت لها شعائر وشرائط وصيغ تنفيذية خاصة بها.

وللعبادات طبيعة مشتركة، فكلها مثلاً تحتاج إلى نية تعبدية، وغالبيتها تتشكل من حركات وأعمال، وتشترط التوالي والانضباط في الأداء، وقد تستدعي الانتقال إلى مكان معين صالح للقيام بها، كما قد تستدعي الإنفاق، والالتزام بخطاب ونصوص معينة، والإحرام، والالتزام بتوقيت معين، وبالطهارة من الحدثين، وغير ذلك.

الصنف الثاني: السنن والآداب:

ونقصد بالسنن الممارسات التي ندب إليها الشرع، مثل:

- زيارة أهل البيت (ع)، وهي سنة لها أهميتها وموقعها من عبادة الله سبحانه وتعالى، وتراث أهل البيت (ع) زاخر بأصناف وأشكال الزيارات المطلقة زمانياً ومكانياً، أو المحددة بزمان أو مكان معين، للأنبياء والأولياء والأوصياء سيما آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.
- التحية، ولها سنن وشعائر خاصة بها متعلقة بالمبادرة بها وردّها، وأدائها حين القيام أو السير أو الركوب، ولها صيغة عامة وصيغ متنوعة بحسب المناسبات الاجتماعية والدينية وطبيعتها.
- الـزواج، وله سننه وشعائره المتعلقة باختيار الـزوج أو الزوجة، وطبيعة المهر المستحب، وشعائر العقد ونصوصه وأوقاته، وشعائر الزفاف، وليلة الدخول على

الزوجة، وغير ذلك.

- المظاهر والسلوكيات العامة، حيث يمتلئ تراث أهل البيت (ع) بالمستحبات المتعلقة بالأعمال وبالهيئة الظاهرية للإنسان والتي تتشكل كسنن وشعائر للمؤمنين، كالتختم ونوع حلقة الخاتم وحجره، واليد والأصبع التي يتم التختم فيها، والتعمم، والسجود في الصلاة على التربة ونوع التربة وطرق العناية بها وآثارها على المصلي، وكالمشي على القدمين حين الحج أو عند زيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، بل توجد شعائر تتعلق بشرب الماء كالتسمية بالله، وذكر الإمام الحسين عليه السلام، والقيام والقعود عند الشرب في أوقات معينة، وعدد مرات الشرب، وغير ذلك مما لا يحصى من السنن والآداب في مختلف شئون الحياة صغيرها وكبيرها.

الصنف الثالث: الشعائر الحسينية:

ويقصد بها الشعائر المتعلقة بإحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين بن علي (ع) سبط رسول الله (ص) كمراسم العزاء، وزيارة الإمام (ع) وشهداء كربلاء، وتلاوة السيرة الحسينية، وإظهار الجزع والحزن على مصائب عاشوراء، وما أشبه، وهذه بالذات مما اختص به شيعة آل بيت محمد صلى الله عليهم أجمعين، وهي شعائر عديدة ومتنوعة ولها دلالات وآثار كثيرة، وهي من المندوبات المؤكدة والمستحبات الثابتة.

صيغ الشعائر:

تتمظهر الشعائر من مجموعة الصيغ التي قد تكون مشتركة في بعضها، ومختصة في بعضها الآخر، وهذه المظاهر هي:

- صيغ فكرية: وهي عبارة عن نصوص ذات معاني ومفاهيم ودلالات معينة، كالأدعية التي تتضمن نصوص التمجيد لله سبحانه وتعالى وطلب الحوائج منه والشكر إليه والاستغفار من الذنوب وغير ذلك، والصلوات التي تحوي نصوصاً تعبدية خاصة بها، وزيارات أهل البيت عليهم الصلاة والسلام والتي تحوي نصوص تؤكد على مواصفات أئمة آل البيت (ع) وقيمهم ومفاهيم التولي والتبري، وما أشبه.

- صيغ حركية: تتشكّل بعض الشعائر من حركات خاصة كالركوع والسجود في الصلاة، وبعضها من أفعال خاصة كالطواف والسعي ورمي الجمرات في الحج، وبعضها يتطلب نوع من التفاعل المعبر عن التوجه كالبكاء حين الدعاء أو كالغسل حين الزيارة.
- صيغ شكلية: تتطلب بعض الشعائر الظهور بشكل معين كلبس الإحرام في الحج، والتزين المندوب بخاتم عقيق، واستحباب لبس الثياب النظيفة حين الصلاة، وما أشبه.
- صيغ ظرفية وسياقية: بعض الشعائر الدينية ترتبط بزمان محدد كالصلاة والصوم والحج وزيارة الأربعين مما يفرض قدسية معينة لأوقاتها، وبعضها يرتبط بمكان محدد أيضاً كمشاعر الحج المقدسة في مكة المكرمة، وكزيارة مشاهد أهل البيت (ع) مما يفرض قدسية معينة لتلك الأماكن الشريفة.
- صيغ رمزية: بعض الشعائر تحوي مكونات رمزية كالألوان[1]، حيث يستخدم اللون الأبيض للباس الإحرام للرجال في الحج، ويستخدم الأسود بكثافة في موسم عاشوراء للدلالة على انتشار الحزن بين الناس على الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، ويستخدم الأحمر في الرايات التي ترفع في ذات الذكرى، كما تستخدم الرايات بصورة رمزية في الشعائر الحسينية وكذلك أدوات العزاء وغيرها من الأدوات التي تعبر عن مشاعر الناس وطبيعة تفاعلهم مع الشعيرة المقامة.

إذن فالشعائر الدينية عبارة عن ممارسات وأفعال تقام بصيغ محددة وتهدف إلى التعبير عن التدين وحالة الالتزام لدى المتدينين، وهي ذات تطبيقات وامتدادات واسعة بحيث تشمل مجالات وحقول دينية عديدة، وبعض هذه الشعائر ذو هيئة بسيطة كلبس السواد تعبيراً عن الحزن في أيام عاشوراء، وبعضها ذو هيئة مركبة كالصلاة التي تحتاج إلى عدة مقدمات وشروط لكي تتم من الناحية الشرعية، كما أن بعضها يمكن مزاولته في أي وقت كالتختم بينما الآخر لا يتم إلا وفق شروط زمانية ومكانية خاصة كشعائر الحج الأكبر.

---

(١) الفردان: رمزية الألوان.

الفصل الثاني
المكان الشعائري

معنى أن يكون المكان شعائرياً هو أن يؤدي غرضاً استراتيجياً في وجود الشعائر وتعظيمها وإحيائها، بحيث يتحول إلى منارة علم أو مصدر للهداية والايمان أو مركز لحياة الناس ومعيشتهم أو موضع لغفران الذنوب أو نقطة اتصال بالله سبحانه وتعالى، أو ما أشبه ذلك.

وهناك أماكن عديدة تعتبر مركز الانبعاث الشعائري للشيعة، ومن أهمها مكة المكرمة بما تحويه من مشاعر الحج المقدسة، والمدينة المنورة حيث تحتضن مقام رسول الله (ص) ومسجده الأعظم ومشاهد أربعة من أحفاده هم أئمة الشيعة الحسن بن علي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين زين العابدين، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليهم جميعاً صلوات الله، بالإضافة إلى وجود قبر فاطمة الزهراء (ع) بنت رسول الله (ص) وإن كان مكانه غير معروف لدى المسلمين.

كما أن العراق يحوي بقاعاً مقدسة من أعظمها النجف الأشرف التي تحوي مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وكربلاء المقدسة التي تحوي مشهد الإمام الحسين بن علي وأنصاره عليهم السلام، ومدينة الكاظمية التي تضم مشهد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام، ومدينة سامراء التي تضم مشهد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام، كما تضم سرداب غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

أما ايران ففيها مدينة مشهد المقدسة والتي تحوي مقام الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، ومدينة قم المقدسة والتي تحوي مقام السيدة فاطمة المعصومة بنت الإمام موسى الكاظم (ع).

ويضاف إلى ذلك مدينة دمشق التي تضم مقام السيدة زينب بنت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وغيرها من المناطق والبلدان التي تحوي مقامات تتعلق بآل البيت (ع) أو تنسب اليهم.

كيف تحوّلت أماكن عادية ونائية وقفرة إلى مواقع شعائرية؟

العديد من المدن الشعائرية المقدسة كانت في بادئ أمرها مناطق عادية بل خاملة الذكر وربما قفرة ولا مأهولة، كمكة المكرمة والمدينة المنورة وكربلاء المقدسة والنجف الأشرف وغيرها، إلا أنها تحوّلت إلى مراكز سكانية وبشرية تنبض بالحياة والحيوية والازدهار المعيشي، كما صار العديد منها على مر الأدهر مراكز للعلم والهداية والعبادة.

ويمكن إيعاز هذا التحول الهائل في أوضاع هذه الأماكن إلى الأسباب التالية:

١- حلول موضوع مقدس بها: فجميع المناطق الشعائرية تطورت إلى ما هي عليه الآن بسبب حلول موضوع مقدس فيها، فمكة المكرمة أصبحت كذلك بعد بناء البيت الحرام فيها على يد نبي الله إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، والمدينة المنورة بعد حلول رسول الله صلى الله عليه وآله وكون قبره الشريف فيها، والنجف الأشرف بعد دفن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام فيها، وكربلاء بعد واقعة الطف وتحولها إلى مثوى للإمام الحسين عليه صلوات الله ولأصحابه الشهداء الكرام، وهكذا بقية الأماكن.

٢- الحث على زيارتها: بعد أن أصبحت تلك الأماكن مثوى لقيم أو وقائع أو بقاع أو نفوس مقدسة، صدر عن المشرّع أي الله سبحانه وتعالى أو عن رسوله المصطفى وأهل بيته الكرام عليهم صلوات الله أوامر ودعاوى تحث على الارتباط بتلك البقاع وزيارتها.

وفيما يلي نماذج مما صدر عنهم عليهم صلوات الله:

- ففي الحث على زيارة رسول الله (ص) والأئمة من أهل بيته (ع)، وأن الحج لا يكتمل إلا بزيارتهم (ع)، قال رسول الله (ص): "من حج و لم يزرني فقد جفاني"[1].

وعن الإمام علي (ع) قال: «أتموا برسول الله حجكم إذا خرجتم إلى بيت الله، فإن تركه جفاء، وبذلك أمرتم، وأتموا بالقبور التي ألزمكم الله لزيارتها وحقها»[2].

- وفي الحث على زيارة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في النجف الأشرف: عن أبي وهب البصريّ، قال: دخلت المدينة فأتيت أبا عبدالله (أي الإمام الصادق) عليه السلام، فقلت: جعلت فداك أتيتك و لم أزر قبر أمير المؤمنين عليه السلام.

(١) السبحاني: الزيارة في الكتاب والسنة ـ عن مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر
(٢) الصدوق: الخصال.

قال (ع): «بئس ما صنعت، لولا أنّك من شيعتنا ما نظرت إليك، ألا تزور مَن يزوره الله تعالى مع الملائكة، ويزوره الأنبياء، ويزوره المؤمنون؟»[1].

- وفي الحث على زيارة الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) في كربلاء[2]: عن مُعاوية بن وَهْب، عن أبي عبدالله عليه السلام، أنه قال: «يا معاويةُ لا تَدَع زيارةَ قبر الحسين عليه السلام لخوفٍ، فإنَّ مَن ترك زيارَته رأى من الحَسْرَة ما يتمنّى أنَّ قبره كان عنده، أما تُحبُّ أن يرى الله شخصَك وسوادَك فيمن يدعو له رَسولُ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وعليٌّ وفاطمَةُ والأئمّة عليهم السلام».

وعن محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «مُروا شيعتَنا بزيارة قبر الحسين عليه السلام، فإن إتيانه مفترض على كل مؤمن يقر للحسين عليه السلام بالإمامة مِن الله عزَّ وجلّ»

- وفي الحث على زيارة الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه الصلاة والسلام بمدينة بغداد: عن الحسين بن محمّد الأشعريّ القمّي، قال: قال لي الرّضا عليه السلام: «من زارَ قبر أبي ببغداد كان كمن زارَ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقبرَ أمير المؤمنين عليه السلام، إلاّ أنَّ لرسول الله وأمير المؤمنين فضلهما»[3].

- وفي الحث على زيارة الإمام علي بن موسى الرضا عليه الصلاة والسلام بمدينة طوس: عن حَمدان الدّيوانيّ، قال: دخلت على أبي جعفر الثّاني عليه السلام فقلت: ما لِمَن زارَ أباك بطوس؟

فقال عليه السلام: «مَن زارَ قبر أبي بطوس غفر الله له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر»[4].

وهكذا يبدو واضحاً من هذه الروايات وأشباهها أهمية إتيان قبر أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام بعينه، وكذلك قبر الحسين الشهيد صلوات الله عليه، وكذلك قبور الأئمة عليهم الصلاة والسلام ببغداد عينها، وقبر الرضا عليه السلام بمدينة طوس، أي ضرورة التوجه إلى تلك الأماكن بذاتها لإقامة شعائر الزيارة[5]، مما يحول تلك الأماكن إلى مراكز شعائرية.

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات.
(٢) ابن قولويه: كامل الزيارات.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) لا يعني أن الزيارة من بعد غير واردة، فتلك أيضاً مشروعة ومندوبة، ولكن لكل فضل.

قال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله اختار مِن بقاع الأرض ستّةً: البيت الحرام، والحَرَم، ومقابر الأنبياء، ومقابر الأوصياء، ومقاتل الشُّهداء، والمساجد الَّتي يذكر فيها اسم الله»[1].

وقال تعالى: ﴿ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم﴾ (المائدة ٢١).

٣- الحث على تعظيمها: أصبحت تلك البقاع المقدسة محوراً لمجموعة من عمليات التعظيم والتبجيل، حيث أمرت النصوص الشريفة من القرآن الكريم وأحاديث رسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين بالاهتمام بها أكثر من غيرها من الأماكن، وبصيغ عديدة، منها:

- تشييدها وتعظيم بنائها، حيث ورد في الذكر الحكيم: ﴿في بيوت أمر الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ (النور ٣٦)، وقال تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾ (البقرة ١٢٧).
- واتخاذها أماكن للعبادة والذكر، قال تعالى: ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة﴾ (النور ٣٦)، وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا﴾ (الكهف ٢١)، وفي آية أخرى: ﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوّءا لقومكما بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة﴾ (يونس ٨٧).
- وتطهيرها للعبادة، قال تعالى: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين والعاكفين﴾ (البقرة ١٢٥)، وقال تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا﴾ (التوبة ١٠٨).
- وتأمينها للزائرين، قال تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ (البقرة ١٢٥)، وقال تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات﴾ (البقرة ١٢٦).

٤- تقنين التعامل معها: جزء أساسي من عملية التشعير هو تقنين التعامل مع تلك البقاع المقدسة، والمقصود هنا وضع مجموعة من القوانين والآداب والتشريعات الخاصة بالتوجه والتواجد في الأماكن الشعائرية، وهذه الآداب تتعلق بالمكان نفسه وبالكينونة المقدسة الحالّة فيه، وبالزائر المقبل عليه، بل وبالمقيم فيه أيضاً.

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات.

فمن آداب زيارة البقاع المقدسة الطهارة من الحدث الأكبر والأصغر، والاغتسال للزيارة، ولبس الثياب الطاهرة والنظيفة الجديدة، ويستحسن أن تكون بيضاء، وتقصير الخطى في المشي إليها بسكينة ووقار وخشوع، والتطيب بصورة عامة (ما عدا عند زيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام) وشغل اللسان بالتكبير والتسبيح والتهليل والتمجيد لله والصلاة على محمد وآله عليهم السلام.

ومن آداب الدخول إليها الوقوف على أبوابها والاستئذان للدخول من الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام، وتقديم الرجل اليمنى للدخول واليسرى للخروج، والقيام على القدمين للزيارة (لمن يستطيع)، وتلاوة الزيارات المأثورة المرويّة عن آل بيت رسول الله عليهم جميعاً صلوات الله، والصلاة ركعتين للزيارة، وتلاوة شيء من القرآن الكريم عند الضريح وإهداءه إلى المزور عليه السلام، وترك اللّغو وما لا ينبغي من الكلام، والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى والاستغفار من الذنوب في تلك الأماكن العظيمة، وغير ذلك الكثير من الآداب والسنن والتشريعات[1].

البقاع المقدسة والمشاهد الشريفة في البلاد الإسلامية:

هناك العشرات بل المئات من المزارات الدينية في مختلف البلاد الإسلامية، ومن أهمها بل أهمها على الإطلاق هي المزارات المختصة برسول الله وآل بيته الكرام صلوات الله عليهم أجمعين، وهي متمركزة في مجموعة من البلاد الإسلامية التي تمثل تاريخياً بل وإلى اليوم قلب الأمة الإسلامية، ويمكن تبيينها كالتالي:



خارطة البقاع المقدسة في البلاد الإسلامية

(١) راجع كتب السنن والدعاء المعروفة كمفاتيح الجنان ودليل الشعائر وغيرها

قائمة تعريفية بالمواقع المشار إليها في الخارطة:

١. مكة المكرمة: وفيها قبلة المسلمين الكعبة الشريفة والمسجد الحرام، وتقام فيها مناسك الحج كل عام، كما وتتواجد فيها مقامات لشخصيات رفيعة الشأن ففيها مقبرة الحجون التي تحوي قبور أم المؤمنين السيدة خديجة الكبرى عليها السلام، وأبو طالب بن عبدالمطلب عليهما السلام وهو عم النبي (ص) وكفيله وحاميه، وكذلك بعض أجداد النبي (ص)، ومقامات أخرى غيرها.

٢. المدينة المنورة: وبها مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وقبره الشريف، وقبر السيدة فاطمة الزهراء عليها صلوات الله (ومحله غير معروف)، وقبور الأئمة الحسن بن علي المجتبى، وعلي بن الحسين السجّاد، ومحمد بن علي الباقر، وجعفر بن محمد الصادق عليهم جميعاً صلوات الله، وقبور حمزة بن عبدالمطلب (ع) عم النبي (ص) وبجواره شهداء أحد، ومقبرة البقيع التي تحوي قبور بعض أفراد عائلة النبي (ص) والعديد من المسلمين الأوائل.

٣. النجف الأشرف والكوفة: وبالنجف الأشرف قبر أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، ومعه أنبياء الله آدم ونوح وهود وصالح عليهم السلام، وبالكوفة يقع مسجد الكوفة الأعظم، ومسجد السهلة، ومقامي مسلم ابن عقيل وهانئ بن عروة عليهما السلام، بالإضافة إلى مجموعة من مشاهد الأولياء والصالحين.

٤. كربلاء المقدسة: وبها مقام سيد الشهداء الإمام الحسين بن علي عليه الصلاة والسلام، وأخيه أبي الفضل العباس عليه السلام، ومقامات جميع شهداء كربلاء عليهم السلام، وآثار متعلقة بواقعة كربلاء الأليمة.

٥. الكاظمية المشرفة - بغداد: وبها مقام الإمام موسى بن جعفر الكاظم والإمام محمد بن علي الجواد عليهما صلوات الله، بالإضافة إلى مقامات سفراء الإمام الحجة (عج) الأربعة ومقام سلمان الفارسي رضوان الله عليهم أجمعين.

٦. سامراء المشرفة: وبها مقام الإمام علي بن محمد الهادي والإمام الحسن بن علي العسكري صلوات الله عليهما، وسرداب غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، بالإضافة إلى مثوى بعض أعضاء أسرتهما الشريفة(ع).

٧. مشهد المقدّسة: وبها مقام الإمام علي بن موسى الرضا عليه الصلاة والسلام.

٨. قم المقدسة: وبها مقام السيدة فاطمة المعصومة (ع) أخت الإمام الرضا (ع).

٩. دمشق: وبها مقام العقيلة زينب الكبرى بنت أمير المؤمنين (ع)، ومقام السيدة رقية بنت الإمام الحسين (ع)، ومقامات تنسب لبعض أفراد العائلة العلوية الشريفة (ع).

١٠. بعلبك: وبها مقام السيدة خولة بنت الحسين (ع).

١١. الكرك ـ الأردن: وبها مقام جعفر بن أبي طالب الطيّار عليه السلام، ومعه زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة.

١٢. القدس الشريف: وبها المسجد الأقصى.

١٣. القاهرة: وبها مقام ينسب إلى رأس الإمام الحسين (ع)، ومقام ينسب إلى السيدة زينب بنت أمير المؤمنين (ع)، ومقام السيدة نفيسة بنت الحسن وهي حفيدة الإمام الحسن المجتبى (ع)، كما يتواجد فيها أكثر من عشرة مقامات أخرى لسادة وسيدات من سلالة بيت النبي (ص).

١٤. مزار شريف ـ أفغانستان: وبها مقام ينسب إلى أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

١٥. لاهور ـ باكستان: وبها مقام ينسب إلى السيدة رقية بنت الإمام علي بن أبي طالب (ع) وهي زوجة مسلم بن عقيل (ع)، وكانت ممن حضرن فاجعة كربلاء.

١٦. نارداران ـ آذربيجان: وبها مقام السيدة فاطمة الصغرى بنت الإمام موسى الكاظم (ع).

والملاحظ أن هذه البقاع المقدسة تتموضع في وسط الكرة الأرضية والعالم المأهول بالسكان، وعلى خطوط عبور تاريخية للناس فيما بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، مما يجعل الوصول إليها مناسب وسهل من جميع الجهات، كما أن أغلبها ذات مناخ متوسط الاعتدال فلا هي بشديدة الحرارة ولا البرودة، بحيث يمكن لزائرها من أي صقع أن يتأقلم معها بلا شديد معاناة، وأوقاتها (طول الليل والنهار وتوقيت العبادات فيها) متوسطة الاعتدال أيضاً مما ييسر الشعائر العبادية فيها.

فوائد صناعة المكان الشعائري:

هناك مجموعة من الفوائد الاستراتيجية لتشعير المكان، وهي:

١. مأسسة الارتباط بأهل البيت عليهم الصلاة والسلام عبر آلية محسوسة، فالمكان يشكل أحد أوجه المأسسة، فكما أن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان، ولكنه عز وجل أمر الناس بالتوجه إلى بيته الحرام في موقع محدد لعبادته وأداء الشعائر تقرباً إليه، كذلك فإن وجود مواقع محددة لها ميزة العبادة على غيرها يساعد على رسم آلية تعبيرية عن الإحياء والتعظيم والود والولاية لأصحاب تلك الشعائر، وتلك الآلية هي التحرك والتوجه إلى تلك الأماكن من قريب أو من بعيد وتحمل مشاق السفر وعناء الاستعداد له بالأموال وضرورات الأمن والتوجه قلباً وقالباً إلى أصحاب تلك الأماكن لإعلان الولاية لهم والتبرؤ من مخالفيهم.

يقول احد الكتاب: إن مغادرة الزوار لمكان إقامتهم وعملهم اليومي المألوف تليه رحلة طويلة إلى الأضرحة البعيدة، كان يخضعهم إلى تجربة انتقالية وإلى تضارب المسافة والأمل المرتجى، وكان فعل الزيارة يعني انتقاله من مركز دنيوي معهود إلى طرف مقدس أصبح على حين غرة مركزياً للفرد، وكانت تعكس التزام الزوار بمعالجة المسافة من خلال إدراكهم بأن ما يتمنونه لا يمكن أن يتحقق في محيطهم المباشر[١].

٢. خلق مراكز استراتيجية يمكن توظيفها ثقافياً واقتصادياً وعلمياً وغير ذلك، فالأماكن التي تواجد فيها النبي وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين أصبحت على مر القرون مراكز للعلم كالمدينة المنورة وكربلاء المقدسة والنجف الأشرف وقم المقدسة والكاظمية ببغداد، وحالياً منطقة السيدة زينب (ع) بدمشق ومشهد المقدسة، بل حتى إن سامراء (وهي منطقة يقل فيها اتباع أهل البيت عليهم السلام) تحولت في نهايات القرن التاسع عشر إلى مركز علمي[٢] وذلك بسبب وجود مقامي الإمامين العسكريين عليهما الصلاة والسلام.

ويظهر واضحاً أن استحباب القرب والعيش في ظل أئمة أهل البيت (ع) قد حوّل تلك المدن الشريفة إلى مراكز معيشية مأهولة بالسكان، وأن حركة السفر المتواصلة إليها على مر الدهور والأزمان ومن كل المحطات والمدن من مختلف أصقاع الأرض قد حولها إلى مراكز للتجارة والحركة الاقتصادية والمعيشة وإلى مراكز لنشر العلوم والثقافة.

(١) نقاش: شيعة العراق.
(٢) على يد المرجع الديني السيد حسن الشيرازي رحمه الله. ـ راجع لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث.

٣. خلق حركة تموّج وانتشار ومراكز اتصال بين أتباع أهل البيت عليهم السلام الموزعون على جهات الأرض الأربع، ففيما سبق لم تكن أدوات الاتصال متاحة كما في عصرنا الحاضر، لذا فقد كانت تلك البقاع المقدسة نقطة التقاء وتواصل بين شيعة العالم من كل مكان ومحطة لتبادل المعارف والأخبار والتجارب والحكم ولتعزيز أواصر الأخوة الايمانية، وكان كل من يزور ويرجع يحمل معه صورة أوسع واكبر وأوضح عن وضع اتباع أهل البيت وعقيدتهم في بلاد الله الواسعة.

مثال: تشعير مدينة الكوفة المقدسة:

مدينة الكوفة كانت مدينة مجهولة أو بصورة أدق غير موجودة كمدينة قبل الفتح الإسلامي للعراق، وقد مصّرها المسلمون في عهد الخليفة الثاني، كمركز ومعسكر لجنود الفتوحات ولعوائلهم[١]، وهم أقوام متنوعون من بلدان وقبائل وعشائر عربية عديدة، وبعد ذلك اختارها أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام لتكون مركزاً للفترة التي أدار فيها شئون المسلمين كخليفة عليهم.

وقد اهتم أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام لمدينة الكوفة وقدّسوها وشعّروها وبينوا مكانتها وفضلها وحثّوا شيعتهم واتباعهم من المسلمين على تعظيمها وتقديسها والاهتمام بها والإقامة فيها وإحيائها.

فبحسب التراث الشيعي الوارد عن رسول الله وأهل بيته عليهم جميعاً صلوات الله، مدينة الكوفة هي إحدى المدن الأربعة التي اختارها الله تعالى، وبها قد فسرت كلمة طُور سينين، وفي الحديث أنّها حرم الله وحرم رسوله صلّى الله عليه وآله وحرم أمير المؤمنين عليه السلام، ودرهم واحد يتصدق به فيها يعدل مائة درهم يتصدق بها في مكان آخر، والصلاة فيها ركعتان تعدل مائة ركعة في غيرها[٢].

وأما فضل جامع الكوفة فلا يفي به الذّكر، وحسبه شرفاً أنه أحد المساجد الأَربعة الجديرة بأن تشدَّ إليها الرحال لدرك فضلها، وهو أحد المواطن الأَربعة التي يكون المسافر فيها بالمختار بين القصر والإتمام، والفريضة فيه تعدل حجة مقبولة وتعدل ألف صلاة تصلى في غيره.

(١) جعيط: الكوفة.
(٢) ابن قولويه: كامل الزيارات.

وأول من أسسه هو أبونا آدم عليه السلام[١]، وهو أول مكان عُبد الله تعالى فيه حيث سجدت الملائكة لآدم (ع) على ظهر الكوفة، وفي الروايات أنه موضع قد صلّى فيه الأنبياء، وسيصلي فيه القائم المهدي صلوات الله عليه، وفي الحديث أنّه قد صلّى فيه ألف نبيْ وألف وصي نبيْ، ومنه فار التنور وفيه نجرت سفينة نوح (ع)، ويستفاد من بعض الروايات فضل مسجد الكوفة على المسجد الأقصى في بيت المقدس[٢].

روى ابن قولويه عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه الصلاة والسلام، قال: «لو علم الناس ما لمسجد الكوفة من الفضل لشدُّوا إليه الرحال من بعد البلاد».

وقال عليه السلام: «الصلاة المكتوبة فيه تعدل حجّة مقبولة، والنافلة تعدل عمرة مقبولة»، وعلى رواية أخرى الفريضة والنافلة فيه تعدل حجة وعمرة مع رسول الله صلّى الله عليه وآله.

وروى الكليني[٣] وغيره عن هارون بن خارجة، قال: قال أبو عبدالله (أي الإمام الصادق) صَلَوات الله عَلَيه: «كم بينك وبين مسجد الكوفة يكون ميلاً؟»

قلت: لا.

قال (ع): «أفتصلّي فيه الصلاة كلها؟»

قلت: لا.

قال (ع): «أما لو كنتُ حاضراً بحضرته لرجوتُ أن لا تفوتني فيه الصلاة، أو تدري ما فضل ذلك الموضع؟

ما من نبي ولا عبد صالح إلاّ وقد صلّى في مسجد الكوفة، حتى إن رسول الله صلّى الله عليه وآله لما أسري به إلى السماء قال له جبرائيل: أتدري أين أنت يا محمد؟ أنت السّاعة مقابل مسجد كوفان.

قال (ص): فاستأذن ربّي حتى آتيه فأصلي فيه ركعتين.

فنزل (ص) فصلّى فيه، وإن ميمنته لروضة من رياض الجنة، وإن وسطه لروضة من رياض الجنة، وإن مؤخّره لروضة من رياض الجنة، والصلاة فيه فريضة تعدل بألف صلاة، والنافلة فيه بخمسمائة صلاة، وإن الجلوس فيه بغير تلاوة ولا ذكر لعبادة، ولو علم الناس ما فيه لأتوه ولو حبواً.

---

(١) النجفي: تاريخ الكوفة.
(٢) القمي: مفاتيح الجنان.
(٣) القمي: مفاتيح الجنان

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: جاء رجلٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام وهو في مسجد الكوفة، فقال: السَّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فردَّ عليه السّلام.

فقال: جعلت فداك إنّي أردت المسجد الأقصى فأردت أن أُسلّم عليك وأُودّعكَ.

فقال (ع): أيّ شيء أردتَ بذلك؟

فقال: الفضل جُعلت فداك.

قال (ع): فبع راحِلَتك، وكُلْ زادك، وصلِّ في هذا المسجد، فإنّ الصّلاة فيه حجّة مبرورة، والنّافلة عمرة مبرورة، والبركة منه على اثني عشر ميلاً، يمينه يمنٌ، ويسارُه مَكرٌ، وفي وسطه عينٌ من دُهْن وعينٌ من لَبَن وعينٌ من ماء شراباً للمؤمنين، وعينٌ من ماء طهوراً للمؤمنين، منه سارت سفينة نوح وكان فيه نَسْر ويَغوثُ ويَعوق[1] وصلّى فيه سبعون نبيّاً وسبعون وصيّاً أنا أحدهم ـ وقال (أي أشار) بيده في صدره ـ ما دعا فيه مكروبٌ بمسألة في حاجة من الحوائج إلاّ أجابه الله وفرَّج عنه كُربَتَه»[2].

والى جانب ذلك توجد في مدينة الكوفة معالم ومشاهد مقدسة من أهمها وأشرفها بعد مسجدها الجامع هو مسجد السهلة وهو بيت النبي إدريس عليه السلام، وإبراهيم عليه السلام، ومنزل الخضر عليه السلام ومسكنه.

وعن أبي بصير[3] عن الإمام الصادق صَلَواتُ الله وسَلامُهُ عَلَيه قال، قال لي: «يا أبا محمد كأنّي أرى نزول القائم صلوات الله عليه في مسجد السهلة بأهله وعياله ويكون منزله، وما بعث الله نبياً إلاّ وقد صلّى فيه، والمقيم فيه كالمقيم في فسطاط رسول الله صلّى الله عليه وآله، وما من مؤمن ولا مؤمنة إلاّ وقلبه يحن إليه، وفيه صخرة فيها صورة كل نبي، وما صلّى فيه أحد فدعاً الله بنيّة صادقة إلاّ صرفه الله بقضاء حاجته، وما من أحد استجاره إلاّ أجاره الله مما يخاف منه».

قلت: هذا لهو الفضل.

قال (ع): «نزيدك؟»

قلت: نعم.

---

(١) تشير بعض الروايات أن نسر ويغوث ويعوق كانوا رجالاً صالحين في حياتهم إلا أن أقوامهم صنعوا تماثيل على أشكالهم ليذكروهم بهم، ومع مرور الأيام انحرفت عقائد القوم وحوّلوهم إلى أصنام يعبدونهم من دون الله تبارك وتعالى، فيبدو أن المقصود هنا هو الرجال الصالحين وليس الأصنام التي صنعت لهم.

(٢) ابن قولويه: كامل الزيارات.

(٣) ابن المشهدي: المزار الكبير

قال (ع): «هو من البقاع التي أحبّ الله أن يدعى فيها، وما من يوم ولا ليلة إلاّ والملائكة تزور هذا المسجد يعبدون الله فيه، أما إنِّي لو كنت بالقرب منكم ما صلّيت صلاة إلاّ فيه، يا أبا محمد ما لم أصف أكثر.

قلت: جعلت فداك، لا يزال القائم (ع) فيه أبداً؟

قال (ع): «نعم».

وقد صدر عن أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام العديد من التوجيهات المتضمنة لأعمال وبرامج عبادية مندوبة في مسجدي الكوفة والسهلة تبدأ من لحظة دخولهما بل من لحظة دخول مدينة الكوفة[1].

فهناك دعاء وذكر حينما يدخل الزائر المدينة وحينما يدخل من باب المسجد[2]، ثم يبدأ بصلاة ودعاء خاصين عند الأسطوانة الرابعة التي كان يصلي عندها النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، ثم يتحول إلى دكة القضاء التي كان أمير المؤمنين عليه السلام يقضي عندها ويصلي ويدعو بدعاء خاص، ثم يتحول إلى بيت الطست المتصل بدكة القضاء حيث وقعت معجزة أخرى لأمير المؤمنين (ع) أظهر فيها براءة فتاة اتهمها أهلها بالزنا، ويصلي الزائر هناك ويدعو بدعاء خاص، ثم يتحول إلى دكة المعراج في وسط المسجد وهو المكان الذي نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أثناء عروجه وصلى فيه، فيؤدي الزائر فيه صلاة ودعاء خاصين، ثم يتحول إلى الأسطوانة السابعة وهي مقام آدم عليه السلام الذي تاب فيه ويؤدي الأدعية والصلوات الخاصة عندها، ثم يتحول إلى الأسطوانة الخامسة وهي مقام جبرائيل عليه السلام ويصلي ويدعو عندها، ثم يتحول إلى الأسطوانة الثالثة وهي مقام الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه الصلاة والسلام ويصلي ويدعو عندها، ثم يتحول إلى مقام نوح عليه السلام ويؤدي فيه الصلوات والأذكار المستحبة، ثم يتحول إلى المحراب الذي استشهد فيه أمير المؤمنين عليه السلام ويؤدي أعماله، ثم يتحول إلى دكة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فيؤدي ما ورد من أعمال هناك.

وكذلك الأمر بالنسبة لمسجد السهلة حيث توجد أذكار وأدعية خاصة لدخوله، ثم يبدأ الزائر بوسط المسجد حيث دكة الإمام الصادق عليه السلام فيصلي ركعتين ويدعو بدعاء

(١) جعفر: دليل الشعائر.

(٢) يستحب الدخول من باب الثعبان الذي حصلت عنده معجزة حديث أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام مع ثعبان كبير فعرف الباب باسم الواقعة، وحين أراد معاوية بن أبي سفيان في فترة حكمه أن ينسي الناس الحادثة أتى بفيل وأوقفه لفترة طويلة خارج الباب فسمي الباب بعد ذلك بباب الفيل، ثم رجع الاسم إلى ما كان عليه. الجدير بالذكر أن للمسجد الشريف خمسة أبواب أساسية هي باب الحجة (ع)، وباب الثعبان وباب الرحمة وباب الأزدي وباب الأشتر.

خاص، ثم يتحول إلى الزاوية الغربية الشمالية المعروفة بمقام إبراهيم الخليل عليه السلام فيصلي ركعتين ويدعو بدعاء خاص، ثم يتحول إلى الزاوية الغربية الجنوبية المعروفة بمقام النبي إدريس عليه السلام فيصلي ركعتين ويدعو بما ورد، ثم يتحول إلى الزاوية الشرقية الجنوبية المعروفة بمقام الخضر عليه السلام فيؤدي أعمالها، ثم إلى الزاوية الشرقية الشمالية المعروفة بمقام الأنبياء فيؤدي أعماله، ثم يؤدي أعمال بيت الوسط المعروف بمقام الإمام زين العابدين عليه السلام.

وهكذا نرى بأن أهل البيت (ع) شعّروا الكوفة ومسجديها الرئيسيين بمجموعة كبيرة من الشعائر وهناك أكثر مما ذكرنا، بل إن الكوفة مليئة بالمشاهد الشريفة ففيها بيت أمير المؤمنين عليه السلام ومشاهد ومساجد ومقامات العديد من أصحابه كميثم التمار وكميل بن زياد وصعصعة بن صوحان وأخيه زيد بن صوحان وكذلك مقام خديجة ابنة أمير المؤمنين (ع)، ومقام ابن أخيه مسلم بن عقيل (ع) وصاحبه هانئ بن عروة وغيرها.

وهذا النمط من التشعير استخدم أيضاً بل وبصورة أوسع مع المدن المقدسة الأخرى ككربلاء والمدينة المنورة ومكة المكرمة والنجف الأشرف وغيرها.

الفصل الثالث
الزمان الشعائري

معنى أن يكون الزمان شعائرياً هو أن يصبح وقتاً لإحياء القلب، أو لاكتساب البصيرة الصالحة، أو للتعلّم، أو لاكتساب المعاش، أو لتهذيب النفس، وما أشبه ذلك.

لمسار الزمان حالتان:

١. حالة دورية: تتمثل في الدورات الزمنية اليومية المتمثلة في تعاقب الليل والنهار، والدورات الأسبوعية في كل شهر، والشهرية في كل عام.

٢. حالة ممتدة: وتتمثل في الماضي الذي انقضى، والحاضر الذي نعيشه انطلاقاً من الماضي، والمستقبل الذي سنقتحمه بعد عبورنا للحاضر.

وقد تتداخل هاتان الحالتان، فوقوع حدث مهم في الماضي قد يتحول إلى ذكرى نحييها في حاضرنا، وذلك لا يكون إلا بوجود الحالة الدورية للزمن، فدوران ذلك الحدث عبر مدارات الزمان يعيده إلينا بصورة يومية (كالصلاة) أو أسبوعية (كإحياء الجمعة) أو شهرية (كإحياء الليالي البيض في بعض الشهور) أو سنوية (كالأعياد الثلاثة)، كما إن يقيننا بأن هذه الأمور ستتكرر في المستقبل، يجعلنا نتهيّأ لها ونستعد لمراسيمها عن قصد ونية.

وقد ملأ أئمتنا عليهم الصلاة والسلام حياتنا بالأوقات والأزمان الشعائرية، فالزمان يختلف عن المكان المنفصل عنا تكوينياً، فالزمان يعيش معنا حيث كنا فليلة الجمعة هي ليلة الجمعة سواء كان من يحييها في بلد قريب أو بعيد، حر أم عبد، ذكر أم أنثى، وإن كان لإحيائها بالتواجد في بعض الأماكن المقدسة فضل أكبر.

كيف تحولت أزمنة عادية إلى أزمنة شعائرية؟

إن عملية تشعير الزمان لا تختلف في جوهرها عما يتم لتشعير المكان، وذلك كالتالي:

١- حلول موضوع مقدس به: فعملية الإشعار تتولد من ربط زمان ما بقيمة أو شخصية أو واقعة مقدسة، وقد تكون هذه القيمة سياسية كيوم الاستقلال في بعض البلدان، أو دينية كيوم ولادة أو استشهاد شخصية ذات قدسية دينية، أو اجتماعية كيوم اقتران شخصين (ذكرى زواج) في بعض المجتمعات، أو ما أشبه.

وبالنسبة لاتباع أهل البيت (ع)، فقد شعّر لهم أئمتهم (ع) كم هائل من الأوقات اعتماداً على صلة تلك الأوقات بقيم ومفاهيم ووقائع ذات منزلة دينية عظيمة.

فمثلاً هناك العديد من الروايات التي تحث على إحياء ليلة الجمعة لفضلها عند الله سبحانه وتعالى، فعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «إنّ الله اختار الجُمعة فجعل يومها عيداً، واختار ليلتها فجعلها مثلها، وانّ من فضلها أن لا يسأل الله عزّ وجلّ أحد يوم الجُمعة حاجة إلا استجيب له، وان استحقّ قوم عقاباً فصادفوا يوم الجمعة وليلتها صرف عنهم ذلك، و لم يبق شيء ممّا احكمه الله وفضّله إلا أبرمه في ليلة الجمعة، فليلة الجمعة أفضل اللّيالي ويومها أفضل الأيام»[1].

وهناك أوقات تم تشعيرها بسبب ارتباطها بحدث أو بشخصية مقدسة كتشعير يوم العاشر من شهر محرم الحرام (عاشوراء) بسبب كونه يوم استشهاد الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، وتشعير يوم السابع عشر من شهر ربيع الأول لكونه يوم ولادة رسول الله الأعظم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله، وغير ذلك كثير.

٢- الحث على إحياءه: فبعد تبيين منزلة الزمان الشعائري، يتم الحث على إحيائه بالأعمال العبادية والايمانية التي تعبر عن طبيعة ذلك الزمان والقيمة التي يختزنها. فمثلاً فيما يختص بليلة الجمعة من كل أسبوع هناك حث شديد من أئمة أهل البيت عليهم السلام بضرورة إحيائها بأنواع العبادات والدعاء والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى.

فعن الإمام محمد بن علي الباقر عليه الصلاة والسلام، انه قال: «إنّ الله تعالى ليأمر ملكاً فينادي كلّ ليلة جمعة من فوق عرشه من أوّل الليل إلى آخره: ألا عبد مؤمن يدعوني لآخرته ودنياه قبل طلُوع الفجر فأجيبه؟

ألا عبد مؤمن يتوب إليّ من ذنوبه قبل طلوع الفجر فأتوب عليه؟

ألا عبد مؤمن قد قتّرت عليه رزقه فيسألني الزّيادة في رزقه قبل طلوع الفجر فأزيده وأوسع عليه؟

ألا عبد مؤمن سقيم فيسألني أن أشفيه قبل طلوع الفجر فأعافيه؟

---

(١) القمي: مفاتيح الجنان.

ألا عبد مؤمن مغموم محبوس يسألني أن أطلقه من حبسه وأفرّج عنه قبل طلوع الفجر فأطلقه وأخلّي سبيله؟

ألا عبد مؤمن مظلوم يسألني أن آخذ له بظلامته قبل طلوع الفجر فأنتصر له وآخذ بظلامته؟

قال (ع): فلا يزال ينادي حتّى يطلع الفجر»[1].

وفيما يتعلق بزيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام فهي مستحبة في كل يوم وطوال العام، ولكن هناك أوقات معينة يكون الاستحباب فيها مؤكداً وثوابه كبيراً، كزيارته عليه السلام في يوم عاشوراء وفي يوم عرفة وفي اليوم الأول من شهر رجب وفي عيدي الفطر والأضحى وفي ليالي القدر، وأوقات أخرى غيرها.

وعن بشير الدَّهّان، قال: قال جعفر بن محمّد عليهما السلام: «من زارَ قبرَ الحسين عليه السلام يوم عرفة عارفاً بحقّه كتب الله له ثوابَ ألف حَجّة، وألفِ عُمْرة، وألفِ غزوة مع نبيٍّ مرسل، ومَن زارَ أوَّل يوم مِن رَجَبَ غفر الله له البتَّة»[2].

٣- تعظيم الزمان الشعائري: وذلك يكون بمجموعة من الأمور، منها:

- الاستعداد له: ففي الروايات عن آل الرسول عليهم صلوات الله أن فاطمة الزهراء عليها السلام كانت لا تدع أهلها ينامون في ليلة القدر وتعالجهم بقلة الطعام وتتأهب لها من النهار أي تأمرهم بالنوم نهاراً لئلا يغلب عليهم النعاس ليلاً[3].

- إحيائه: وذلك بالتطهّر والعبادة بالصلوات والأدعية والزيارات المكتوبة وبطلب العلم وبالأعمال الصالحة، قال تعالى في تعظيم الأوقات الشعائرية: ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات﴾ (الحج ٢٨).

وفي الحديث الشريف في شأن ليلة القدر مثلاً: «من أحيا ليلة القدر غفرت له ذنوبه ولو كانت ذنوبه عدد نجوم السماء ومثاقيل الجبال ومكاييل البحار»[4].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في شأن إحياء اليوم الأول من شهر شعبان: «من صام أول يوم من شعبان وجبت له الجنة البتة»[5].

(١) القمي: مفاتيح الجنان.
(٢) ابن قولويه: كامل الزيارات.
(٣) القمي: مفاتيح الجنان.
(٤) ابن طاووس: إقبال الأعمال.
(٥) المصدر السابق.

٤- تقنين التعامل معه: وذلك من خلال مجموعة من الآداب والقوانين والسنن والإرشادات، فمثلاً هناك آداب ليوم الجمعة كالاغتسال وتقليم الأظفار والتطيب ولبس الثياب الصالحة النظيفة والتصدق وإتحاف الأطفال والأولاد بما يسرهم والتفرغ لتعلم أحكام الدين وللعبادة ومزاولة الأعمال الصالحة كملاقاة الإخوان المؤمنين وغير ذلك.

ومن آداب ليلة عيد الفطر مثلاً، الغسل عند غروب الشمس وإحياءها بالصلاة والدعاء والاستغفار والبيتوتة في المسجد، والاغتسال مرة ثانية آخر الليل والجلوس في المصلّى إلى طلوع الفجر، وغير ذلك.

ومن آداب يوم الثامن عشر من ذي الحجة وهو يوم بيعة الولاية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام في غدير خم ويسمى بعيد الغدير، تحسين الثّياب والتزيّن واستعمال الطّيب، وإظهار السّرور والابتهاج وإفراح الشيعة والعفو عنهم وقضاء حوائجهم، وصلة الأرحام والتّوسّع على العيال، وإطعام المؤمنين وتفطير الصّائمين، ومصافحة المؤمنين، وزيارتهم والتّبسّم في وجوههم وإرسال الهدايا اليهم، وشكر الله تعالى على نعمته العظمى نعمة الولاية والإكثار من الصّلاة على محمّد وآل محمّد عليهم السلام، والعبادة والطّاعة والتصدّق، وغير ذلك من الآداب الخاصة بالعديد من الأزمنة الشعائرية.[1]

قائمة الأزمنة الشعائرية:

وفيما يلي إشارة سريعة إلى اهم الأزمنة الشعائرية لدى اتباع آل بيت رسول الله صلى الله عليهم أجمعين:

١- الأزمنة الشعائرية اليومية: وأهمها هي الأوقات التي خصصت للفرائض اليومية، وهي الفجر والزوال والمغرب والسحر، قال تعالى: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا﴾ (الإسراء ٧٨)، وقال تعالى: ﴿وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ (ق ٤٠).

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام، قال: «أن الله عزّ وجل فرض عليكم الصلوات في أحب الأوقات إليه، فاسألوا الله حوائجكم عقيب فرائضكم»[2].

(١) القمي: مفاتيح الجنان.
(٢) جعفر: دليل الشعائر.

أما السحر أي الفترة الواقعة بين منتصف الليل وطلوع الفجر فهي وقت صلاة الليل المستحبة، وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «صلاة الليل تحسن الوجه وتحسن الخلق وتطيّب الريح وتدرّ الرزق وتقضي الدّين وتذهب بالهم وتجلو البصر».

٢- الأزمنة الشعائرية الأسبوعية: بيّن أئمة أهل البيت عليهم السلام فضلاً لجميع أيام الأسبوع وخصصوا لها أعمال وأدعية بل وزيارات، ولكن أهم الأزمنة الأسبوعية هو ليلة ويوم الجمعة.

فعن الإمام الصادق عليه السلام، قالَ: «إنّ للجمعة حقاً فإياك أن تضيّع حرمته أو تقصّر في شيء من عبادة الله تعالى والتقرّب إليه بالعمل الصّالح وترك المحارم كلها فإنّ الله تعالى يُضاعف فيه الحسنات ويمحو السّيّئات ويرفع فيه الدّرجات، ويومه مثل ليلته فإن استطعت أن تحييها بالدّعاء والصّلاة فافعل فإن الله تعالى يرسل فيها الملائكة إلى السّماء الدّنيا لتضاعف فيها الحسنات وتمحو فيها السيّئات، وإنّ الله واسعٌ كريم»[١].

٣- الأزمنة الشعائرية الشهرية: هناك أدعية وصلوات خاصة بكل ليلة ويوم من أيام الشهر العربي الثلاثون، وهناك نوع من التوكيد على اليوم الأول والأخير من كل شهر خصوصاً الأشهر الموسومة للعبادة كمحرم الحرام ورجب المرجب وشعبان المكرم ورمضان المعظم وذي الحجة الحرام.

كما يستحب إحياء الليالي البيض[٢] (أي ليلة الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) وبالخصوص ليلة النصف من أشهر رجب وشعبان ورمضان، حيث ورد فيها أعمال شعائرية كثيرة.

٤- الأزمنة الشعائرية السنوية: وهي عديدة:

- اليوم الأول من السنة وفيه شعائر خاصة ببداية سنة جديدة من حياة الإنسان.
- عاشوراء وهي العشرة أيام الأولى من شهر المحرم الحرام والتي يتم فيها إحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام في كربلاء، ويلحق بها يوم العشرون من شهر صفر وهو يوم ذكرى الأربعين لشهادته عليه الصلاة السلام.
- أربعة عشر يوماً في السنة وهي التي تمر فيها ذكرى ولادة المعصومون الأربعة عشر ويتم إحيائها بالمراسم الدالة على الفرح والبهجة والسرور.

(١) ابن طاووس: جمال الأسبوع

(٢) سميت بذلك لاكتمال البدر فيها وزيادة ضيائها على ضياء ليالي الشهر الأخرى.

- أربعة عشر يوماً في السنة وهي التي تمر فيها ذكرى وفاة المعصومون الأربعة عشر ويتم إحيائها بالمراسم الدالة على الحزن والأسى والعزاء.
- الأيام التي تؤرخ للحوادث والوقائع المقدسة كيوم مبعث رسول الله (ص) في السابع والعشرون من رجب، وليالي القدر الثلاث (ليالي ١٩ و٢١ و٢٣) من شهر رمضان، وعيد الفطر في الأول من شوال، ويوم دحو الأرض في الخامس والعشرون من شهر ذي القعدة، وعيد الأضحى في اليوم العاشر من ذي الحجة، وعيد الغدير في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، ويوم المباهلة في الرابع والعشرون من ذو الحجة، وغيرها.
- الأشهر العبادية والتي وردت فيها أعمال عبادية وشعائرية عامة طوال الشهر وأعمال خاصة بليالي وأيام محددة فيها، وهي أشهر رجب وشعبان ورمضان والثلاثة عشر يوماً الأولى من شهر ذي الحجة وهي ذروة أيام الحج.
- اليوم الأخير من السنة وفيه شعائر خاصة بنهاية سنة حافلة من حياة الإنسان.

وهذه الدورات الشعائرية يمكن إحيائها بشكل منفصل أو متقاطع مع الأخرى، بحسب الظرف، وهي يمكن أن تملأ حياة الإنسان المؤمن بأكبر قدر من الفعاليات والسلوكيات الدينية والعبادية فيما لو رغب بذلك وكان محباً للتفرغ للعبادة، كما يمكنه أن ينتقي منها ما يشاء بحسب وقته وطاقته.

مميزات الأزمنة الشعائرية:

هناك عدة مميزات للأزمنة الشعائرية، وهي كالتالي:

- أزمنة بدايات: العديد من الأزمنة الشعائرية تتعلق بالبدايات، كبداية السنة الجديدة وبداية الشهر خصوصاً الشهور العبادية وبداية اليوم خصوصاً بعد صلاة الصبح، ولعل ذلك يشير إلى أهمية البدايات في حياة الإنسان وضرورة العناية بها والتحرز فيها من الأخطاء، فالبداية السليمة تقود غالباً إلى مسار سليم.
- أزمنة نهايات: هناك أزمنة شعائرية تتعلق بالخواتيم وهي تقابل تلك المتعلقة بالبدايات، كخاتمة السنة والشهر والأسبوع واليوم، ولعل ذلك أيضاً لدفع الإنسان للاهتمام بخواتيم أموره وليس فقط ببداياتها.

- أزمنة تبدّلات: ويقصد بها التحولات كوقت التحول من النهار إلى الليل وبالعكس وهو وقت صلاة الفجر والعشائين ولعل ذلك سبب كثرة أدعية الصباح والمساء، والانتقالات كأعمال الانتقال من شهر (نهايته) إلى آخر (بدايته)، والانقلابات كوقت صلاة الظهر وهو وقت الزوال وانقلاب الظل، ومنتصف الشهر وقت انقلاب الحالة القمرية وبدء العد العكسي لأيام الشهر، وبداية النصف الثاني من العام والذي يصادف بداية شهر رجب المرجب.
- أزمنة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام: العديد من الأزمنة الشعائرية تتعلق بالشخصيات الأساسية والمحورية في حياة المسلمين وهم رسول الله وأهل بيته عليهم جميعاً صلوات الله، وذلك لتمتين العلاقة والرابطة بين المؤمنين وبين أئمتهم من آل البيت عبر إحياء ذكرى مولدهم واستشهادهم في كل عام.
- أزمنة وقائع مصيرية: فبعض الأزمنة الشعائرية يتعلق بحوادث كبرى ومصيرية كمبعث النبي (ص) وعيد الغدير وما أشبه، وذلك لتثبيت أهمية ومضامين هذه المناسبات في حياة المؤمنين ووجدانهم.
- أزمنة تفكر وسكينة: العديد من الأوقات والأعمال الشعائرية يتم تخصيص الفترة الليلية وليس النهارية لإقامتها، ولعل ذلك يعود إلى أسباب إنسانيه مثل انشغال الناس عادة في النهار بأمور معيشتهم بينما يتفرغون في الليل للراحة وللاهتمامات الأخرى، وأيضاً لأن الليل غالباً ما يكون الفترة التي يخلو فيها الإنسان إلى نفسه والتفكير في إصلاح شأنه ومراجعة حساباته، وبمعنى آخر تقدير أموره، ولعل هذا أحد أسباب تعيين ليلة للقدر بدلاً من يوم أو نهار.

فوائد الصناعة الشعائرية للزمان:

١. الوعي بالزمن: إدخال ارتباط الحياة بحركة الزمن في وعي الإنسان اليومي، فادراك الإنسان بقدسية وفضل الأوقات التي تمر عليه في كل آن في حياته، وبأنه مثاب أو محاسب عليها يوماً ما، ومعرفته العينية بتلك الأزمان والأوقات، تولّد لديه عناية بالوقت وتخلق لديه الحافز لاستثماره، بدل أن يمضي الكثير من عمره بلا معنى.

٢. منبع للحيوية الايمانية: فأهل البيت (ع) لم يشيروا إلى تلك الفترات الزمنية المقدسة فقط وإنما أوضحوا لنا آليات الاستفادة منها والعمل فيها وكيفية إحيائها، سواء كان ذلك

العمل عبارة عن أداء زيارة أو دعاء أو صلاة أو اعتكاف أو تلاوة أو مجالسة أو فرح أو جزع أو غير ذلك، وبالتالي سنّوا منهجاً لإحياء كل شعيرة زمانية (أو مكانية).

٣. تنظيم العملية التعبوية والإصلاحية لحياتنا: إن كل هذه الدورات والبرامج الزمنية يمكن دمجها بصيغ متعددة وتحويلها إلى مصدر إثراء روحي ومعنوي ومادي في حياة الإنسان، ويمكن أن تساعد المرء على تشكيل حياته وسلوكياته سواء فيما يخص علاقته بنفسه أو ببيئته الاجتماعية أو بربه أو بدنياه أو بآخرته، فالأعمال المسنونة كثيرة جداً وشديدة التنوع، وهي تلائم الصغار والكبار، ومن لديه وقت فائض أو كان وقته محدوداً، ومن لديه نفس طويل أو قصير للعبادة وأداء السنن، وحتى من كان في سفر أو في حضر (بل أن هناك أعمال وشعائر خاصة بالسفر والمسافرين)، ومن كان في صحة وعافية أو كان مريضاً بعلة (وهناك أعمال وشعائر خاصة بالمرضى بمختلف أنواع العلل)، وغير ذلك من التنوّع.

٤. تنظيم الارتباط بالقضايا والقيم المقدسة: فهذه الشعائر تؤكد على إحياء المواسم المتعلقة بالشخصيات والوقائع والقيم المحورية في العقيدة الإسلامية، وبالتالي فإنها تعزز باستمرار الارتباط بهم عملياً وفكرياً ونفسياً وروحياً مما يقلل من الثغرات التي يمكن أن ينفذ منها الشيطان إلى حياتنا.

ونورد فيما يلي مثالين في شأن تشعير بعض الأزمنة الدينية، وهما تشعير يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة الحرام وهو اليوم الذي نصّب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام وصيّاً له أمام جميع المسلمين وذلك في المنطقة التي يقع فيها غدير ماء يسمى بغدير خم، فسمي ذلك اليوم في تراث أهل البيت عليهم السلام بيوم الغدير أو بعيد الغدير.

والمثال الثاني هو تشعير شهر رجب المرجب وهو من الأشهر الحرم الأربعة، حيث بيّن أهل البيت عليهم السلام منزلة هذا الشهر الحرام والأعمال المندوبة فيه بصورة منهجية.

مثال: تشعير يوم الغدير:

وهو عيد الله الأكبر، وعيد آل محمّد عليهم الصلاة والسلام، وهو أعظم الأعياد كما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، ما بعث الله تعالى نبيّاً إلا وهو يعيد هذا اليوم ويحفظ حُرمته، واسم هذا اليوم في السّماء يوم العهد المعهود، واسمه في الأرض يوم الميثاق المأخوذ

والجمع المشهود، وهو اليوم الذي انتصر فيه موسى على السّحرة، وجعل الله تعالى النّار فيه على إبراهيم الخليل برداً وسلاماً، ونصب فيه موسى عليه السلام وصيّه يوشع بن نون، وجعل فيه عيسى عليه السلام شمعون الصّفا وصيّاً له، وأشهد فيه سليمان عليه السلام قومه على استخلاف آصف بن برخيا[1]، وقد وردت في فضله وإحياء ذكراه أحاديث كثيرة جداً ولكننا هنا نقتصر على روايتين فقط ومن أراد التفصيل فيمكنه الرجوع إلى مصادر الشيعة في هذا الشأن وهي كثيرة.

روي عن عبد الرحمن بن سا لم عن أبيه، قال: سألت أبا عبدالله (أي الإمام الصادق) عليه السلام: هل للمسلمين عيد غير يوم الجمعة والأضحى والفطر؟

قال (ع): نعم، أعظمها حُرمة.

قلت: وأيّ عيد هو جعلت فداك؟

قال (ع): اليوم الذي نصب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام وقال «ومن كنت مولاه فعليٌّ مولاه».

قلت: وأي يوم هو؟ (يقصد من أيام الأسبوع)

قال (ع): ما تصنع باليوم، إن السنة تدور ولكنه يوم ثماني عشر من ذي الحجّة.

قلت: وما ينبغي لنا أن نفعل في ذلك اليوم؟

قال (ع): تذكرون فيه الصّيام والعبادة والذّكر لمحمّد وآل محمّد عليهم السلام والصّلاة عليهم، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام أن يتّخذ ذلك اليوم عيداً، وكذلك كانت الأنبياء تفعل، كانوا يوصون أوصياءهم بذلك فيتّخذونه عيداً.[2]

وفي رواية أخرى[3] عن أبي نصر البزنطي، عن الإمام الرّضا صلوات الله وسلامُه عليه انّه قال: يا ابن أبي نصر، أينما كنت فاحضر يوم الغدير عند أمير المؤمنين عليه السلام فإنّ الله تبارك وتعالى يغفر لكلّ مؤمن ومؤمنة ومسلم ومُسلمة ذنوبُ ستّين سنة، ويعتق من النّار ضعف ما اعتق في شهر رمضان وليلة القدر وليلة الفطر، والدرهم فيه بألف درهم لإخوانك العارفين، وأفضل على إخوانك في هذا اليوم، وسُرّ فيه كلّ مؤمن ومؤمنة، والله لو عرف النّاس فضل هذا اليوم بحقيقته لصافحتهم الملائكة في كلّ يوم عشر مرّات.

(١) القمي: مفاتيح الجنان.
(٢) ابن طاووس: إقبال الأعمال.
(٣) القمي: مفاتيح الجنان.

والخلاصة إنّ تعظيم هذا اليوم الشّريف لازم وقد أورد أئمتنا عليهم الصلاة والسلام له أعمال عديدة، منها الصوم والغسل وزيارة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام سواء بالحضور في مشهده الشريف في النجف الأشرف أو زيارته من بعد حيث يكون الزائر في بلده ومكان إقامته، وقد وردت زيارة خاصة له عليه السلام في هذا اليوم وهي زيارة مطولة مليئة بالمعاني المتعلقة بموضوع الوصاية والإمامة ودور أمير المؤمنين عليه السلام في نصرة الدين وإحياء شريعة رسول رب العالمين (ص).

كما وردت صلوات وأدعية خاصة عديدة لهذا اليوم، بل قد وردت تهنئة خاصة فيه، وهي أن يقول لمن لاقاه من المؤمنين: «اَلْحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَنا مِنَ الْمُتَمَسِّكينَ بِوِلاَيَة أميرِ الْمُؤْمنينَ والأَئمَّة عَلَيْهِمُ السَّلامُ»، ويقول أيضاً: «اَلْحَمْدُ للهِ الَّذي أَكْرَمَنا بِهَذَا الْيَوْم وجَعَلَنا مِنَ الْمُوْفِينَ بِعَهْدِه إِلَيْنا وميثَاقِه الَّذي وَاثَقَنا بِه مِنْ وِلاَيَة وُلاَة أَمْرِه والْقُوَّام بِقِسْطِه ولَمْ يَجْعَلْنا مِنَ الْجَاحِدينَ والْمُكَذِّبِينَ بِيَوْم الدِّينَ»

كما ينبغي فيه أن يواخي المؤمن أخاه بأن يضع يده اليمنى على اليد اليمنى لأخيه المؤمن ويقول: «وَاخَيْتُكَ في اللهِ وصَافَيْتُكَ في اللهِ وصَافَحْتُكَ في اللهِ وعاهَدْتُ اللهَ ومَلائكَتَهُ وكُتُبَهُ ورُسُلَهُ وأَنْبِياءَهُ والأَئمَّةَ الْمَعْصُومينَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ عَلى أَنِّي إِنْ كُنْتُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّة والشَّفاعَة وأُذِنَ لي بِأَنْ أَدْخُلَ الْجَنَّةَ لاَ أَدْخُلُها إِلَّا وأَنْتَ مَعي»، فيجيبه أخوهُ المؤمن: «قَبِلْتُ»، فيعود ويقول: «أَسْقَطْتُ عَنْكَ جَميعَ حُقُوقِ الأُخُوَّة ما خَلاَ الشَّفاعَةَ والدُّعَاءَ والزِّيَارَةَ».[1]

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[2] في هذا اليوم فضيلة عظيمة لكلّ من أعمال تحسين الثّياب والتزيّن واستعمال الطّيب وإظهار السّرور والابتهاج وإفراح شيعة أمير المؤمنين صلوات الله وسلامُهُ عليه، والعفو عنهم وقضاء حوائجهم وصلة الأرحام والتّوسّع على العيال وإطعام المؤمنين وتفطير الصّائمين ومصافحة المؤمنين وزيارتهم والتّبسّم في وجوههم وإرسال الهدايا اليهم وشكر الله تعالى على نعمته العظمى نعمة الولاية، والإكثار من الصّلاة على محمّد وآل محمّد عليهم أفضل الصلاة والسلام ومن العبادة والطّاعة، ودرهم يعطى فيه المؤمن أخاه يعدل مائة ألف درهم في غيره من الأيام وإطعام المؤمن فيه كإطعام جميع الأنبياء والصّديقين.

وقد استخدم أئمتنا عليهم الصلاة والسلام هذا النمط من التشعير مع أيام مقدسة

(١) القمي: مفاتيح الجنان.
(٢) ابن طاووس: إقبال الأعمال.

أخرى عديدة كيوم مولد رسول الله صلى الله عليه وآله في السابع عشر من ربيع الأول ويوم مبعثه الشريف في السابع والعشرين من شهر رجب، وليلة النصف من شهر رمضان المبارك وهي ليلة ولادة الإمام الحسن المجتبى عليه صلوات الله، ويوم الخامس عشر من شعبان وهو يوم ولادة الإمام الثاني عشر المهدي المنتظر عجل الله فرجه، ويوم العاشر من شهر محرم وهو يوم استشهاد الإمام الحسين صلوات الله عليه في كربلاء، وليالي القدر ويومي عيد الفطر وعيد الأضحى وغيرها من الليالي والأيام المهمة في تاريخ أهل بيت النبوة والرسالة.

مثال: تشعير شهر رجب المرجب:

وقد شعّر أهل البيت عليهم السلام أشهراً بكاملها كشهري رجب وشعبان وشهر رمضان المبارك، وهنا نقتصر في إيراد ما جاء في شأن رجب الحرام.

روي عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّ رجب شهر الله العظيم لا يقاربه شهر من الشّهور حرمةً وفضلاً، والقتال مع الكفّار فيه حرام، ألا إنّ رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أُمّتي، ألا فمن صام من رجب يوماً استوجب رضوان الله الأكبر وابتعد عنه غضب الله وأغلق عنه باب من أبواب النّار».

وروى ابن بابويه بسند معتبر، عن سالم قال: دخلت على الصّادق عليه السلام في رجب وقد بقيت منه أيّام، فلمّا نظر إليّ قال لي: «يا سالم، هل صمت في هذا الشّهر شيئاً؟»

قلت: لا والله يا ابن رسول الله.

فقال عليه السلام لي: «فقد فاتك من الثّواب ما لم يعلم مبلغه إلا الله عز وجل، إنّ هذا شهر قد فضّله الله وعظّم حرمته وأوجب الصّائمين فيه كرامته».

فقلت له: يا ابن رسول الله فإن صمت ممّا بقي منه شيئاً هل أنال فوزاً ببعض ثواب الصّائمين فيه؟

فقال عليه السلام: «يا سالم، من صام يوماً من آخر هذا الشهر كان ذلك أماناً من شدّة سكرات الموت وأماناً له من هول المطّلع وعذاب القبر، ومن صام يومين من آخر هذا الشّهر كان له بذلك جوازاً على الصّراط، ومن صام ثلاثة أيّام من آخر هذا الشّهر أمن يوم الفزع الأكبر من أهواله وشدائده وأعطي براءة من النّار».(١)

---

(١) القمي: مفاتيح الجنان.

وعن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، قال: «رجب شهر عظيم يضاعف الله فيه الحسنات ويمحو فيه السيئات، من صام يوماً من رجب تباعدت عنه النّار مسير سنة، ومن صام ثلاثة أيام وجبت له الجنّة».(١)

وقد ورد فيه أصناف من الأعمال، فهناك الأعمال الافتتاحية أي التي يفتتح بها الشهر، ففي الليلة الأولى منه ورد استحباب الغسل وزيار خاصة بالإمام الحسين عليه الصلاة والسلام وأدعية خاصة، وكذلك في اليوم الأول بالإضافة إلى الصيام وصلاة سلمان الفارسي وهي صلاة علمه إياها رسول الله صلى الله عليه وآله خاصة لهذا الشهر الحرام.

والصنف الثاني هو أعمال عامة تعم أيام وليالي هذا الشهر، وهي عبارة عن صوم كل أيام الشهر والاستغفار اليومي وتلاوة أدعية يومية عديدة، وصلاة ستين ركعة بصورة ركعتين في كل ليلة لها صيغة خاصة، بالإضافة إلى صلاة ليلية من عشر ركعات بهيئة خاصة.

والصنف الثالث هو أعمال خاصة تخص بعض ليالي وأيام الشهر، كليلة النصف منه حيث ورد فيها الغسل وزيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام وصلاة اثني عشرة ركعة بهيئة خاصة، وكذلك في اليوم الخامس عشر حيث ورد أعمال مشابهة بالإضافة إلى أدعية خاصة به، وهناك أعمال لليلة السابع والعشرين منه وهي ليلة المبعث النبوي الشريف وورد فيها الغسل وزيارة خاصة لأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام وصلاة اثني عشر ركعة بهيئة خاصة وكذلك صلاة أخرى من اثني عشرة ركعة بهيئة خاصة أخرى، أما في اليوم السابع والعشرين فورد فيه الغسل والصيام وزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله وزيارة أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام وتلاوة دعاء خاص بهذا اليوم وكذلك صلاة اثني عشرة ركعة بهيئة خاصة، وأخيراً هناك أعما خاصة باليوم الأخير من الشهر وهي الغسل والصيام وصلاة عشر ركعات هي تتمة صلاة سلمان الفارسي المحمدي(٢).

---

(١) ابن طاووس: إقبال الأعمال.

(٢) جعفر: دليل الشعائر.

الفصل الرابع
السلوك الشعائري

وجّه أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام شيعتهم إلى السلوكيات الشعائرية الملائمة والصحيحة حين القيام بالممارسات الشعائرية بمختلف أنواعها كتلاوة القرآن الكريم والدعاء والصلاة والصوم والحج وزيارة المشاهد والمقامات الشريفة لرسول الله وأهل بيته عليهم جميعاً صلوات الله وغير ذلك، بحيث أن إقامة الشعائر لا يصبح مقبولاً وسليماً إلا حين اقترانه بهذه السلوكيات (كاقترانه بالزمان الصحيح والمكان الصحيح)، ومن هنا جاءت أهمية صناعة وتشكيل السلوك الشعائري السليم.

وفيما يلي نورد بعض النماذج السلوكية لبعض أنواع الشعائر، وذلك فقط لإعطاء فكرة عن معنى السلوك الشعائري وأهمية اقترانه بالممارسة الشعائرية.

السلوك الشعائري في التعامل مع القرآن الكريم:

وردت نصوص وروايات كثيرة في شأن التعامل مع القرآن الكريم، فمثلاً يكره ترك القراءة في المصحف الذي يقتنيه المرء، ويستحب القراءة والنظر فيه، فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام، قال: «ثلاثة يشكون إلى الله عزّ وجل: مسجد خراب لا يصلي فيه أهله، وعالم بين جهال، ومصحف معلّق قد وقع عليه غبار لا يقرأ فيه»[1].

وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله، قال: «اجعلوا لبيوتكم نصيبا من القرآن، فإن البيت إذا قُرأ فيه يُسّر على أهله وكثر خيره وكان سكّانه في زيادة، وإذا لم يُقرأ فيه القرآن ضُيّق على أهله وقلّ خيره وكان سكّانه في نقصان».[2]

(١) الصدوق: الخصال.
(٢) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء – عن كتاب «عدة الداعي» لأحمد بن فهد الحلي.

وعن إسحاق بن عمار[1]، قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام: جعلت فداك إني أحفظ القرآن عن ظهر قلب، فأقرؤه عن ظهر قلبي أفضل أو أنظر في المصحف؟

قال، فقال (ع) لي: «لا، بل اقرأه وانظر في المصحف فهو أفضل، أما علمت أن النظر في المصحف عبادة».

كما يستحب الإكثار من تلاوة القرآن الكريم، وختمه المرّة بعد الأخرى، وقد أطلق في الروايات على من يقوم بذلك لفظ «الحال المرتحل»، فعن الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام، قال: قيل: يا رسول الله أي الرجال خير؟

قال (ص): «الحال المرتحل».

قيل: يا رسول الله، وما «الحال المرتحل»؟

قال (ص): «الفاتح الخاتم، الذي يفتح القرآن ويختمه، فله عند الله دعوة مستجابة».[2]

كما يستحب السواك قبل التلاوة، والإستعاذة من الشيطان الرّجيم، والخشوع عند القراءة، وترتيل الآيات القرآنية، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل ٩٨)، وقال تعالى: ﴿ورَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل ٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نظّفوا طريق القرآن».

قيل: يا رسول الله وما طريق القرآن؟

قال (ص): «أفواهكم».

قيل: بماذا؟

قال (ص): «بالسواك».[3]

وعن الإمام موسى بن جعفر عن آبائه عليهم جميعاً صلوات الله، قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله، عن قوله تعالى: ﴿ورَتِّلِ الْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً﴾.

قال (ص): «بيّنه تبياناً، ولا تنثره نثر الرمل، ولا تهذّه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحرّكوا به القلوب، ولا يكون همّ أحدكم آخر السورة».[4]

---

(١) المصدر السابق

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء ـ عن كتاب «ثواب الأعمال» للشيخ الصدوق.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء.

(٤) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء ـ عن كتاب «النوادر» للسيد ضياء الدين الراوندي.

وقال الإمام جعفر الصادق (ع): «إن الله تبارك و تعالى أوحى إلى موسى بن عمران (ع)، أن إذا وقفت بين يدي فقف موقف الذليل الفقير، وإذا قرأت التوراة فأسمعنيها بصوت حزين، وكان موسى (ع) إذا قرأ كانت قراءته حزناً، وكأنما يخاطب إنسانا».

كما يستحب قراءة أدعية خاصة قبل البدء بالتلاوة وبعد الانتهاء منها.(١)

السلوك الشعائري للدعاء:

يستحب الدعاء لقضاء الحوائج بجميع أنواعها، ولرد البلاء بكل أصنافه، قال تعالى: ﴿ وإِذَا سَأَلَكَ عِبادِي عَنّي فَإِنِي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة ١٨٦).

وقال الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «إن الدعاء يرد القضاء المبرم بعد ما أبرم إبراما، فأكثروا من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة ونجاح كل حاجة، ولا يُنال ما عند الله إلا بالدعاء، إنه ليس من باب يُكثر قرعه إلا ويوشك أن يُفتَح لصاحبه».(٢)

كما يستحب الدعاء في كل وقت وبالخصوص بعد الصلوات المفروضة والمسنونة، وحين إفطار الصائم، وفي ليلة الجمعة ويومها، وفي الأوقات المندوبة المعينة من رسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين.

فعن أمير المؤمنين (ع)، قال: «اغتنموا الدعاء عند خمسة مواطن: عند قراءة القرآن، وعند الأذان، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الصفين للشهادة، وعند دعوة المظلوم فإنها ليس لها حجاب دون العرش».

يستحب الخشوع في الدعاء، والإلحاح، والتحرز من الحرام والمظالم، والتّختّم بالعقيق، فعن سليمان بن عمرو، قال سمعت أبا عبدالله (ع)، يقول: «إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه، فإذا دعوت فأقبل بقلبك، ثم استيقن الإجابة».

وعنه (ع)، قال الله عزّ وجلْ لعيسى (ع): ﴿يا عيسى، هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشية﴾.(٣)

وقال رسول الله (ص): «اغتنموا الدعاء عند الرقة، فإنها رحمة».

وقال (ص): «إن الله تعالى يحب الملحّين في الدعاء».

---

(١) جعفر: دليل الشعائر.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء ـ عن كتاب «فلاح السائل» للسيد ابن طاووس.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء ـ عن كتاب «عدة الداعي» لأحمد بن فهد الحلي

وقال الصادق عليه السلام: «ما رفعت كفّ إلى الله أحبّ إليه من كفّ فيها عقيق».

كما ورد التأكيد على البدء بمقدمات للدعاء كالتسبيح والتمجيد والصلاة على رسول الله وآل بيته الطاهرين والاستغفار.

فعن الإمام جعفر الصادق (ع): «إذا أردت أن تدعو، فمجّد الله عزّ وجلْ، واحمده، وسبحّه، وهلله، وأثن عليه، وصل على النبي وآله، ثم سلْ تُعطه»[1].

وقال (ع): «إياكم أن يسأل أحد منكم ربه شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة حتى يبدأ بالثناء على الله عزّ وجل، والمدحة له، والصلاة على النبي وآله، ثم الاعتراف بالذنب، ثم المسألة».

وقال رسول الله (ص): «عوّدوا ألسنتكم الاستغفار، فإن الله تعالى لم يُعلّمكم الاستغفار إلا وهو يريد أن يغفر لكم».

وعن أمير المؤمنين (ع)، أنه قال: «كل دعاء محجوب عن السماء حتى يصلي على محمد وآله».

وللدعاء آداب عديدة كتسمية الحوائج، والدعاء في السر في حالات، والدعاء مع الجماعة في حالات أخرى، وإرفاق الدعاء بالعمل، والدعاء في الرخاء كما في الشدة، وإشراك المؤمنين في الدعاء.

فعن الإمام جعفر الصادق (ع)، قال: «إن الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، ولكن يحب أن يُبثُّ إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمِّ حاجتك، وما من شيء أَحبُّ إلى الله مِن أن يُسأل».

وعنه (ع): عن رسول الله (ص)، قال: «دعوة في السر تعدل سبعين دعوة في العلانية».

وعنه (ص): «الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر».

وقال (ص): «من سَرَّه أن يستجيب الله له في الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء عند الرخاء».[2]

السلوك الشعائري حين الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله:

يستحب الصلاة على رسول الله واتباع آله به ـ وليس صحبه فلم يرد في ذلك حديث

---

(١) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء ـ عن كتاب «الدعوات» لقطب الدين الراوندي.
(٢) المصدر السابق.

واحد حتى عند من يقومون بذلك العمل ويقولون بأنه سنة من السنن المندوبة ـ كما يستحب الإكثار من الصلاة عليه وعلى آله، ورفع الصوت بذلك.

فعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه الصلاة والسلام، قال: من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه فليكثر الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدما".

وعنه (ع) أيضاً: «الصلاة على محمد وآله تعدل عند الله عز وجل التسبيح والتهليل والتكبير».[1]

عن أمالي الصدوق: عن أبان بن تغلب، عن الإمام محمد الباقر عن آبائه (عليهم جميعاً صلوات الله)، قال: قال رسول الله (ص): «من صلىّ علي و لم يصلّ على آلي لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام».[2]

وعنه أيضاً: عن ابن سنان، عن أبي عبدالله (ع)، قال: قال رسول الله (ص) ذات يوم لعلي (ع): «ألا أبشرك؟»

فقال (ع): «بلى بأبي أنت وأمي فإنك لم تزل مبشرا بكل خير».
فقال (ص): «أخبرني جبرئيل آنفا بالعجب».
فقال له علي (ع): «وما الذي أخبرك يا رسول الله؟»

فقال (ص): «أخبرني أن الرجل من أمتي إذا صلى علي وأتبع بالصلاة على أهل بيتي، فتحت له أبواب السماء، وصلت عليه الملائكة سبعين صلاة، وإن كان مذنبا خطّاء، ثم تتحات عنه الذنوب كما يتحات الورق من الشجر، ويقول الله تبارك وتعالى لبيك يا عبدي وسعديك، ويقول الله لملائكته يا ملائكتي أنتم تصلون عليه سبعين صلاة وأنا أصلي عليه سبعمائة صلاة.

وإذا صلى علي و لم يتبع بالصلاة على أهل بيتي، كان بينها وبين السماء سبعون حجابا، ويقول جل جلاله لا لبيك ولا سعديك، يا ملائكتي لا تصعدوا دعاءه إلا أن يلحق بنبيي عترته، فلا يزال محجوبا حتى يلحق بي أهل بيتي».[3]

ودلالة هذا الحديث واضحة، فمن يحب آل بيت رسول الله صلى اله عليه وآله الذين أمر (ص) باتباعهم ظهر ذلك على سلوكياته والتي منها الصلاة الكاملة، أما من ناوئهم

(١) الصدوق: عيون أخبار الرضا (ع).
(٢) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء ـ عن كتاب «الأمالي» للشيخ الصدوق.
(٣) المصدر السابق.

عليهم السلام وذهب بخلافهم كل مذهب فإن نفسه تأبى إلا الصلاة البتراء التي لا تقبل عند الله عز وجل.

وعن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ارفعوا أصواتكم بالصلاة علي فإنها تذهب بالنفاق».[1]

السلوك الشعائري حين زيارة رسول الله وأهل بيته عليهم جميعاً صلوات الله:

تستحب زيارة رسول الله (ص) والأئمة من أهل بيته (ع) استحباباً كبيراً، وقد تواترت الأحاديث والروايات عنهم عليهم صلوات الله في ذلك، فعن الإمام علي بن موسى الرضا (ع)، أنه قال: «إنّ لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإنّ من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبةً في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة».

وعن الإمام جعفر الصادق (ع)، أنه قال رواية عن آبائه (ع)، عن أمير المؤمنين (ع)، أن رسول الله (ص) قال له: «يا أبا الحسن، إن الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعاً من بقاع الجنة وعرصةً من عرصاتها، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه وصفوة من عباده تحنّ إليكم، وتحتمل المذلّة والأذى، فيعمّرون قبوركم، ويكثرون زيارتها تقرباً منهم إلى الله ومودّة منهم لرسوله، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي، الواردون حوضي، وهم زواري غداً في الجنة.

يا علي، من عمّر قبوركم وتعاهدها فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس، ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الإسلام، وخرج من ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته أمه، فأبشر وبشّر أوليائك ومحبيك من النعيم وقرة العين بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ولكن حثالة من الناس يعيّرون زوار قبوركم كما تعيّر الزانية بزنائها، أولئك شرار أمّتي، لا أنالهم الله شفاعتي، ولا يردون حوضي».[2]

وقد أورد العلماء في كتب الأدعية والزيارات والسنن مجموعة من الآداب حين التوجه لزيارة أحد المشاهد التابعة لرسول الله والأئمة من أهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين،

(١) المجلسي: بحار الأنوار، (١٩) كتاب القرآن والدعاء ـ عن كتاب «ثواب الأعمال» للشيخ الصدوق.
(٢) المجلسي: بحار الأنوار، (٢٢) كتاب المزار ـ عن كتاب «فرحة الغري» للسيد ابن طاووس.

كالطهارة من الحدث الأكبر والأصغر، والاغتسال، ولبس ثياب طاهرة نظيفة جديدة، ويستحسن أن تكون بيضاء، وتقصير الخطى حين المشي للمقام المقدس، وأن يسير الزائر وعليه السكينة والوقار، وأن يكون خاضعاً خاشعا، وأن يتطيّب بشي من الطيب، فيما عدا عند زيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، وأن يشغل لسانه بالتكبير والتسبيح والتهليل والتمجيد، ويعطّر فاه بالصلاة على محمد وآله عليهم السلام. [1]

كما أوردوا آداباً للزيارة داخل الحرم الشريف[2] كأن يقف الزائر على باب الحرم الشريف ويستأذن، ويجتهد لتحصيل الرّقة والخضوع وانكسار القلب، وأن يقدم للدخول رجله اليمنى ويقدم للخروج رجله اليسرى، كما يصنع عند دخول المساجد والخروج منها، وأن يكبّر إذا شاهد القبر المطهّر، قبل الشروع في الزيارة، وفي الرواية أن من كبّر أمام الإمام (عليه السلام) وقال: «لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ»، كتب له رضوان الله الأكبر.

ويستحب كذلك أن يقف الزائر على الضريح بحيث يمكنه الالتصاق به، وقد نُصّ على الاتّكاء على الضريح وتقبيله، وأن يزور وهو قائم على قدميه، إلاّ إذا كان له عذر من ضعف أو وجع في الظهر أو في الرجل أو غير ذلك من الأعذار، وأن يزور بالزيارات المأثورة المرويّة عن أئمة الإسلام آل بيت رسول الله عليهم جميعاً صلوات الله، وأن يصلي صلاة الزيارة وأقلها ركعتان.

ومن آداب الزيارة تلاوة شيء من القرآن الكريم عند الضريح وإهداءه إلى المزور (ع)، والمنتفع بذلك الزائر وفيه تعظيم للمزور (ع)، وترك اللّغو وما لا ينبغي من الكلام، لا سيما في هذه البقاع الطاهرة والقباب السامية التي أخبر الله تعالى بجلالها وعظمتها في سورة النور، حيث قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيها اسْمُه﴾ (النور ٣٦)، وأن لا يرفع صوته بما يزور، وأن يودع المعصوم عليه السلام بالمأثور أو بغيره إذا أراد الخروج من بلد الزيارة. كما ورد غيرها الكثير من الآداب والسنن وإنما أردنا الإلماع فقط.

السلوك الشعائري حين زيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام:

ينبغي للزائر أن يراعي آداباً خاصة إضافية أو فريدة حين زيارة سيد الشهداء عليه السلام، بدءً من الطريق حين التوجه للزيارة، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: إذا زرت أبا

(١) القمي: مفاتيح الجنان.
(٢) المصدر السابق.

عبد الله عليه السلام فزره وأنت حزين مكروب شعث مغبر جائع عطشان، فإنّ الحسين عليه السلام قتل حزيناً مكروباً شعثاً مغبراً جائعاً عطشاناً»

وأن لا يتخذ الزائر الزاد في سفر زيارته عليه السلام مما لذّ وطاب من الغذاء كاللحم المشوي والحلاوة، بل يغتذي بالخبز واللّبن، فعن الصادق صَلَواتُ الله وسَلامُهُ عَلَيه قال: «بلغني أن قوما إذا زاروا الحسين عليه السلام حملوا معهم السفرة فيها الجِداء والأخبصة وأشباهه، ولو زاروا قبور آبائهم وأحبّائهم ما حملوا معهم هذا».

وقد روى في آداب زيارته عليه السلام عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «من أتى قبر الحسين صَلَواتُ الله وسَلامُهُ عَلَيه ماشياً كتب الله له بكل خطوة ألف حسنة ومحا عنه ألف سيئة ورفع له ألف درجة، فإذا أتيت الفرات فاغتسل وعلق نعليك وامش حافياً وامش مشي العبد الذليل».[1]

أما آداب حرم الإمام عليه السلام فهي مشابهة لآداب المشاهد الشريفة الأخرى بزيادة استحباب البكاء عليه ورثاءه عليه الصلاة والسلام.

ونورد هنا رواية حول كيفية زيارة الإمام الحسين عليه السلام، حيث روي[2] أن يونس بن ظبيان سأل الإمام الصادق عليه السلام عن ذلك، فقال (ع): إذا أتيت أبا عبدالله عليه السلام فاغتسل على شاطئ الفرات ثمّ البس ثيابك الطاهرة ثمّ امش حافياً، فإنك في حرم من حرم الله ورسوله، بالتكبير والتهليل والتمجيد والتعظيم لله كثيراً والصلاة على محمد وأهل بيته، حتى تصير إلى باب الحائر، ثم قل: «السَّلامُ عَلَيْكَ يا حُجَّةَ اللهِ وابْنَ حُجَّتِه، السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا مَلائِكَةَ اللهِ وزُوَّارَ قَبْرِ ابْنِ نَبِيِّ اللهِ».

ثم اخطُ عشر خطىً، ثم قف فكبر ثلاثين تكبيرة، ثم امش إلى القبر من قبل وجهه واستقبل وجهك بوجهه واجعل القبلة بين كتفيك، ثم تقول: «السَّلامُ عَلَيْكَ يا حُجَّةَ اللهِ وابْنَ حُجَّتِه، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا قَتِيلَ اللهِ وابْنَ قَتِيلِه، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا ثَارَ اللهِ وابْنَ ثَارِه، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا وِتْرَ اللهِ المَوْتُورِ فِي السَّماوَاتِ والأَرضِ، أَشْهَدُ أَنَّ دَمَكَ سَكَنَ فِي الخُلْدِ واقْشَعَرَّتْ لَهُ أَظِلَّةُ العَرْشِ وبَكَى لَهُ جَمِيعُ الخَلائِقِ وبَكَتْ لَهُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعُ والأَرَضُونَ السَّبْعُ ومَا فِيهِنَّ ومَا بَيْنَهُنَّ ومَنْ يَتَقَلَّبُ فِي الجَنَّةِ والنَّارِ مِنْ خَلْقِ رَبِّنا ومَا يُرَى ومَا لَا يُرَى، أَشْهَدُ أَنَّكَ حُجَّةُ اللهِ وابْنُ حُجَّتِه، واشْهَدُ أَنَّكَ قَتِيلُ اللهِ وابْنُ قَتِيلِه، وأَشْهَدُ أَنَّكَ ثَارُ اللهِ وابْنُ ثَارِه، وأَشْهَدُ أَنَّكَ وِتْرُ اللهِ

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات.
(٢) جعفر: دليل الشعائر: عن الكافي للشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني

المَوْتُورُ في السَّمَاوات والأَرْضِ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغتَ ونَصَحْتَ ووَفَيْتَ وأَوْفَيْتَ وجَاهَدْتَ في سَبِيلِ اللهِ ومَضَيْتَ للَّذي كُنْتَ عَلَيْه شَهيداً ومُسْتَشْهداً وشاهداً ومَشْهُوداً، أَنَا عَبْدُ اللهِ ومَوْلاكَ وفي طَاعَتكَ والوَافدُ إِلَيْكَ أَلْتَمسُ كَمَالَ المَنْزلَة عنْدَ اللهِ وثَبَاتَ القَدَم في الهِجْرَةِ إِلَيْكَ والسَّبِيلَ الَّذي لا يَخْتَلِجُ دُونَكَ مِنَ الدُّخُولِ في كَفالَتكَ الَّتي أَمَرْتَ بِهَا، مَنْ أَرادَ اللهَ بَدَأَ بِكُمْ، بِكُمْ يُبَيِّنُ اللهُ الكَذبَ وبِكُمْ يُباعدُ اللهُ الزَّمَانَ الكَلبَ وبِكُمْ فَتَحَ اللهُ وبِكُمْ يَخْتِمُ اللهُ وبِكُمْ يَمْحُو مَا يَشَاءُ ويُثْبِتُ وبِكُمْ يَفُكُّ الذُّلَّ مِنْ رِقَابِنا وبِكُمْ يُدْرِكُ اللهُ تِرَةَ كُلِّ مُؤْمنٍ يُطْلَبُ بِهَا وبِكُمْ تُنْبِتُ الأَرضُ أَشْجَارَها وبِكُمْ تُخْرِجُ الأَرْضُ ثِمَارَها وبِكُمْ تُنْزِلُ السَّمَاءُ قَطْرَها ورِزْقَهَا وبِكُمْ يَكْشِفُ اللهُ الكَرْبَ وبِكُمْ يُنَزِّلُ اللهُ الغَيْثَ وبِكُمْ تُسَبِّحُ الأَرضُ الَّتي تَحْمِلُ أَبْدَانَكُمْ وتَسْتَقِرُّ جِبالُها عَنْ مَراسِيهَا، إِرادَةُ الرَّبِّ في مَقادِيرِ أُمورِه تَهْبطُ إِلَيْكُمْ وتَصْدُرُ مِنْ بُيُوتِكُمْ والصَّادِرُ عَمَّا فُصِّلَ مِنْ أَحْكامِ العباد، لُعِنَتْ أُمَّةٌ قَتَلَتْكُمْ وأُمَّةٌ خالَفَتْكُمْ وأُمَّةٌ جَحَدَتْ وِلاَيَتَكُمْ وأُمَّةٌ ظَاهَرَتْ عَلَيْكُمْ وأُمَّةٌ شَهِدَتْ ولَمْ تَسْتَشْهِدْ، الحَمْدُ للهِ الَّذي جَعَلَ النَّارَ مَأْوَاهُمْ وبِئْسَ وِرْدُ الوَارِدِينَ وبِئْسَ الوِرْدُ المَوْرُودُ، والحَمْدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ»

وقل ثلاث مرات: «وصَلَّى اللهُ عَلَيْكَ يَا أَبا عَبْدِاللهِ».

وقل ثلاث مرات: «أَنَا إِلى اللهِ مِمَّنْ خَالَفَكَ بَرِيءٌ».

ثم تقوم فتأتي ابنه علياً (ع)، وهو عند رجله، فتقول: «السَّلامُ عَلَيْكَ يَا بْنَ رَسُولِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا بْنَ أَميرِ المُؤْمنينَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يَا بْنَ الحَسَنِ والحُسَيْنِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا بْنَ خَديجَةَ وفَاطِمَةَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ، لَعَنَ اللهُ مَنْ قَتَلَكَ»، تقول ذلك ثلاثاً، وثلاثاً: «أَنَا إِلى اللهِ مِنْهُمْ بَرِيءٌ».

ثمّ تقوم فتومئ بيدك إلى الشّهداء، وتقول: «السَّلامُ عَلَيْكُمْ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ، السَّلامُ عَلَيْكُمْ، فُزْتُمْ واللهِ، فُزْتُمْ واللهِ، فُزْتُمْ واللهِ، فَلَيْتَ أَنِّي مَعَكُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً».

ثم تدور فتجعل قبر أبي عبدالله عليه السلام بين يديك - أي تقف خلف القبر المطهر - فتصلي ست ركعات وقد تمت زيارتك، فإن شئت فانصرف.

السلوك الشعائري ليوم العاشر من شهر محرم الحرام:

في اليوم العاشر من عام ٦١ للهجرة كانت شهادة الإمام الحسين صلوات الله عليه وشهادة أصحابه في كربلاء على يد يزيد بن معاوية وأعوانه، وهو يوم المُصيبة والحُزن للائمة عليهم السلام ولشيعتهم، وقد ورد فيه الإمساك عن السّعي في حوائج الدُنيا، وأن لا يدّخر الشيعة

فيه شيئاً لمنازلهم، وأن يتفرّغوا فيه للبكاء والنّياح وذكر المصائب بأن يقيمُوا مأتم الحسين عليه الصلاة والسلام كما يقيمُونه لأعزّ أولادهم وأقاربهم، ويتذاكروا فيه مقتله عليه السلام فيستبكي بعضهم بعضاً، وأن يعزّوا بعضهم بعضاً، قائلين: «أَعْظَمَ اللهُ أُجُورَنَا بِمُصَابِنَا بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلامُ وجَعَلَنَا وإِيَّاكُمْ مِنَ الطَّالِبِينَ بِثَأْرِهِ مَعَ وَلِيِّهِ الإِمَامِ الْمَهْدِيِّ مِنْ آلِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمُ السَّلامُ».(١)

وقال الإمام الباقر عليه السلام في شأن يوم عاشوراء: "إن استطعت أن لا تخرج في يومك في حاجة فافعل فإنه يوم نحس لا يقضى فيه حاجة مؤمن، وإن قضيت لَم يبارك له فيما ادّخر ولَم يبارك له في أهله".

كما تستحب زيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام بالزيارة المخصوصة لهذا اليوم، سواءً بالحضور في مشهده الشريف في كربلاء المقدسة أو عن بعد من مواطنهم.

السلوك الشعائري للشعائر الحسينية:

يقصد بالشعائر الحسينية المراسم التي يتم بها إحياء ذكرى استشهاد الإمام الحسين صلوات الله عليه في أيام عاشوراء.

ويتميز السلوك الشعائري فيها بميزات خاصة، كإظهار الجزع والبكاء أو التباكي على الحسين عليه الصلاة والسلام، والصياح ورفع الصوت بالبكاء والندبة والمبالغة في إظهار الحزن والظهور بمظهر الكآبة والشعثة ولطم الخدود والصدور وشق الجيوب حزناً عليه والخروج في مسيرات العزاء وإقامة المجالس التي تقرأ فيها مصيبته ومقتله الفظيع والمصائب الشنيعة التي وقعت عليه وعلى أهل بيته وأنصاره من أعدائهم وأعداء الإسلام من بني أمية ومن تبعهم من المنافقين والزنادقة.

وقد وردت هذه السلوكيات في أحاديث واضحة وصريحة بتلك الأفعال عن أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، فقد روى ابن قولويه والكليني والسيّد ابن طاووس وغيرهم بأسناد معتبرة عن الثقة الجليل معاوية بن وهب البجلي الكوفي قال: دخلت على الصادق صَلَواتُ الله وسَلامُهُ عَلَيه وهو في مصلاه فجلست حتى قضى صلاته فسمعته وهو يناجي ربه، ويقول: «يا مَنْ خَصَّنا بِالكَرامَةِ وَوَعَدَنا الشَّفاعَةَ وَحَمَّلَنا الرِّسالَةَ وَجَعَلَنا وَرَثَةَ الأَنْبِياء وَخَتَمَ بِنا الأُمَمَ السَّالِفَةَ وَخَصَّنا بالوَصِيَّةِ وَأَعْطانا عِلْمَ ما مَضى وَعِلْمَ ما بَقِيَ وَجَعَلَ أَفْئِدَةَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْنا، اغْفِرْ لِي وَلإِخْوانِي وَزُوَّارِ قَبْرِ أَبِي الحُسينِ بْنِ عَلِيّ صَلَواتُ الله

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات.

عَلَيْهِما، الَّذينَ أَنْفَقُوا أَمْوالَهُمْ وَأَشْخَصُوا أَبْدانَهُمْ رَغْبَةً في بِرِّنا وَرَجاءً لِما عِنْدَكَ في وِصْلَتِنا وَسُرُوراً أَدْخَلُوهُ عَلى نَبِيِّكَ مُحَمَّد صَلى اللهُ عَلَيْه وآله وَإِجابَةً مِنْهُمْ لأَمْرِنا وَغَيْظا أَدْخَلُوهُ عَلى عَدُوِّنا، أَرادوا بذلكَ رِضْوانَكَ، فَكافِهِمْ عَنّا بالرِّضْوانِ وَاكْلأْهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَاخْلُفْ عَلى أَهاليهِمْ وَأَوْلادهِمْ الَّذينَ خَلَّفُوا بِأَحْسَنِ الخَلَفِ وَاصْحَبْهُمْ وَاكْفِهِمْ شَرَّ كُلِّ جَبّارٍ عَنيد وَكُلِّ ضَعيف مِنْ خَلْقِكَ أَوْ شَديد وَشَرَّ شَياطينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ، وَأَعْطِهِمْ أَفْضَلَ ما أَمَلُوا مِنْكَ في غُرْبَتِهِمْ عَنْ أَوْطانِهِمْ وَما آثَرُونا عَلى أَبْنائِهِمْ وَأَهاليهِمْ وَقَراباتِهِمْ، اللّهُمَّ إِنَّ أَعْدائَنا عابُوا عَلَيْهِمْ خُرُوجَهُمْ فَلَمْ يَنْهِهِمْ ذلكَ عَنِ النُّهُوضِ وَالشُّخُوصِ إِلَيْنا خِلافاً عَلَيْهِمْ فَارْحَمْ تِلْكَ الوُجُوه الَّتي غَيَّرَتْها الشَّمْسُ، وَارْحَمْ تِلْكَ الخُدُودَ الَّتي تَقَلَّبُ عَلى قَبْرِ أَبي عَبْدِالله عَلَيْه السَّلامُ وَارْحَمْ تِلْكَ الأَعْيُنَ الَّتي جَرَتْ دُمُوعُها رَحْمَةً لَنا وَارحَمْ تِلْكَ القُلُوبَ الَّتي جَزَعَتْ وَاحْتَرَقَتْ لَنا وَارْحَمْ تِلْكَ الصَرْخَةَ الَّتي كانَتْ لَنا، اللّهُمَّ إِنِّي اسْتَوْدِعُكَ تِلْكَ الأَنْفُسِ وَتِلْكَ الأَبْدانِ حَتّى تَرْوِيها مِنَ الحَوْضِ يَوْمَ العَطَشِ».[1]

ويلاحظ هنا التعابير التالية للإمام عليه السلام، حيث قال:

- اغْفِرْ لي وَلإِخْواني وَزُوّارِ قَبْرِ أَبي الحُسين بْن عَلِيّ صَلَواتُ الله عَلَيْهِما: ففي هذه الفقرة تأكيد على ضرورة زيارة الإمام الحسين عليه السلام
- الَّذينَ أَنْفَقُوا أَمْوالَهُمْ: وهذه الجملة تندب إلى الإنفاق في سبيل إقامة هذه الشعيرة
- وَأَشْخَصُوا أَبْدانَهُمْ رَغْبَةً في بِرِّنا وَرَجاءً لِما عِنْدَكَ في وِصْلَتِنا: وهذه الفقرة تؤكد على الشخوص والبروز والسير إلى الزيارة
- وَارْحَمْ تِلْكَ الأَعْيُنَ الَّتي جَرَتْ دُمُوعُها رَحْمَةً لَنا: تشير هذه الجملة إلى مكانة الدموع التي تذرف من أجل مصاب أبا عبدالله الحسين صلوات الله عليه.
- وَارحَمْ تِلْكَ القُلُوبَ الَّتي جَزَعَتْ وَاحْتَرَقَتْ لَنا: وهنا إشارة إلى تقدير الجزع الشديد واحتراق القلب من أجل الحسين عليه السلام.
- وَارْحَمْ تِلْكَ الصَرْخَةَ الَّتي كانَتْ لَنا: وهنا تقدير للصراخ والصياح ندبة للحسين عليه الصلاة والسلام.

وفي دعاء الندبة المشهور عند الشيعة وهو من الأدعية الصادرة عن الإمام الصادق عليه السلام[2]، ترد في أحدى فقرات الدعاء أوامر تقرر السلوكيات الشعائرية التالية، حيث تقول:

(١) ابن بابويه: كامل الزيارات.
(٢) المجلسي: زاد المعاد

- فَعَلَى الأطائبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ وعَلِيٍّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِما وآلِهِما فَلْيَبْكِ البَاكُونَ (دعوة إلى البكاء على الحسين عليه السلام)
- وإِيّاهُمْ فَلْيَنْدُبِ النّادِبُونَ (دعوة إلى الندبة وهو ذكر الميت بأحسن أوصافه وأفعاله مع إظهار الحزن عليه[1])
- ولِمِثْلِهِمْ فَلْتُذْرَفِ الدُّمُوعُ (دعوة لذرف الدموع)
- ولْيَصْرُخِ الصارِخُونَ (دعوة صريحة للصراخ ورفع الصوت)
- ويَضِجَّ الضّاجُّونَ (دعوة للضجيج وهو الصياح عند المكروه والمشقة والجزع[2])
- ويَعِجَّ العاجُّونَ (دعوة للعجيج وهو رفع الصوت والصياح إلى حد الجلبة[3]).

وفي حديث عبد الله بن حماد البصري عن الإمام الصادق صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيه أنّه قال: «بلغني أن قوماً من نواحي الكوفة وناساً من غيرهم ونساء يندبنه، فمن بين قاري يقرأ، وقاصٍّ يقصُّ (أي يذكر المصائب)، ونادب يندب، وقائل يقول المراثي».

فقلت له: نعم جعلت فداك قد شهدت بعض ما تصف.

فقال عليه السلام: «الحمد لله الذي جعل في الناس من يفد إلينا، ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدونا من يطعن عليهم من قرابتنا أو غيرهم يهذون بهم ويقبّحون ما يصنعون».

وهذا الحديث يبين مكانة وفضيلة الندبة (ونساء يندبنه ـ ونادب يندب) وقراءة سيرته وجهاد الإمام الحسين عليه السلام (قاري يقرأ، وقاصٌّ يقصُّ)، ورثاءه عليه السلام (وقائل يقول المراثي).

وفي خبر خالد بن سدير عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «ولقد شققن الجيوب ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين عليه السلام، وعلى مثله تلطم الخدود وتشق الجيوب». وتعابير الحديث واضحة لا تحتاج إلى تفسير.[4]

وقد روى الصدوق في العيون أن دعبل بن علي الخزاعي لما أنشد الإمام علي بن موسى الرضا عليه الصلاة والسلام تائيته المشهورة وانتهى إلى قوله:

---

(١) ابن منظور: لسان العرب.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الحلي: الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي.

أفـاطـم لـو خـلـت الحسـين مجـدّلاً وقـد مـات عـطـشـانـاً بـشـط فـرات
إذاً لـلـطـمـت الخـد فـاطـم عـنـده وأجـريـت دمـع الـعـين في الوجنات

لطمت نساء الإمام عليه السلام وعلا صراخهن من وراء الستر، وبكى الإمام (ع) بكاءً شديداً حتى أغمي عليه مرتين.[1]

وهناك سلوكيات شعائرية عديدة في مواضيع كثيرة جداً ولكن المقام لا يسمح مخافة التطويل وإنما أردنا التوضيح فقط بهذه الأمثلة، ومن أراد الاستزادة فليراجع كتب الشيعة في السنن والآداب والشعائر وأمثالها.

(١) عن المصدر السابق.

الفصل الخامس
الخطاب الشعائري

معنى الخطاب:

الخطاب هو نص (مقروء أو ملفوظ) يتم القاءه في سياق معين، فالخطاب هو مزيج من نص وسياق، وما يهدف إليه النص إنما يتضح من خلال تحليل السياق الذي صدر فيه الخطاب، والحدث المنشئ له.

ما هو النص؟

النص هو الكلام الذي يتشكل منه الخطاب، فمثلاً في خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله في يوم غدير خم حين نصّب وصيه الإمام علي بن ابي طالب عليه الصلاة والسلام ولياً وإماماً للناس وخليفةً له من بعده، استخدم النص التالي: «...، من كنت مولاه فعلي مولاه، من كنت مولاه فعلي مولاه، من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، ...»[١].

وللنص كأداة اتصال، مجموعة من المعايير[٢]، هي:

- تماسك الألفاظ: ويعني ذلك وجود علاقة سليمة بين النص المستخدم وبين قواعد اللغة.
- تماسك المعنى: وهو يعني تماسك المضمون من حيث المعارف الواردة فيه، وبنيته المنطقية، والرسائل الموجهة إلى مستقبلي الخطاب.
- المقاصد: وهي ما يتعلق بنوايا وغايات الخطيب أو الكاتب من خطابه.
- القبول والاستحسان: وهو ما يتعلق بإعداد مستمع أو قارئ الخطاب لتقدير جدوى الخطاب ومنافعه.

---

(١) النجفي: موسوعة الغدير، والعاملي: الصحيح من سيرة الإمام علي (ع).
(٢) Alba-Juez: Perspectives on discourse analysis

- الثراء المعلوماتي: أي حجم ونوع المعلومات الجديدة أو المتوقعة من المستمع، الواردة في الخطاب.
- علاقات النص: علاقة نص هذا الخطاب بنصوص خطابات أخرى سابقة أو مرادفة له.
- نوع النص: نوع هذا النص من حيث كونه سردي أو توصيفي أو جدالي أو غير ذلك من معايير التصنيف.

ويمكن النظر إلى المعيارين الأولين على انهما متعلقان بالبنية الداخلية للنص، بينما بقية المعايير بالبنية الخارجية له، فاذا كان النص مجرد كلمات فإن تحقق المعيارين الأولين كافياً لاعتباره نصاً جيداً، ولكن لا يمكن اعتباره خطاباً أو نصاً خطابياً إلا بتحقق بقية العوامل، والتي تمس السياق الذي يطلق فيه الخطاب. وهذا ما ينقلنا إلى الوجه الآخر من الخطاب وهو السياق.

ما هو سياق النص؟

السياق عبارة عن الأوضاع التي تؤثر في عملية إنتاج الخطاب أو في عملية استيعابه، كمكان الخطاب وزمانه، والأحداث التي أفرزته، والأشخاص المعنيين به، والأهداف والمعارف والآراء والمواقف المتعلقة به(١).

فمثلاً في سياق خطاب الغدير، تذكر الروايات أن رسول الله (ص) اختار النزول عند غدير خم من الجحفة، لأن بعده يتفرق الناس إلى البلدان ففيه تتشعب طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وكان أوائل القوم قريباً من الجحفة، فأمر رسول الله (ص) أن يرد من تقدم منهم، ويحبس من تأخر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن النزول تحت دوحات خمس، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، فَقُمَّ ما تحتهن، حتى إذا نودي بصلاة الظهر عمد إليهن فصلى بالناس تحتهن، وكان يوماً هاجراً يضع الرجل بعض رداءه على رأسه، وبعضه تحت قدميه، من شدة الرمضاء، وظلّل لرسول الله (ص) بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فلما انصرف (ص) من صلاته، قام خطيباً وسط القوم(٢).

فكل ما جرى أوحى للناس بأن هناك أمر هام سوف يعلن على لسان رسول الله (ص)، وهذا الأمر استدعى حبس الناس عند غدير خم، وتهيئة مكان خاص لإعلان هذا الأمر، واختيار الإعلان عنه بعد الصلاة مباشرة؛ وعدم تأجيله بالرغم من الحرارة الشديدة في ذلك اليوم، وكانت هناك علامات أخرى متعلقة بالسياق لا نفصل فيها وإنما اردنا التنبيه فقط.

(١) Van Dijk: Critical discourse analysis.

(٢) النجفي: موسوعة الغدير، والعاملي: الصحيح من سيرة الإمام علي (ع).

وفي أثناء خطابه (ص) أخذ بيد علي (ع) فرفعها حتى بان بياض إبطيهما حتى عرفه القوم أجمعون، (وفي رواية أخرى أصبح علياً (ع) كالمعلق فقد كان رسول الله (ص) أميل إلى الطول وهو (ع) أميل إلى القصر) وحينها اطلق أمره الإلهي الحاسم «من كنت مولاه فعلي مولاه».

كما لابد من الانتباه إلى أن التحكم في السياق هو جزء من عملية الخطاب، فرسول الله (ص) كان هو صاحب الخطاب وهو (ص) أيضاً من كان يتحكم في سياق الخطاب ليزيد من تأثيره، فإضافة إلى ما ذكرناه في الفترة السابقة من تهيئة السياق، استقر رسول الله (ص) مع المسلمين في ذات المكان ثلاثة أيام، وفي هذه الأيام الثلاثة قام بمجموعة أشياء، منها إعادة الخطبة على المسلمين بعد صلاة العشاء كما توحي بعض الروايات[1]، (وهذا قد يفسر اختلاف نسخ الرواة في نص الخطبة)، كما إنه (ص) علم الناس التهنئة والبيعة لعلي (ع)، فقال: "معاشر الناس! قولوا أعطيناك على ذلك عهداً من أنفسنا، وميثاقاً بألسنتنا، وصفقةً بأيدينا، نؤديه إلى من رأينا من أولادنا وأهالينا، لا نبغي بذلك بدلاً، وأنت شهيد علينا، و كفى بالله شهيداً، قولوا ما قلت لكم، وسلموا على علي بإمرة المؤمنين، وقولوا: ﴿الحَمْدُ لِلهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللهُ﴾ (الأعراف ٤٣).

ثم جلس رسول الله صلى الله عليه وآله في خيمة تختص به، وأمر أمير المؤمنين علياً عليه السلام أن يجلس في خيمة أخرى، وأمر أطباق الناس بأن يهنئوا علياً في خيمته.

مكونات نص الخطاب:

يتكون نص الخطاب من مواضيع وألفاظ، على النحو التالي:

مواضيع الخطاب:

وهي قد تكون أحد الأشياء التالية، أو مزيج منها:

- عناوين أساسية أو تفصيلية، فخطاب الغدير مثلاً كان حول عنوان أساسي هو ضرورة الإقرار بولاية الإمام علي (ع) من بعد رسول الله (ص)، ولكن فيما بعد تمحورت بعض النصوص حول قضية تفصيلية هي كيفية التهنئة والبيعة لعلي (ع)، وفي كل الأحوال يمكن التنقّل بين العناوين الكبرى والتفصيلية في ذات الخطاب حسب ما تتحمله بنية الخطاب.

(١) جعفر مرتضى العاملي: الصحيح من سيرة أمير المؤمنين (ع)

- رؤية ورسالة الخطيب أو مرسل الخطاب كما يقولون في علم الاتصالات، فالمرسل أدلى بخطابه من أجل أن يوصل رؤيته ورسالته إلى المستقبلين أو جمهور المستمعين، فإذا انفض الجمهور بعد الخطاب وهو لا يفقه ما الذي رامه ذلك الخطيب بالضبط فذلك يعني فشل المتكلم في نقل ما يراه اليهم.

وقد كانت رسالة رسول الله (ص) في خطاب الغدير واضحة حيث عبر عنها بقوله (ص) «... انظروا كيف تخلفوني في الثقلين، ...، الثقل الأكبر كتاب الله، طرف بيد الله عز وجل وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلوا، والآخر الأصغر عترتي، وإن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربي فلا تَقَدَّموهما فتهلكوا ولا تُقَصِّروا عنهما فتهلكوا ...»

- شعارات تعبيرية: الشعارات الخطابية مهمة جداً في أي خطاب فهي تختزل الفكرة وتختزنها، بحيث تصبح مثل علامات المرور[1]، تسهل عبور مجمل الفكرة إلى الأذهان بمجرد ذكرها، ويمكن اعتبار مقولة "من كنت مولاه فعلي مولاه" شعار يلخص كل مضمون خطبة الغدير.

ألفاظ الخطاب:

لألفاظ الخطاب أيضاً دلالات ومضامين، ويمكن تصنيف الألفاظ إلى الأنواع التالية:

- ألفاظ تأسيسية: أي تؤسس لقيم أو لمواضيع جديدة، كقوله (ص): «من كنت نبيه فعلي أميره».
- ألفاظ معيارية: أي تضع معايير من شأنها أن ترفع أو تضع من قيمة شأن ما، كقوله (ص): «علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار».
- ألفاظ تقريرية: أي تعترف بما هو قائم، أو تضفي مزيد من التأكيد على ما هو معروف، كقوله (ص): «إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه، ...».

(١) لوسو: نظرية الانتفاضة.

سلطة الخطاب:

للخطاب سلطة الإرسال، أي سلطة اقتحام عقل مستقبل الخطاب، وتطويع استجابته لمصلحة المرسل، وحين يكون استقبال مضامين الخطاب والاستجابة له في مستوى جيد، فإن ذلك تعبير عن الثقة بمصدر الخطاب وبمصداقيته، وتعبير عن القبول بسلطته وهيمنته المعرفية[1].

متى يتحول الخطاب إلى سلطة؟

يتحول الخطاب إلى سلطة، في الحالات التالية:

- شعور المستقبل بمصداقية المرسل، وذلك يحصل مثلاً حين نستقبل آراء الأكاديميين والخبراء والمحترفين، كل في مجال تخصصه، وكذلك مصادر الأخبار الموثوقة.
- حين يكون المستقبل ملزم بقبول خطاب المرسل، كالتلميذ في المدرسة الذي يكون ملزماً باستقبال خطاب المعلم، أو كأتباع الشرائع الدينية الملزمون باستقبال خطاب مصدر الشريعة أو الوحي.
- حين لا يوجد أو لا يقبل مصدر بديل للإرسال، كما يحدث مثلاً في تشريعات الرسالات السماوية، فلا يوجد بديل عن خطاب الوحي أو المصادر المرتبطة بالوحي.
- حين يفتقد مستقبل الخطاب القدرة المعرفية التي تسمح له بتحدي خطاب المرسل أو بعصيانه، وبالتالي لا يكون له خيار إلا الانصياع له.

أنماط سلطة الخطاب:

إن الهدف من سلطة الخطاب هو كسب الاستجابة الذهنية للمستمع أو المستقبل، ومن ثم كسب الطاعة المتولدة عن القبول أو الخضوع لتلك السلطة، والخطاب الفاعل هو خطاب مليء بالأدوات المنطقية التي يرومها المستقبل، أي مليء بالتفسيرات والتوضيحات والمبررات والأسباب والنتائج، وهذا النوع من الخطابات الجيدة تهدف إلى إحراز السلطات التالية:

- سلطة التوعية: أي نقل المعارف والخبرات والتجارب إلى الأتباع والمستقبلين، وذلك عبر المعلومات والمعارف الخارجية، والمفاهيم والمعارف الذهنية والسلوكية، ورواية السير والعبر.

---

(١) Van Dijk: Critical discourse analysis.

- سلطة الضبط: أي ضبط سلوك الأتباع والمستقبلين، وذلك عبر توحيد استجابتهم من خلال إرشادات الخطاب تجاه القضايا والمواقف والأفكار سواء باتجاه التأييد مثلاً أو الرفض، وكذلك إرشادهم إلى معالجة التحديات أو تدارك الأخطاء في قضايا تهمهم وتهم مرسل الخطاب الذي يستخدمه لهذه الأغراض.

خطاب الشعائر الدينية:

والآن نأتي إلى خطاب الشعائر الدينية لنرى مدى أهميته والوسائل التي يستخدمها من خلال عمليات الإحياء لتوجيه المؤمنين وتعبئتهم تجاه القيم الدينية والإنسانية وتثبيت هويتهم العقائدية وسلوكهم الشخصي والاجتماعي.

وخطاب الشعائر الدينية أو بالأحرى خطاب مصادر واهل التشريع وهم رسول الله (ص) وأهل بيته من الأئمة الأطهار عليهم جميعاً صلوات الله، يتبدّى من خلال مجموعة من الشعائر على رأسها الأدعية ونصوصها، وخطاب الزيارات، وخطاب الشعائر الحسينية.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن خطاب ونصوص الشعائر الدينية (الأدعية والزيارات) يتميز على خطاب ونصوص الروايات والأحاديث التي وردت عن أهل البيت عليهم الصلاة والسلام بأربعة أمور:

١- أنه خطاب متعمد يصدر عن نية مقصودة من قبل أهل البيت عليهم السلام فهو ليس إجابة ظرفية أو سريعة أو طارئة حتمها سؤال أو استفسار من قبل أحد زوار الأئمة (ع) أو من قبل أحد اتباعهم أو مناوئيهم أو عوام الناس، وبالتالي تكون الإجابة مقتصرة على ما يتطلبه الظرف المكاني والزماني والبشري (مستوى السائل ومتلقي الإجابة).

٢- أنه خطاب ممنهج، فحيث أنه لا يتعلق بظرف معين فهو يصدر ضمن منهجية متكاملة من بدايته وحتى خاتمته، ليوضح فكرة أو مفهوم أو نظرية أو منظومة من القواعد في موضوع معين دون أن تبتر هذه المنظومة بحديث أحد أو تدخل أو مقاطعة أحد المستمعين أو الجمهور أو غيرهم.

٣- أنه خطاب ذو مستوى رفيع جداً من الأدب اللغوي فهو لا يخاطب مثلاً عوام الناس كما هي غالبية الروايات وبالتالي يراعي مستوياتهم الذهنية واللسانية والاجتماعية

وإنما في الأدعية مثلاً يخاطب الله تبارك وتعالى بلسان بليغ وفصيح وراق جداً، وفي الزيارات يتكلم بتوصيفات للأئمة وأهل بيت النبوة عليهم الصلاة والسلام بصورة بلاغية ودقائق توصيفية قد لا يلتقطها إدراك العوام من الناس إلا بعد التأمل وإحكام العقل والتدبر فيها.

٤ـ إنه خطاب صريح لا يراعي التقية في غالبية نصوصه وبالتالي فهو يفصح عن العديد من الحقائق والتوصيفات والمفاهيم العقائدية والإيمانية والمواقف المبدئية والسلوكية دون مواراة أو مراعاة لظرف ما قد يمنع مثل تلك التصريحات.

أولاً: خطاب الأدعية:

لدى الشيعة مئات بل آلاف النصوص الدعائية، والتي أنشأت من قبل أئمتهم عليهم السلام للتلاوة في مختلف الأوقات والظروف والمناسبات، فالدعاء مستحب في كل وقت وخاصةً بعد الصلوات المفروضة والمسنونة، وحين إفطار الصائم، وفي ليلة الجمعة ويومها، وفي أثناء أداء شعائر الحج وفي أيام وليالي شهر رمضان المبارك وفي أمثالها من الأوقات التي ندب الشرع إلى الدعاء فيها والتي تشكل السياق الروحاني الملائم لإجراء الدعاء، ولذلك نجد بأن توقيت الأدعية مرتبط بهذه السياقات والحالات فهناك أدعية خاصة عقيب الصلوات وأدعية لليالي القدر وأدعية للطواف وأدعية ليوم عرفة وأدعية للعيد .. الخ.

فعن الإمام علي بن موسى الرضا عن آبائه عليهم صلوات الله، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أدى فريضة فله عند الله دعوة مستجابة».

وعن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام: «إن الله عزّ وجلّ فرض عليكم الصلوات في أحب الأوقات إليه، فاسألوا الله حوائجكم عقيب فرائضكم».

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام، أنه قال: "من صلّى لله سبحانه صلاة مكتوبة فله في أثرها دعوة مستجابة".

وجوهر نص خطاب الأدعية هو توحيد الله سبحانه وتعالى والخضوع له والتوجه إليه في أمور حياتنا كلها وربطها به والتوكل عليه والاسترشاد بها في طريقة التصرف والتعامل مع أنفسنا ومع الآخرين ومع قضايا الحياة الخاصة والعامة.

وهذا المضمون يتكرر تقريباً بشكل موجز أو مفصل في غالبية الأدعية، سواء منها التي تدعوا لمطالب عامة كالرحمة والهداية والأمان والعافية أو لمطالب خاصة كالنجاة من عدو أو سداد دين أو الأمان في السفر أو غير ذلك.

وتكرار هذه الأدعية والمناجاة التي تعبر عن التواصل مع الله سبحانه وتعالى في كل يوم وكل أسبوع وكل شهر وعلى مدى الحياة كلها يكرس قيم الإيمان والتوحيد والعقيدة ويحصن الفكر والنفس والسلوك من الانحرافات والشبهات العقائدية والسلوكية والعبادية ويحافظ على هوية المؤمن، خصوصاً وأن الغالبية الساحقة من هذه الأدعية توجه الداعي إلى الارتباط برسول الله (ص) واهل بيته (ع) من خلال إدراج وتكرار الصلاة عليهم باعتبارهم الباب والوسيلة الصحيحة التي ترشد المؤمنين إلى حقيقة التوحيد وقيم الإيمان.

فعن أبي حمزة[1]، قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (الأحزاب ٥٦).

فقال (ع): «الصلاة من الله عز وجل رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن الناس دعاء، وأما قوله عز وجل (وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) فإنه يعني التسليم له فيما ورد عنه».

وفيما يلي مقتطفات موجزة وسريعة، نوردها فقط كإشارات تؤكد ما ذهبنا إليه.

- يمكن اعتبار الأدعية التي تعقب الصلوات اليومية (التعقيبات) وأدعية أيام الأسبوع بما فيها أدعية ليلة ويوم الجمعة من الأدعية المتكررة باستمرار وبكثافة كبيرة، فتعقيبات الصلوات يتم تكرارها كل يوم على الأقل مرة، وهي موزعة بين تصنيفين، الأول هو التعقيبات المشتركة التي يستحجب تلاوتها بعد كل صلاة يومية، والصنف الثاني هي التعقيبات الخاصة التي تعقب صلاة الفجر، والخاصة بصلاة الظهر، وأخرى بالعصر، وأخرى بالمغرب، وأخرى بالعشاء، وهي متنوعة من حيث الطول والقصر، ومن حيث عموم المطالب وخصوصها.

فمثلاً من التعقيبات المشتركة[2]، دعاء رسول الله (ص): «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع، ...الخ»، وهو كما يلاحظ عام المطالب.

(١) الصدوق: معاني الأخبار.
(٢) جعفر: دليل الشعائر.

بينما من التعقيبات الخاصة[1] بصلاة الفجر مثلاً دعاء الإمام الصادق (ع) لسداد الدين: «توكلت على الحي القيوم الذي لا يموت، والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، و لم يكن له شريك في الملك، و لم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا، اللهم إني أعوذ بك من البؤس والفقر ومن غلبة الدين والسقم، وأسألك أن تعينني على أداء حقك إليك وإلى الناس».

وهذا الأمر أي تسبيح الخالق عز وجل وتنزيهه والصلاة على نبيه (ص) وعمومية المطالب يتكرر في نصوص أدعية أيام الأسبوع، وقد وردت منها مجموعات مختلفة من أكثر من مصدر من أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام.

فنجد مثلاً في ختام مطالب دعاء يوم الخميس عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه الصلاة والسلام: «...، اللّهُمَّ اقْضِ لي في الخَميسِ خَمْساً لا يَتَّسِعُ لَها إلاّ كَرَمُكَ وَلا يُطيقُها إلاّ نِعَمُكَ، سَلامَةً أَقْوى بها عَلى طاعَتِكَ، وَعِبادَةً اسْتَحِقُّ بها جَزيلَ مَثُوبَتِكَ، وَسِعَةً في الحالِ مِنَ الرّزْقِ الحَلالِ، وَأَنْ تُؤْمِنَني في مَواقِفِ الخَوْفِ بِأَمْنِكَ، وَتَجْعَلَني مِنْ طَوارِقِ الهُمُومِ وَالغُمُومِ في حِصْنِكَ، وَصَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَاجْعَلْ تَوَسُّلِي بِه شافِعاً يَوْمَ القِيامَةِ نافِعاً، إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمينَ".

أما في ليلة ويوم الجمعة فالأدعية كثيرة ومتنوعة، ففي ليلة الجمعة يستحب قراءة دعاء كميل وهو دعاء طويل نوعاً ما، علمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لصاحبه كميل بن زياد النخعي، وبين له بأن هذا هو دعاء النبي الخضر عليه السلام، ويبدأ الدعاء بالنص التالي: «اللّهُمَّ إِنِّي أَسأَلُكَ بِرَحمتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ، وَبِقُوَّتِكَ الَّتي قَهَرْتَ بها كُلَّ شَيءٍ وَخَضَعَ لَها كُلُّ شَيءٍ وَذَلَّ لَها كُلُّ شَيءٍ، وَبِجَبَرُوتِكَ الَّتي غَلَبْتَ بها كُلَّ شَيءٍ، وَبِعِزَّتِكَ الَّتي لا يَقُومُ لَها شَيءٌ، وَبِعَظَمَتِكَ الَّتي مَلأَتْ كُلَّ شَيءٍ، وَبِسُلْطانِكَ الَّذي عَلا كُلَّ شَيءٍ، وَبِوَجْهِكَ الباقي بَعْدَ فَناءِ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِأَسْمائِكَ الَّتي ملأَتْ أَرْكانَ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِعِلْمِكَ الَّذي أَحاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَبِنُورِ وَجْهِكَ الَّذي أَضاءَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ، يا نُورُ يا قُدُّوسُ يا أَوَّلَ الأَوَّلينَ وَيا آخرَ الآخرينَ، اللّهُمَّ اغفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تَهْتِكُ العِصَمَ، اللّهُمَّ اغفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ النِّقَمَ، اللّهُمَّ اغفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُغَيِّرُ النِّعَمَ، اللّهُمَّ اغفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تَحْبِسُ الدُّعاءَ، اللّهُمَّ اغفِرْ لِيَ الذُّنُوبَ الَّتي تُنْزِلُ البَلاءَ، اللّهُمَّ اغفِرْ لِي كُلَّ ذَنْبٍ أَذْنَبْتُهُ، وَكُلَّ خَطيئَةٍ أَخْطَأْتُها، ...الخ».

أما في يوم الجمعة فيستحب قراءة مجموعة أخرى من الأدعية ومنها هذه الصلوات على رسول الله والأئمة من أهل بيته (ع)، وهي مروية عن الإمام المهدي صلوات الله عليه، وتبدأ

(١) المصدر السابق.

بقوله (عج): «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، اللّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخاتَمِ النَّبِيِّينَ وَحُجَّةِ رَبِّ العالَمِينَ، الْمُنْتَجَبِ في الميثاقِ، الْمُصْطَفى في الظِّلالِ، الْمُطَهَّرِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، البَرِيِ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، الْمُؤَمَّلِ للنَّجاةِ، الْمُرْتَجى لِلشَّفاعَةِ، الْمُفَوَّضِ إِلَيْهِ دِينُ اللهِ، اللّهُمَّ شَرِّفْ بُنْيانَهُ، وَعَظِّمْ بُرْهانَهُ، وَأَفْلِجْ حُجَّتَهُ، وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ، ...الخ».

والملاحظ في أدعية يوم الجمعة كهذه الصلوات ودعاء الندبة وغيرها التأكيد على موضوع الولاية وصوابية منهج رسول الله (ص) والأئمة (ع) من بعده.

- وهناك أدعية تتكرر في المواسم السنوية كأدعية شهر رجب المشتركة التي تتلى يومياً خلاله، والخاصة التي تتلى في أوقات مخصصة منه، وكذلك الأمر بالنسبة لشهري شعبان ورمضان، فهناك أدعية للنهار وأخرى لليالي وثالثة للأسحار، وأخرى لليالي القدر، ونصوصها متنوعة وسياقاتها عديدة.

ونشير هنا فقط إلى أمثلة موجزة وسريعة، فمن أدعية شهر رجب اليومية دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام، وهو: «يا مَنْ يَمْلِكُ حَوائِجَ السّائِلِينَ ويَعْلَمُ ضَمِيرَ الصّامِتِينَ، لِكُلِّ مَسْأَلَةٍ مِنْكَ سَمْعٌ حاضِرٌ وَجَوابٌ عَتِيدٌ، اَللّهُمَّ وَمَواعِيدُكَ الصّادِقَةُ وأَيادِيكَ الفاضِلَةُ ورَحْمَتُكَ الواسِعَةُ، فأسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وأَنْ تَقْضِيَ حَوائِجي لِلدُّنْيا وَالآخِرَةِ، انَّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

ومن أدعية شهر رمضان الليلية ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «اَللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ فِيما تَقْضِي وَتُقَدِّرُ مِنَ الأَمْرِ المَحْتُومِ في الأَمْرِ الحَكِيمِ مِنَ القَضاءِ الَّذِي لا يُرَدُّ وَلا يُبَدَّلُ أَنْ تَكْتُبَنِي مِنْ حُجّاجِ بَيْتِكَ الحَرامِ المَبْرُورِ حَجُّهُمْ المَشْكُورِ سَعْيُهُمْ المَغْفُورِ ذُنُوبُهُمْ المُكَفَّرِ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ، وَأَنْ تَجْعَلَ فِيما تَقْضِي وَتُقَدِّرُ أَنْ تُطِيلَ عُمْرِي فِي خَيْرٍ وَعافِيَةٍ وَتُوَسِّعَ في رِزْقِي وَتَجْعَلَنِي مِمَّنْ تَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِكَ وَلا تَسْتَبْدِلْ بِي غَيْرِي».

كما توجد أدعية خاصة بموسم الحج وأعماله كأدعية الطواف والسعي وأدعية يوم عرفة، وخصوصاً نشير إلى دعاء الإمام الحسين (ع) في هذا اليوم وهو دعاء طويل ومليء بالبيانات التوحيدية والمعارف الربانية وقيم الايمان بالله والتذلل والخضوع له والاعتراف له سبحانه بالذنوب وطلب الاستغفار، وفيه صور رحمة الله ونعمه وبركاته وأفضاله التي لا تحصى على مخلوقاته في الكون.

فعن بشر وبشير ابنا غالب الأسدي، قالا: كنا مع الحسين بن علي عليه السلام عشية عرفة فخرج عليه السلام من فسطاطه متذللاً خاشعاً، فجعل يمشي هوناً هونا، حتى وقف

هو وجماعة من أهل بيته وولده ومواليه في ميسرة الجبل، مستقبل البيت، ثم رفع يديه تلقاء وجهه كاستطعام المسكين، ثم قال: «الحَمْدُ للهِ الَّذي لَيْسَ لِقَضائه دافِعٌ وَلا لِعَطائه مانِعٌ وَلا كَصُنْعِه صُنْعُ صانِعٍ وَهُوَ الجَوادُ الواسِعُ، فَطَرَ أَجْناسَ البَدائِعِ وَأَتْقَنَ بِحِكْمَتِه الصَّنائِعَ وَلا تَخْفى عَلَيْه الطَلائِعُ وَلا تَضيعُ عِنْدَهُ الوَدائِعُ، جازي كُلِّ صانِعٍ وَرائِشُ كُلِّ قانِعٍ وَراحِمُ كُلِّ ضارِعٍ، مُنْزِلُ المَنافِعِ وَالكِتابِ الجامِعِ بِالنُّورِ السّاطِعِ، وَهُوَ لِلدَّعَواتِ سامِعٌ وَلِلْكُرُباتِ دافِعٌ وَلِلدَّرَجاتِ رافِعٌ وَلِلْجَبابِرَةِ قامِعٌ، فَلا إِلهَ غَيْرُهُ وَلا شَيْءَ يَعْدِلُهُ وَلَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ، وَهُوَ السَّميعُ البَصيرُ اللَّطيفُ الخَبيرُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، ...الخ».

- ومن المهم الإشارة إلى تعدد أدعية المطالب والتي يمكن تلاوتها والدعاء بها وقت الحاجة، وعلى رأسها مجموعة أدعية الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، وهي أكثر من ستون دعاءً حول مختلف المطالب، ففيها أدعية للاستعاذة من المكاره، ولطلب العافية، وللجيران، ولأهل الثغور، وللتوبة، ولطلب الستر، وعند قراءة القرآن، وعند دخول شهر رمضان، وفي العيدين، ولدفع كيد الأعداء، وفي تسبح الله وتمجيده، وغير ذلك كثير، وهي تؤكد في أغلب نصوصها على أهمية وكيفية ضبط سلوك الإنسان المؤمن وعقله وانفعالاته الظاهرة وأحاسيسه الباطنة على إيقاع قيم التوحيد والشريعة المحمدية، في مختلف المطالب والموارد والحالات التي يمر بها.

ثانياً: خطاب الزيارات:

من المستحبات المؤكدة عند أتباع أهل البيت (ع)، زيارة رسول الله وآله الكرام صلوات الله عليهم أجمعين، وهذه الزيارات كما أسلفنا لها مواقيت وظروف عامة وخاصة، وتزار بنصوص معينة هي جزء من خطاب يمكن أن نطلق عليه خطاب الزيارات.

فعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام[1]، أنه قال: «إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبةً في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة».

ولزيارة المقامات الشريفة لأئمة آل البيت عليهم السلام سنن وآداب عديدة يمكن أن نعتبرها جزء أساسي من سياق الخطاب، كالطهارة من الحدث الأكبر والأصغر، والاغتسال

(١) الصدوق: عيون أخبار الرضا (ع).

للزيارة، ولبس ثياباً طاهرة نظيفة جديدة، ويستحسن أن تكون بيضاء، وأن يقصّر الزائر خطاه إذا خرج إلى الروضة المقدسة، وأن يسير وعليه السكينة والوقار، وأن يكون خاضعاً خاشعاً، وأن يتطيَّب بشي من الطيب، فيما عدا عند زيارة الحسين عليه السلام، وأن يشغل لسانه وهو يمضي إلى الحرم المطهر بالتكبير والتسبيح والتهليل والتمجيد، ويعطر فاه بالصلاة على محمد وآله عليهم الصلاة والسلام.

وتجدر الإشارة هنا إلى ورود زيارات لآل بيت رسول الله (ص) مخصصة لهم بحسب الأيام، فهناك زيارة خاصة بيوم السبت لرسول الله (ص)، والأحد لأمير المؤمنين وللصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء (ع)، والاثنين لزيارة الحسنين (ع)، والثلاثاء للائمة علي السجاد ومحمد الباقر وجعفر الصادق (ع)، والأربعاء للأئمة موسى الكاظم وعلي الرضا ومحمد الجواد وعلي الهادي (ع)، والخميس للإمام الحسن العسكري (ع)، والجمعة للإمام المهدي (عج).

وخطاب الزيارات بصورة عامة هو خطاب عقائدي، يتمحور في جوهره حول موضوع الولاية والإمامة، وتأكيد الإتباع لرسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم، والتبرؤ من أعدائهم ومناوئيهم من المنافقين والضالين والمنحرفين والمجرمين.

ويوجد في نصوص الزيارات باختلافها خطاب عام هو عبارة عن السلام والتحية للشخصية التي تتم زيارتها، والشهادة له بالولاية والطاعة والتسليم لأمره المعبر عن أمر الله سبحانه وتعالى، والتأكيد على القيم التي قامت عليها حياة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام وأدوارهم التشريعية.

والى جانب ذلك يمكن الإشارة إلى خطاب خاص يتعلق بزيارة كل شخصية من الشخصيات المعصومة (ع)، فمثلاً نجد في نصوص خطاب زيارة رسول الله (ص) تأكيد على اللجوء إلى خطه ومنهجه الشريف والاستعانة والتشفع به إلى الله سبحانه وتعالى، بينما في زيارات أمير المؤمنين (ع) نجد الإشارة بوضوح إلى التصديق بولايته وتأكيد فكرة الإمامة والوصاية له بعد رسول الله (ص)، هذا إلى جانب مواضيع كثيرة في النص تؤكد استحقاقه وجدارته (ع) لهذا المنصب دون غيره.

وفي زيارة الإمام الحسين (ع) هناك تأكيد على مظلوميته وكونه إنما خرج لإصلاح الأمة ولإنقاذ دين جده رسول الله (ص) من الانحراف وتأكيد على كونه سعى في ذلك وهو مقيم للصلاة مؤت للزكاة آمر بالمعروف وناه عن المنكر.

أما في زيارات بقية الأئمة عليهم السلام فإشارات واضحة على أدوارهم في خدمة الدين والشريعة وعلى كونهم تراجمة وحي الله، ونصوص زيارات الإمام الحجة (عج) تتطرق إلى مواضيع مهمة متعلقة به كتأكيد التصديق به والانتظار لأمره والدعاء له بالأمن والنصر له ولأوليائه وبالغلبة على أعدائه.

يبقى أن نشير إلى الزيارات الجامعة والتي تعم جميع آل البيت (ع)، وخطابها من أبلغ الخطابات ويتم فيه ربط مسار حياتهم الشريفة كلهم ببعضها البعض وكيف أنهم أدوا ما عليهم من مسئوليات شرعية بأفضل الطرق وبالغوا في حفظ دين الله وشريعة رسوله (ص) حتى قدموا انفسهم وأرواحهم ثمناً لذلك.

وفيما يلي نماذج موجزة وسريعة لبعض نصوص الزيارات.

فعن الإمام الرضا (ع)[1] أنه أمر من سأله عن السلام على رسول الله (ص) عند قبر الشريف، أن يقول: «السَّلامُ عَلى رَسُولَ الله، السَّلام عليك وَرَحْمةُ الله وَبَرَكاتُهُ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسولَ الله، السّلام عليكَ يا مُحَمَّدُ بْنَ عَبْدالله، السَّلامُ عَلَيْكَ يا خيرَةَ الله، السَّلامُ عَلَيْكَ يا حَبيبَ الله، السَّلامُ عَلَيْكَ يا صِفْوَةَ الله، السَّلامُ عَلَيْكَ يا أمينَ الله، أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله وَأشْهَدُ أَنَّكَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدالله وَأشْهَدُ أنَّكَ قَدْ نَصَحْتَ لأمَّتكَ وَجاهَدْتَ في سَبيلِ رَبِّك وَعَبَدْتَهُ حَتّى أتاكَ الْيَقينُ، فَجَزاكَ الله أفْضَلَ ما جَزى نَبيّاً عَنْ أُمَّتِه، اللّـهُمَّ صَلِّ على مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ أفْضَلَ ما صَلَّيْتَ عَلى إبْراهِيمَ وَآلِ إبراهيمَ، انَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ».

وفي زيارات الإمام علي (ع) ورد[2]: «...، السَّلامُ عَلَيكَ يا أميرَ المؤمنين ورَحْمَةُ الله وبَرَكاتُهُ، السَّلام عليكَ يا حَبيبَ الله، السَّلام عليكَ يا صَفْوَةَ الله، السَّلامُ عليك يا وَلِيَّ الله، السَّلام عَلَيكَ يا حُجَّةَ الله، السَّلامُ عليك يا عَمودَ الدِّينِ وَوارِثَ عِلْمِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وصاحِبَ المِيْسَمِ وَالصِّراطِ الْمُسْتَقيم، ...».

وفي زيارة الإمام الحسن (ع)[3]: «...، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها القائمُ الأمين، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها العالِمُ بالتَّأْويل، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الهادي المَهديُّ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الطّاهِرُ الزَّكيُّ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها التَّقيُّ النَّقيُّ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الحَقُّ الحَقيقُ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الشَّهيدُ الصِّدِّيقُ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا أَبا مُحَمَّدٍ الحَسَنِ بْنَ عَلِيٍّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكاتُهُ».

---

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات
(٢) ابن قولويه: كامل الزيارات
(٣) زيارته (ع) في يوم الاثنين

وفي زيارة الإمام الحسين (ع) ورد عن الإمام الصادق (ع)[1] أنه قال: إذا أتيت أبا عبدالله (أي الإمام الحسين) عليه السلام فاغتسل على شاطئ الفُرات ثمّ البس ثيابَك الطّاهرة ثمّ امْشِ حافياً، فإنّك في حَرَم من حُرُم اللهِ وحَرم رَسوله وعليك بالتّكبير والتّهليل والتّمجيد والتّعظيم لله كثيراً والصّلاة على محمّد وأهل بيته، حتّى تصير إلى باب الحائر، ثمّ تقول: «السّلام عَلَيْكَ يا حُجّةَ اللهِ وَابْنَ حُجّته، السّلامُ عَلَيْكُمْ يا مَلائكَةَ اللهِ وَزُوّارَ قَبْرِ ابْنِ نَبيّ اللهِ»، ثمّ اخْطُ عَشر خُطىً ثمّ قِفْ فكبّر ثلاثين تكبيرةً ثمّ امْشِ إليه حتّى تأتيه مِن قِبَل وَجهِه، واستقبل بوَجهك وَجهه وتجعل القِبلَة بين كتفيك[2]، ثمّ تقول:

«السّلامُ عَلَيكَ يا حُجّةَ اللهِ وابْنَ حُجّته، السّلامُ عَلَيْكَ يا قَتيلَ اللهِ وَابْنَ قَتيله، السّلامُ عَلَيْكَ يا ثارَ اللهِ وَابْنَ ثارِه، السّلامُ عَلَيكَ يا وِتْرَ اللهِ المَوتُورَ في السّماواتِ وَالأرْض، أشْهَدُ أنّ دَمَكَ سَكَنَ في الخُلْدِ وَاقْشَعَرّتْ لَهُ أظِلّةُ العَرْشِ وَبَكى لَهُ جَميعُ الخَلائقِ وَبَكَتْ لَهُ السّماواتُ السّبْعُ وَالأرَضُونَ السّبْعُ وَما فيهِنّ وَما بَيْنَهُنّ وَمَنْ في الجَنّةِ وَالنّارِ مِنْ خَلْقِ رَبّنا ما يُرىٰ وَما لا يُرى، أشْهَدُ أنّكَ حُجّةُ اللهِ وَابْنُ حُجّته، أشْهَدُ أنّكَ قَتيلُ اللهِ وَابْنُ قَتيله وَأشْهَدُ أنّكَ ثارُ اللهِ وَابْنُ ثارِه وَأشْهَدُ أنّكَ وِتْرُ اللهِ المَوتُورِ في السّماواتِ وَالأرضِ وَأشْهَدُ أنّكَ قَدْ بَلّغْتَ وَنَصَحْتَ وَوَفَيْتَ وافَيْتَ وَجاهَدْتَ في سَبيلِ رَبّكَ وَمَضَيْتَ لِلّذي كُنتَ عَلَيْهِ شَهيداً وَمُسْتَشْهِداً وَشاهِداً وَمَشْهُوداً، ...».

وفي زيارات الأيام ورد مثلاً في زيارة يوم الثلاثاء للأئمة السجاد والباقر والصادق (ع)، النص التالي: «السّلامُ عَلَيْكُمْ يا خُزّانَ عِلْمِ اللهِ، السّلامُ عَلَيْكُمْ يا تَراجِمَةَ وَحْيِ اللهِ، السّلامُ عَلَيْكُمْ يا أئمّةَ الهُدى، السّلامُ عَلَيْكُم يا أعْلامَ التُّقى، السّلامُ عَلَيْكُمْ يا أوْلادَ رَسُولِ اللهِ، أنا عارِفٌ بِحَقّكُمْ مُسْتَبْصِرٌ بِشَأنِكُمْ، مُعادٍ لأعدائكم مُوالٍ لأوليائكم، ...».

وفي زيارة يوم الأربعاء للأئمة الكاظم والرضا والجواد والهادي (ع)، ورد: «السّلامُ عَلَيْكُم يا أوْلياءَ اللهِ، السّلامُ عَلَيْكُم يا حُجَجَ اللهِ، السّلامُ عَلَيْكُمْ يا نُورَ اللهِ في ظُلُماتِ الأرض، السّلامُ عَلَيْكُمْ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَعَلى آلِ بَيْتِكُمْ الطّيّبينَ الطّاهرينَ، بأبي أنْتُمْ وأمي لَقَدْ عَبَدْتُمُ اللهَ مُخْلصينَ وَجاهَدْتُمْ في اللهِ حَقّ جِهادِه حَتّى أتاكُمُ اليَقينُ، فَلَعَنَ اللهُ أعْدائكُمْ مِنَ الجِنّ والأنس أجْمَعينَ وَأنا أبْرَأُ إلى اللهِ وَإلَيْكُمْ مِنهُمْ، ...».

وفي زيارة الإمام العسكري (ع)[3]، ورد: «السّلامُ عَلَيْكَ يا إمامَ الفائزِينَ، السّلامُ عَلَيْكَ

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات

(٢) ويلاحظ هنا السياق الذي يشكله الامام عليه السلام للزيارة قبل البدء بتلاوة نصوصها.

(٣) القمي: مفاتيح الجنان.

يا رُكْنَ المُؤْمنينَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا فَرَجَ المَلْهُوفِينَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وارِثَ الأَنْبِياءِ المُنْتَجَبِينَ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا خازِنَ عِلْمِ وَصِيِّ رَسُولِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الدّاعِي بِحُكْمِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها النّاطِقُ بِكِتابِ اللهِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا حُجَّةَ الحُجَجِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا هادِيَ الأُمَمِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا وَلِيَّ النِّعَمِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا عَيْبَةَ العِلْمِ، السَّلامُ عَلَيْكَ يا سَفِينَةَ الحِلْمِ، ...».

وفي زيارة الإمام المهدي (عج)[1] صاحب العصر والزمان، ورد: «السَّلامُ عَلَيْكَ يا حُجَّةَ اللهِ عَلى مَنْ فِي الأَرْضِ وَالسَّماءِ، السَّلامُ عَلَيْكَ سَلامَ مَنْ عَرَفَكَ بِما عَرَّفَكَ بِهِ اللهُ وَنَعَتَكَ بِبَعْضِ نُعُوتِكَ الَّتِي أَنْتَ أَهْلُها وَفَوْقَها، أَشْهَدُ أَنَّكَ الحُجَّةُ عَلى مَنْ مَضى وَمَنْ بَقِيَ وَأَنَّ حِزْبَكَ هُمُ الغالِبُونَ وَأَوْلِيائَكَ هُمُ الفائِزُونَ وَأَعْدائَكَ هُمُ الخاسِرُونَ، وَأَنَّكَ خازِنُ كُلِّ عِلْمٍ وَفاتِقُ كُلِّ رَتْقٍ وَمُحَقِّقُ كُلِّ حَقٍّ وَمُبْطِلُ كُلِّ باطِلٍ، رَضِيتُكَ يا مَوْلايَ إِماماً وَهادِياً وَوَلِيّاً وَمُرْشِداً، لا أَبْتَغِي بِكَ بَدَلاً وَلا أَتَّخِذُ مِنْ دُونِكَ وَلِيّاً، ...».

وهكذا يبدو جلياً بان إحياء هذه الشعيرة ـ أي الزيارات ـ يعزز عبر خطابها من هوية التشيع ويؤكد على القيم الدينية والعقائدية التي تشكل أساس تلك الهوية أي ولاية رسول الله (ص) وأهل بيته الكرام (ع).

ثالثاً: خطاب الشعائر الحسينية:

خطاب الشعائر الحسينية هو خطاب نهضة الإمام الحسين (ع) الذي قام من أجل إصلاح أمر الأمة والدفاع عن قيم الدين الأصيلة والصحيحة، ومقاومة الاستبداد والانحراف السياسي والعقائدي والظلم الاجتماعي والتمييز الاقتصادي، والاستجابة لدعوات التغيير إلى الأفضل.

فجوهر الخطاب هنا إذن هو عقائدي، واتجاهه هو تحمل مسئولية الإصلاح في المجتمع ومقاومة الظلم، وهو يتشكل من خطاب أساسي وخطاب فرعي، الخطاب الأساسي هو خطاب قائد النهضة الإمام الحسين عليه أفضل الصلاة والسلام، وهو خطاب إصلاحي كما اسلفنا، أما الخطاب المتفرع عنه فهو خطاب أتباعه وأنصاره وأهل بيته (ع)، وعنوانه هو الولاء للقيادة الشرعية والوفاء لها ومشاركتها ومساندتها في تحمل المسئولية.

لذا فإن إحياء الشعائر الحسينية وتجديدها في كل عام هو إحياء لخطابها (الأساسي والفرعي) وإحياء للقيم التي يتضمنها هذا الخطاب، وتجديد مستمر لهذا الجانب من هوية التشيع والشيعة.

---

(١) المصدر السابق.

١. خطاب الإمام الحسين (ع): خطاب الإصلاح

لقد تحدث الإمام الحسين (ع) فيما يخص نهضته المباركة وأهدافها طويلاً، وألقى العديد من الخطب، منذ اليوم الأول لوصول خبر تولي يزيد بن معاوية سدة الحكم وهو (ع) في المدينة المنورة، مروراً بالحقبة التي أمضاها (ع) في مكة المكرمة، وانتهاءً بساعة استشهاده (ع) في أرض كربلاء المقدسة، كما تحاور وتناقش مع العديد من الناس والوجهاء والشخصيات والصحابة في هذا الشأن، فمادة الخطاب الإصلاحي للإمام (ع) وفيرة وواضحة.

أما مادة الخطاب الولائي لأصحابه واتباعه (ع) فهي متوافرة في الأيام القليلة التي قضاها الأصحاب مع إمامهم (ع) في أرض العراق، وبالخصوص قبيل المعركة بأيام في كربلاء المقدسة.

وسنشير إلى القيم التي تضمنها خطاب الإمام (ع) من خلال الاستشهاد بمقتطفات موجزة وسريعة من كلامه (ع) في ظروف مختلفة[١]:

- قيمة الإمامة: أوضح (ع) بأن الإمامة الشرعية المتمثلة فيه قضية مهمة وحساسة وتمثل مفترق طرق بالنسبة لمصير الأمة التي كان عليها أن تميّز بين الإمام الشرعي المعين من قبل الله سبحانه وتعالى ومن قبل رسوله (ص)، والإمام المدعي الذي سلب منصب إمامة الأمة بالحيلة والغدر والنفاق وشراء الولاءات بالأموال.

لذلك حين طلب منه (ع) والي المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان في الليلة الأولى من وصول كتاب تسنم يزيد لسدة الخلافة بأن يبايع ليزيد، رفض الإمام (ع) ذلك وقال: «إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحل الرحمة وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب للخمر قاتل النفس المحرمة معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع لمثله».

- قيمة الإصلاح: وحين أراد الإمام (ع) الخروج إلى مكة المكرمة، كتب وصيةً إلى أخيه محمد بن الحنفية، جاء فيها: «...، إني لم أخرج أشراً ولا بطرا ولا مفسداً ولا ظالما، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب (ع)، ...».
- قيمة المسئولية: ولما تهيّأ (ع) للخروج، كتب إلى بني هاشم: «...، من لحق بي منكم استشهد، ومن تخلف لم يبلغ مبلغ الفتح، والسلام».

(١) شريفي: موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع).

وكتب (ع) إلى أهل البصرة: «...، إن السنة قد أميتت وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد».

وخطب (ع) اتباعه في منطقة في طريقه إلى كربلاء تدعى ذو حسم، فقال: «...، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقّاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برما».

- قيمة التضحية: لما عزم (ع) على الخروج إلى العراق، قام خطيباً، فقال: «...، خط الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف، وخير لي مصرع أنا لاقيه، كأني بأوصالي تقطعها عسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، ...».
- قيمة الجهاد: وروي انه (ع) قال للفرزدق حين لاقاه في طريقه في منطقة تدعى الصفاح: «إن هؤلاء قوم لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد في الأرض، وأبطلوا الحدود، وشربوا الخمور، واستأثروا في أموال الفقراء والمساكين، وأنا أولى من قام بنصرة دين الله وإعزاز شرعه والجهاد في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا».
- قيمة التغيير: وخطب (ع) أصحابه وأصحاب الحر الرياحي في منطقة البيضة، فقال: «...، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود واستأثروا بالفيء وأحلوا حرام الله وحرموا حلال الله، وأنا أحق من غيّر، ...».
- قيمة الصبر: وقال (ع) لأخته الحوراء زينب (ع)، ليلة عاشوراء: «يا أختاه، تعزي بعزاء الله وارضي بقضاء الله، فإن سكان السماوات يفنون، وأهل الأرض يموتون، وجميع البرية لا يبقون، ...».

وقال لنساء أهل بيته عليهن السلام: «يا أختاه يا أم كلثوم وأنت يا زينب وأنت يا فاطمة وأنت يا رباب، اذا أنا قتلت فلا تشققن علي جيباً ولا تخمشن علي وجهاً ولا تقلن هجرا».

وحين قرب مصرعه (ع) وأراد وداع النساء والأطفال من أهل بيته بعد أن بقي وحيداً في الميدان، قال لهن (ع): «استعدوا للبلاء، واعلموا إن الله حافظكم وحاميكم

وسينجيكم من شر الأعداء ويجعل عاقبة أمركم إلى خير ويعذب أعاديكم بأنواع البلاء ويعوضكم الله عن هذه الليلة أنواع النعم والكرامة، فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما ينقص من قدركم».

- قيمة التوكل على الله: ودعا (ع) في يوم عاشوراء حين أصبحت الخيل تقبل عليه: «اللهم أنت ثقتي في كل كرب، وأنت رجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو، أنزلته بك وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمن سواك، ففرجته عني وكشفته، فانت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة».
- قيمة العزة: وخطب (ع) جيش الأمويين محتجاً عليهم بكربلاء، قبل المعركة، فقال: «...، ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، ...».
- قيمة الالتزام: وكان عليه السلام قد صلى بأصحابه ظهراً صلاة الخوف في أثناء المواجهة، ولم يقبل بأن تفوته الصلاة مهما كانت الذريعة، وقال (ع) لعمرو بن عبدالله الصائدي حين أشار إلى حلول وقت الصلاة: «ذكرت الصلاة، جعلك الله من المصلين والذاكرين».
- قيمة الرضا: وكان عليه السلام راضياً بكل قضاء الله فيما جرى عليه، وحين ذبح رضيعه بين يديه بسهم في نحره، قال (ع): «هون علي ما نزل بي أنه بعين الله».

٢. خطاب الأتباع: خطاب الولاء

أما خطاب أصحاب الإمام الحسين (ع) وأهل بيته (ع) فقد جسد مجموعة من القيم التي تولدت من خطاب الإصلاح، وهي[1]:

- قيمة البصيرة: فحين نعى الإمام (ع) قافلته أمام ولده علي الأكبر (ع) في منطقة الثعلبية، قال له ابنه علي (ع): «يا أبت أفلسنا على الحق؟».

قال (ع): «بلى يا بني والذي إليه مرجع العباد».

فقال ابنه علي (ع): «اذا لا نبالي الموت».

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين (ع)

وحين اوشك القتال على البدء رجع الحر بن يزيد الرياحي عن موقفه مع جيش الأمويين، وقرر الانتقال إلى نصرة الإمام (ع)، وقال: إني والله أخيّر نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا اختار على الجنة شيئاً ولو قطعت وحرّقت.

- قيمة الفداء: وحين رخّص (ع) لأصحابه في مغادرته ليلة عاشوراء للنجاة بأنفسهم قبل نشوب القتال، قالوا:«لا والله لا يكون هذا أبداً"، وقالوا: "الحمد لله الذي شرفنا بالقتل معك».

وأما أهله (ع) فقد قالوا: «لا نفارقك، ويحزننا ما يحزنك، ويصيبنا ما يصيبك، وإنا أقرب ما نكون إلى الله اذا كنا معك».

وقال له بنو عقيل (ع): «...، نفديك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، ونقاتل معك حتى نرد موردك، فقبح الله العيش بعدك».

وقال له القاسم بن أخيه الإمام الحسن (ع) حين سأله (ع): «يا بني كيف الموت عندك؟».

فقال القاسم (ع): «يا عم أحلى من العسل».

- قيمة النصرة: وحين عرض شمر بن ذي الجوشن لعنه الله الأمان على العباس بن علي (ع) وإخوته من أمه، رفض العباس (ع) أمانه، وقال: «أتأمرنا أن ندخل في طاعة العناد ونترك نصرة أخينا الحسين (ع)».

وقال محمد بن بشير، حين رخص له الإمام (ع) في المغادرة: أكلتني السباع حياً إن فارقتك.

وجمع حبيب بن مظاهر الأسدي الأصحاب ليلة عاشوراء ومضى إلى خيام الفاطميات من آل رسول الله (ص) ليبعث في نفوسهن الاطمئنان بشأن نصرة الأصحاب لآل البيت)، ونادى: يا أهلنا وسادتنا ويا معاشر حرائر رسول الله، هذه صوارم فتيانكم آلوا أن لا يغمدوها إلا في رقاب من يبتغي السوء فيكم، ... .

وحين صرع مسلم بن عوسجة على أرض المعركة يوم عاشوراء قال لحبيب بن مظاهر وكان قد دنا منه: أوصيك بهذا رحمك الله - وأهوى بيده إلى الحسين (ع) - أن تموت دونه.

وكانت نداءات قد اطلقها الإمام (ع) في يوم عاشوراء، ليؤكد على هذه القيم، وذلك حين نادى أصحابه بعد استشهادهم جميعاً: «يا مسلم بن عقيل، ويا هاني بن عروة، ويا حبيب بن مظاهر، ويا زهير بن القين، ويا يزيد بن مظاهر، ويا يحيى بن كثير، ، ويا هلال بن

نافع، ويا إبراهيم بن الحصين، ويا عمير بن المطاع، ويا أسد الكلبي، ويا عبدالله بن عقيل، ويا مسلم بن عوسجة، ويا داود بن الطرماح، ويا حر الرياحي، ويا علي بن الحسين، ويا أبطال الصفا، ويا فرسان الهيجا، مالي أناديكم فلا تجيبوني، وأدعوكم فلا تسمعوني، أنتم نيام! أرجوكم تنتبهون، أم حالت مودتكم عن إمامكم فلا تنصرونه، فهذه نساء رسول الله (ص) لفقدكم قد علاهن النحول، فقوموا من نومتكم أيها الكرام، وادفعوا عن حرم الرسول الطغاة اللئام، ولكن صرعكم والله ريب المنون وغدر بكم الدهر الخؤون، وإلا لما كنتم عن دعوتي تقصرون، ولا عن نصرتي تحتجبون، ...».

ثم صاح (ع) بالناس بعد أن قتل جميع من معه و لم يبق إلا هو والنساء والأطفال: «هل من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟ هل من موحد يخاف الله فينا؟ هل من مغيث يرجو الله في إغاثتنا؟ ...».

ونادى عليه السلام: «أما من مغيث يغيثنا لوجه الله؟ أما من ذاب يذب عن حرم رسول الله؟».

وفي نداء أخير صاح حين برز للقتال: «هل من راحم يرحم آل الرسول المختار؟ هل من ناصر ينصر الذرية الأطهار؟ هل من مجير لأبناء البتول؟ ...».

- قيمة الوفاء: وقال مسلم بن عوسجة الأسدي: أنحن نخلي عنك ولما نعذر إلى الله في أداء حقك؟ أما والله حتى أكسر في صدورهم رمحي واضربهم بسيفي ما ثبت قائمه في يدي ولا أفارقك، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك.

وقال سعيد بن عبدالله الحنفي: «والله لا نخليك حتى يعلم الله إنّا حفظنا غيبة رسول الله (ص) فيك، والله لو علمت أني أقتل ثم أحيا ثم أحرق حياً ثم أذر، يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حمامي دونك، ...».

وتكلم زهير بن القين وهلال بن نافع وجماعة من أصحابه (ع) بكلام يشبه بعضه بعضا.

- قيمة المواساة: وحين طلب الإمام (ع) من أصحابه أن يلحقوا نسائهم ببني أسد لكي لا يتعرضوا للسبي بعد المعركة، رفضت زوجة علي بن مظاهر، وقالت لزوجها: «والله ما أنصفتني يا بن مظاهر، أيسرك أن تسبى نساء رسول الله (ص) وأنا آمنة من السبي؟ أيسرك أن تسلب زينب إزارها من رأسها وأنا استتر بإزاري؟

أيسرك أن تذهب من بنات الزهراء أقراطها وأنا أتزين بقرطي؟ أيسرك أن يبيض وجهك عند رسول الله ويسود وجهي عند فاطمة الزهراء؟ والله أنتم تواسون الرجال، ونحن نواسي النساء».

وهكذا نجد بأن خطاب الشعائر وتكراره وإحيائه على مدى الأجيال حافظ على مضمون العقيدة الشيعية بين الأجيال السابقة والحالية وسيحفظها صافية محصنة كما هي للأجيال اللاحقة، وأن هذه الهوية ما هي إلا نتاج خطاب أهل البيت عليهم السلام ونتاج مواقفهم في الحياة وسيرتهم الطاهرة عليهم أفضل الصلاة والسلام.

القسم الثاني

إحياء الشعائر الدينية

الفصل السادس
إحياء الشعائر الدينية

المزيج الشعائري:

أصبح واضحاً بأن الشعائر الدينية لدى شيعة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام هي عبارة عن مزيج من المكان والزمان والسلوك والخطاب، ويتمظهر هذا المزيج بصيغ متعددة، فهناك شعائر مرتبطة بالمكان أي يكفي أو يجب الحضور في مكان محدد لها لكي يتم تفعيلها، وأخرى ربطت بالزمان فلا تقام إلا في موعد معين، وثالثة بكليهما معاً فلابد أن تتم في مكان وزمان محددان، ورابعة مطلقة أي يمكن الإتيان بها في كل زمان ومكان، وأغلبها تم ربطها بنصوص خطابية و بتصرفات وسلوكيات معينة تتوافق مع مضامينها، وفيما يلي أمثلة على هذه النماذج بالنسبة لأصناف الشعائر المختلفة:

أولاً: العبادات

- عبادات زمانية: كأذان الصلاة، والصلوات الواجبة اليومية، وصوم شهر رمضان، والزكاة والخمس (بمرور الحول على الأموال)، والأعمال والسنن الخاصة بأيام وليالي وشهور بعينها، كصيام شهري رجب وشعبان، وصلاة أول الشهر العربي، وغيرها كثير مما يرتبط بحلول الزمن المتعلق به بغض النظر عن المكان والموقع الجغرافي.
- عبادات مكانية: كالاعتمار إلى بيت الله الحرام، حيث أنها مستحبة طوال العام (وإن اختلفت شدة الاستحباب من وقت إلى آخر) ولكنها بطبيعة الحال لا تقام إلا في مكة المكرمة ومسجدها الحرام.
- عبادات زمانية ـ مكانية: كشعيرة الحج، فلا يقام الحج إلا في وقت معين من كل عام ومكان محدد معروف لكل الناس.

- عبادات مطلقة: تقام في أي زمان ومكان بلا تحديد كاستحباب المداومة على الطهارة والوضوء.
- عبادات ذات سكينة: أي تتطلب سلوكاً وقوراً ورزيناً واستقراراً وسكينةً والتطهّر من الخبائث ولبس الثياب النظيفة والتطيب، كالصلاة وكقراءة القرآن الكريم.
- عبادات ذات نصب: كشعائر الحج والتي تتطلب من الحاج عدم التزين والتدهن والتطيب بل وحتى عدم قتل الحشرات والاكتفاء بخرقتين لستر جسده صيفاً وشتاءً وعدم التضليل عن أشعة الشمس، وعدم مقاربة الزوجة، والطواف والسعي في الازدحـام الشديد، والمبيت في صحراء المزدلفة، وغير ذلك من الشرائط والضوابط.

ثانياً: الأدعية

- أدعية زمانية: ولعل أغلب الأدعية من هذا النوع، كأدعية ليلة الجمعة، وأدعية شهر رجب وشعبان ورمضان، وتعقيبات الصلوات، وأدعية الأيام، وغيرها كثير.
- أدعية مكانية: كالأدعية الواردة في سرداب غيبة الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف) بسامراء المشرفة، وأدعية طواف الحج بالمسجد الحرام، وأعمال الأسطوانات المعينة بمسجد الكوفة الأعظم، وكذلك بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، وغيرها.
- أدعية مطلقة: غير مرتبطة بزمان أو مكان معين، وهي كثيرة كأدعية الاستغفار والشكر لله سبحانه وتعالى والتسبيح وطلب العافية وطلب الرزق وغير ذلك من المطالب.
- المكون السلوكي في الأدعية: هناك سلوكيات حث أهل البيت عليهم السلام على مزجها بحالة الدعاء، كالطهارة والتوجه القلبي إلى الله سبحانه وتعالى والتركيز في الدعاء والخشوع والتذلل لله تعالى بل والبكاء والإقرار بالذنب له، وما أشبه.

ثالثاً: زيارة رسول الله وأهل بيته الكرام صلوات الله عليهم أجمعين:

- زيارات زمانية: وهي زيارات مرتبطة بأزمنة خاصة ومحددة وتسمّى بالزيارات الخاصة كزيارات أيام الأسبوع المعينة لرسول الله (ص) وأهل بيته (ع)، وكالزيارات

الخاصة بأمير المؤمنين (ع) في ذكرى المبعث النبوي الشريف، وفي يوم الغدير، وفي يوم ميلاد النبي صلى الله عليه وآله، وكزيارة الإمام الحسين (ع) في ليالي القدر، وفي العيدين، وفي يوم عرفة، ويوم عاشوراء، ويوم الأربعين، ويظهر أن هذين الإمامين المقدسين عليهما الصلاة والسلام قد خصّا بالزيارات الزمانية من دون بقية الأئمة عليهم السلام (اذا استثنينا زيارات الأيام المشار إليها أعلاه).

- زيارات مكانية: وهي زيارات حضورية تقرأ عند حضور الزائر في مقام الشخصية التي يزورها، كزيارة رسول الله (ص) وابنته فاطمة الزهراء (ع) وأحفاده الأئمة الأربعة (ع) حين الورود على المدينة المنورة (سواء في موسم الحج أو خارجه)، وزيارة الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد (ع) حين الورود على مدينة الكاظمية، وزيارة الإمام علي بن موسى الرضا (ع) في مدينة مشهد، وزيارة الإمامين علي الهادي والحسن العسكري (ع) في سامراء، بالإضافة طبعاً إلى الزيارة الحضورية لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في النجف الأشرف، وللإمام الحسين (ع) في كربلاء المقدسة.

- زيارات مطلقة: وهي زيارات يمكن الإتيان بها في أي زمان وأي مكان، وهذه خص بها رسول الله (ص) حيث يمكن زيارته من بعد، وأمير المؤمنين (ع) كزيارة (أمين الله)، والإمام الحسين (ع) حيث ورد استحباب زيارته من البيت كل يوم لمن يرغب، بالإضافة إلى ورود زيارات مطلقة من ناحية النص وتسمّى بالزيارات الجامعة حيث يمكن التوجه بها لزيارة أي من الأئمة المعصومين عليهم الصلاة والسلام.

- زيارات ذات سكينة: وهي عموم الزيارات حيث تتطلب كما أوردنا في فصل سابق الوقار في السلوك والسكينة والخشوع في ذكر الله وزيارة أوليائه.

- زيارات ذات نصب: وهذا خاص في بعض الحالات المتعلقة بزيارة الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: إذا زرت أبا عبد الله عليه السلام فزره وأنت حزين مكروب شعث مغبر جائع عطشان، فإنّ الحسين عليه السلام قتل حزيناً مكروباً شعثاً مغبراً جائعاً عطشاناً، واسأله الحوائج وانصرف عنه».

وفي حديث أبي حمزة الثمالي، عن الإمام الصادق صلوات الله عليه، أنه قال: «إذا بلغت نينوى فحطّ رحلك هناك، ولا تدّهن ولا تكتحل ولا تأكل اللحم ما أقمت فيه».

كما يكره اتخاذ الزاد في سفر زيارته عليه السلام مما لذَّ وطاب من الغذاء كاللحم المشوي والحلاوة، بل يغتذي بالخبز واللّبن، فعن الصادق صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيهِ قال: «بلغني أن قوما إذا زاروا الحسين عليه السلام حملوا معهم السفرة فيها الجِداء والأخبصة وأشباهه، ولو زاروا قبور آبائهم وأحبّائهم ما حملوا معهم هذا».(١)

رابعاً: مراسم الشعائر الحسينية، والمناسبات التاريخية:

- مراسم زمانية: كمراسم إحياء ذكرى واقعة كربلاء وما جرى من كوارث فضيعة على آل رسول الله (ص) في يوم عاشوراء، وهي ما اصطلح عليه بالشعائر الحسينية وتقام في شهري محرم وصفر من كل عام، كما يتم إقامة شعائر مماثلة لها تأخذ طابع الحزن أيضاً في ذكرى استشهاد الشخصيات المعصومة من آل بيت محمد (ص)، أما الاحتفالات والتي تأخذ طابع الفرح فتقام في ذكرى ميلاد رسول الله (ص) وأهل بيته (ع)، وفي المناسبات التاريخية السارة كيوم بعثة رسول الله (ص) في السابع والعشرون من شهر رجب، ويوم إعلانه (ص) عن ولاية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في عيد الغدير (الثامن عشر من ذي الحجة)، وما أشبه.
- مراسم مكانية: وهي بالحضور في الأماكن المقدسة كمدينة كربلاء للزيارة كاستحباب الاغتسال من نهر الفرات حين زيارة الإمام الحسين عليه السلام، والمشي حافياً وغير ذلك، وقد روى في آداب زيارته عليه السلام عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «من أتى قبر الحسين صَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيهِ ماشياً كتب الله له بكل خطوة ألف حسنة ومحا عنه ألف سيئة ورفع له ألف درجة، فإذا أتيت الفرات فاغتسل وعلق نعليك وامش حافياً وامش مشي العبد الذليل».(٢)

وعن بشير الدّهان عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «من أتى قبر الحسين بن علي عليه السلام فتوضأ واغتسل في الفرات، لم يرفع قدماً و لم يضع قدماً إلاّ كتب الله له حجّة وعمرة».

وفي بعض الروايات ائت الفرات واغتسل بحيال قبره، وكما يستفاد من بعض الروايات يحسن إذا بلغ الفرات أن يقول مائة مرة «اللهُ أَكْبَرُ»، ومائة مرة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، ويصلي على مُحَمَّدٍ وَآلِهِ مائة مرة.

---

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات.
(٢) ابن قولويه: كامل الزيارات.

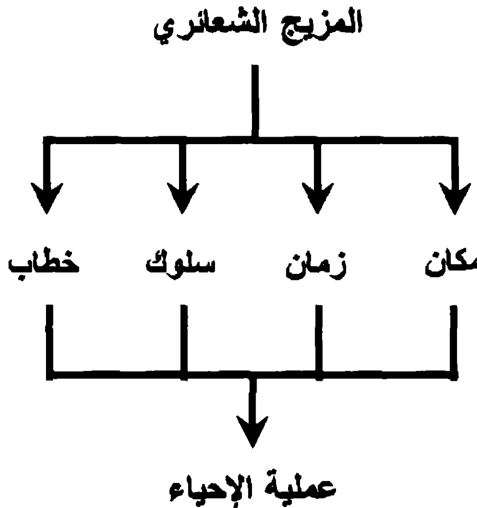
- مراسم ذات صخب: ومراسم الشعائر الحسينية هي من المراسم التي تجرى بغرض لفت نظر العالم إلى مصائب آل رسول الله (ص) والجرائم الشنيعة التي ارتكبها أعدائهم في حقهم، ولذلك فهي تأخذ طابع التجمهر والمسيرات الحاشدة ورفع الهتافات والصياح والبكاء والانفعال والضجيج والعجيج، وقد أشرنا إلى ذلك سالفاً بتفصيل أكثر فلا نعيده هنا.

النموذج الأولي لاستراتيجية الشعائر:

وبالتالي يمكن القول بأن الشعائر الدينية تأخذ النموذج التالي: الشعائر عبارة عن عبادات وسنن وآداب ومراسم، تتشكّل من مزيج مكاني وزماني وسلوكي وخطابي، وقيمتها تبرز حين إحيائها، فعدم إحيائها يلغي مبرر وجودها أصلاً، وهذا الإحياء لا يكون عبثاً، وإنما شرّع لأهداف وغايات استراتيجية سنأتي عليها (انظر شكل ٦ ـ ١).

شكل ٦ ـ ١

شكل يبين المزيج الشعائري الذي يؤسس لعملية الإحياء



نظرية الإحياء: التعظيم

الإحياء يعني إعادة البعث أو بث الروح في شيء، وإحياء الذكرى يعني إعادة بعثها في النفوس من جديد. قال الإمام الصادق (ع): «أحيوا أمرنا، رحم الله من أحيا أمرنا».

والتعظيم يعني التفخيم والتبجيل[1]، قال تعالى: ﴿ومَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإنَّهَا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ﴾ (الحج ٣٢)، وأحد أبرز مصاديق التعظيم هو إحياء الذكرى، قال تعالى لنبي من أنبياءه (ع): ﴿أنْ أخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وذَكِّرْهُم بأيَّامِ اللهِ﴾ (إبراهيم ٥) وأيام الله من مصاديق شعائر الله لأنها تدل على الله سبحانه وتعالى وترشد إلى طريقه.

وقد وردت كثير من الروايات الشريفة عن أهل البيت (ع) تحثّ على إحياء أمرهم، والبكاء على مصائبهم، والحزن لحزنهم، والفرح لفرحهم عليهم الصلاة والسلام، والتي منها ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال: «إن الله تبارك وتعالى اطلّع إلى الأرض فاختارنا، واختار لنا شيعة ينصروننا، ويفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويبذلون أموالهم وأنفسهم فينا، أولئك منّا وإلينا».

وما روي عن معتب مولى أبي عبدالله الإمام الصادق عليه السلام، قال: سمعته يقول لداود بن سرحان: «يا داود، أبلغ مواليَّ عني السلام، وأني أقول: رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكرا أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلاّ باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس من بعدنا مَنْ ذاكر بأمرنا ودعا إلى ذكرنا».

محتوى التعظيم: ذكرى ومراسيم وانفعال

وعلى هذا الأساس فإن نظرية الأحياء منطلقة أساساً من حالة التعظيم الذي دعا إليها القرآن الكريم، وحسب ما يشير إليه مضمون الآيات الكريمة والروايات الشريفة فإن التعظيم يعني إحياء الذكرى بعمل خارجي (الجلوس في مجالس الذكر) وانفعال داخلي (الفرح والحزن) أي إن الأحياء يقوم على ثلاثة أعمدة هي: وجود الذكرى، مقرونة بممارسة عملية، مع إظهار الانفعال، وأن مزيج الممارسة والانفعال هو ما يبرز حالة التعظيم والتبجيل.

والاستخفاف هي الحالة المعاكسة للتعظيم، وهي كل فعل يدل على السخرية أو التحقير أو الاستهزاء أو التنقيص بالمقدسات الدينية سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل[2]، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحالة عند بعض الناس وذمّها وتوعّد عليها، منها قوله تعالى: ﴿ولَئِنْ سَألْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ قُلْ أبِاللهِ وآيَاتِهِ ورَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ. لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ﴾ (التوبة ٦٥ - ٦٦).

(١) نعمة: المنجد
(٢) محمد: المقدسات الدينية.

القاعدة الاستراتيجية لعملية الإحياء: المأسسة

إن ضمان استمرار عملية الإحياء يتطلب صياغتها في مجموعة ممارسات وأفعال وشعائر ومراسم عملية، كما يتطلب تكريس متواصل ومتراكم في حياة الناس بحيث تتكرر عملية الإحياء مرة بعد أخرى لكي تتجدد القيم والمفاهيم المرتبطة بها، بمعنى آخر يجب أن يصبح الإحياء موسمي يقام ويعاد في أوقات معينة من كل سنة أو اكثر أو أقل (حسب طبيعة الذكرى).

هذه الحالة أي الاستمرارية الزمنية واستقرار الفكرة في عقول الناس ونفوسهم ضمن سياقات ثقافية واجتماعية واضحة ومحددة يمكن أن نعبر عنها بالمأسسة، والتي تعني إضفاء الحالة المؤسسية على عملية الإحياء من خلال ركيزتين أساسيتين هما المراسم والمواسم.

وهذه القاعدة الإحيائية تنطبق على جميع أنواع الشعائر في حياة البشر (وليس الشعائر الدينية فقط) فلا يمكن الحفاظ على ذكرى أو شعيرة معينة من دون مراسم تجسدها ومواسم تتجدد فيها.

ويوضح الشكل التالي كيف أن الإحياء يقوم على نظرية التعظيم، وعلى قاعدة المأسسة التي تتشكل من المواسم والمراسم، وأن مضمون النظرية والقاعدة الاستراتيجية يستدعي اختيار أدوات (أي برامج وفعاليات وما شابه) وأدوار (أي أشخاص يقومون بمهمات معينة) ملائمة تفعّل عملية الإحياء وتحقق النتائج المتوخاة منها.

شكل ٦ - ٢

نموذج نظرية الإحياء

نظرية الإحياء

التعظيم

(ذكرى + عمل + انفعال)



قاعدة الإحياء

المأسسة

(مواسم + مراسم)

وبما أن الإحياء يعتمد على تشكّل مواسم زمنية تعبّر عن حلول ذكرى معينة، لذا فمن المهم الإشارة إلى أهم الذكريات التي تدور عليها الشعائر الدينية لدى شيعة آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله.

ما هي الذكريات التي يتمحور حولها الإحياء؟

هناك ثلاث أصناف من الذكريات تهمنا في هذا البحث، والتي تشكل مادة المواسم والمراسم في عملية إحياء الشعائر الدينية لدى شيعة أهل البيت (ع)، وهذه الأصناف هي عبارة عن قضايا وشخصيات وأزمنة تاريخية ودينية أخذت طابعاً قدسياً معيناً، وفيما يلي أهمها:

القضايا الدينية المقدسة:

١. البعثة النبوية الشريفة:

الموافقة للسابع والعشرين من شهر رجب، وهي احدى اعظم المناسبات التي يتم إحيائها ليلاً ونهاراً بأعمال وشعائر عديدة.

وفي رواية للإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام، أنه قال: «إنّ في رجب ليلة هي خير للنّاس ممّا طلعت عليه الشّمس، وهي ليلة السّابع والعشرين منه، نُبِيّ رسول الله (ص) في صبيحتها، وأنّ للعامل فيها من شيعتنا مثل أجر عمل ستّين سنة»[1].

٢. الإسراء والمعراج:

وهو يوافق نفس يوم المبعث الشريف.

٣. عيد الغدير والولاية:

الموافق للثامن عشر من ذي الحجة، وقد مر الكلام عنه في الفصول السابقة.

٤. مباهلة النصارى:

الموافق للرابع والعشرون من ذي الحجة، وفيه باهل رسول الله (ص) نصارى نجران وقد اكتسى بعبائه، وأدخل معه تحت الكساء عليّاً وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم، وقال: «اللهمّ انّه قد كان لكلّ نبيّ من الأنبياء أهل بيت هم أخصّ الخلق إليه،

(١) ابن طاووس: إقبال الأعمال.

اللهمّ وهؤلاءِ أهل بيتي فأذهب عنهم الرّجس وَطهّرهم تطهيراً"، فهبط جبرئيل (ع) بآية التّطهير في شأنهم.

ثمّ خرج النّبيّ (ص) بهم (ع) للمباهلة، فلمّا بصر بهم النّصارى ورأوا منهم الصّدق وشاهدوا أمارات العذاب، لم يجرؤا على المباهلة، فطلبوا المصالحة وقبلوا الجزية عليهم. وهذه الرواية مشهورة ومذكورة في كتب التاريخ والتفسير والحديث لكل الفرق الإسلامية.

وفي هذا اليوم أيضاً تصدّق أمير المؤمنين (ع) بخاتمه على الفقير وهو راكع، فنزلت فيه الآية: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة ٥٥)، والخلاصة إنّ هذا اليوم يوم شريف وقد ورد فيه عدة أعمال ومراسيم وشعائر.

٥. ذكرى عاشوراء:

وهي من أجلى الذكريات في الأجندة الشيعية بل ربما لا يعرف الشيعة لدى غيرهم من دونها، وهي تستمر لما يقارب الشهرين، فبالرغم من أن أساسها هو يوم عاشوراء الموافق للعاشر من محرم وهو اليوم الذي استشهد فيه الإمام الحسين (ع) مع أصحابه وأهل بيته في كربلاء عام ٦١ للهجرة، إلا أن عملية الإحياء تبدأ مقدماتها من اليوم الثامن من ذي الحجة وهو اليوم الذي خرج فيه الإمام (ع) من مكة متوجهاً إلى أرض العراق، ويطلق على هذا اليوم مصطلح (أحْرَمَ الحُجّاج) وهو يصادف يوم التروية الذي أحلّ فيه الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام إحرامه وخرج من مكة المكرمة متوجهاً إلى أرض العراق، وتكون ذروة الإحياء في يوم العاشر من شهر محرم الحرام، ومن ثم تخف قليلاً، وتعود إلى ذروتها مرة أخرى في يوم الأربعين الموافق للعشرين من شهر صفر، أي ذكرى مرور ٤٠ يوماً على شهادته عليه السلام.

الشخصيات الدينية المقدسة:

هناك مجموعة من الشخصيات الدينية والمقدسة التي يهتم اتباع أهل البيت (ع) في إحياء ذكراها، وهم كالتالي:

- أولاً: المعصومون الأربعة عشر عليهم أفضل الصلاة والسلام:

أي رسول الله (ص) وابنته سيدة النساء فاطمة الزهراء (ع)، والأئمة الاثنا عشر (ع)، ويتم إحياء ذكر كل منهم عبر مناسبتين أساسيتين هما ذكرى مولد كل منهم وذكرى وفاته أو استشهاده، وقلما يمر شهر من الشهور لا يكون فيه إحدى هاتين المناسبتين لأحد منهم

(ع)، وبطبيعة الحال يتم إحياء ذكرى المواليد بمراسم يكسوها طابع الفرح والبهجة، وذكرى الوفيات بمراسم الحزن والجزع.

قائمة ذكرى المواليد، التي يتم إحيائها بالاحتفال وإظهار البهجة والفرح والسرور[1]:

١. اليوم السابع عشر من شهر ربيع الأول: مولد نبي الرحمة والهداية وخاتم الرسل محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله.

٢. اليوم الثالث عشر من شهر رجب: مولد أمير المؤمنين وقائد الغرّ المحجّلين أسد الله الغالب الإمام علي بن أبي طالب عليه الصلاة والسلام.

٣. اليوم العشرون من شهر جمادى الثاني: مولد سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلوات الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها.

٤. اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك: مولد الإمام المجتبى سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسن بن علي ابن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام.

٥. اليوم الثالث من شهر شعبان: مولد سيد الشهداء وسيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام.

٦. اليوم الخامس من شهر شعبان: مولد زين العابدين وسيد الساجدين الإمام علي بن الحسين عليه الصلاة والسلام.

٧. اليوم الأول من شهر رجب: مولد باقر علوم الأنبياء الإمام محمد بن علي بن الحسين الملقب بالإمام الباقر صلوات الله عليه.

٨. السابع عشر من شهر ربيع الأول: مولد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام، ويصادف مولده مولد جده رسول الله صلى الله عليه وآله.

٩. السابع من شهر صفر: مولد الإمام موسى بن جعفر الملقب بالإمام الكاظم عليه السلام، وحيث أن مولده عليه السلام يصادف نفس يوم استشهاد عمه الإمام الحسن المجتبى صلوات الله عليه، فإن الذي يغلب على هذا اليوم هو إظهار العزاء.

(١) هناك اختلاف في روايات تحديد بعض الأيام سواء المتعلقة بالولادة أو بالوفاة والشهادة حتى بين أتباع أهل البيت عليهم السلام، وهنا نشير إلى أشهر الروايات والتواريخ التي يتم الأخذ بها، ومن أراد التفصيل فليراجع المصادر التاريخية المتعلقة بسيرة الأئمة عليهم السلام.

١٠. اليوم الحادي عشر من شهر ذي القعدة: مولد الإمام علي بن موسى الملقب بالإمام الرضا صلوات الله عليه.

١١. اليوم العاشر من شهر رجب: مولد الإمام محمد بن علي الملقب بالإمام الجواد عليه الصلاة والسلام.

١٢. اليوم الثاني من شهر رجب: مولد الإمام علي بن محمد الملقب بالإمام الهادي عليه الصلاة والسلام.

١٣. اليوم العاشر من شهر ربيع الثاني: مولد الإمام الحسن بن علي الملقب بالإمام العسكري عليه الصلاة والسلام.

١٤. اليوم الخامس عشر من شهر شعبان: مولد صاحب العصر والزمان الإمام المهدي المنتظر عجل الله تعالى فرجه الشريف.

قائمة ذكرى الوفيات، التي يتم إحيائها بالعزاء وإظهار الحزن والجزع والأسى:

١. اليوم الثامن والعشرون من شهر صفر: وفاة رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله عام ١١هـ.

٢. اليوم الحادي والعشرون من شهر رمضان: استشهاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام في مدينة الكوفة عام ٣٦هـ إثر اغتياله بالسيف أثناء صلاته على يد الخارجي الملعون عبدالرحمن بن ملجم.

٣. منتصف شهر جمادى الأول: وفاة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها صلوات الله في المدينة المنورة بعد ٧٥ يوماً من وفاة والدها رسول الله (ص) على أثر المرض الذي ألم بها بسبب الجراحات التي تعرضت لها حين هجم عليها أعدائها في دارها وضربوها وانغرس مسمار الباب الذي احتمت به في صدرها الشريف.

٤. اليوم السابع من شهر صفر: استشهاد الإمام الحسن المجتبى عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة بالسم عام ٥٠هـ على يد زوجته جعدة بنت الأشعث بطلب من معاوية بن أبي سفيان.

٥. اليوم العاشر من شهر محرم: استشهاد الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام في معركة كربلاء عام ٦١هـ.

٦. اليوم الخامس والعشرون من شهر محرم: استشهاد الإمام السجاد علي بن الحسين عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة بالسم عام ٩٤هـ بتدبير من الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك بن مروان.

٧. اليوم السابع من شهر ذي الحجة: استشهاد الإمام محمد بن علي الباقر عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة بالسم عام ١٢٤هـ بتدبير من الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك بن مروان.

٨. اليوم الخامس والعشرون من شهر شوّال: استشهاد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة عام ١٤٨هـ على يد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور الدوانيقي.

٩. اليوم الخامس والعشرون من شهر رجب: استشهاد الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه الصلاة والسلام في سجن بغداد بالسم عام ١٨٣هـ على يد الخليفة العباسي هارون الملقب بالرشيد.

١٠. اليوم السابع عشر من شهر صفر: استشهاد الإمام علي بن موسى الرضا عليه الصلاة والسلام في مدينة طوس بالسم عام ٢٠٣هـ على يد الخليفة العباسي عبدالله المأمون.

١١. آخر شهر ذي القعدة: استشهاد الإمام محمد بن علي الجواد عليه الصلاة والسلام في مدينة بغداد بالسم عام ٢٢٠هـ بتدبير من الخليفة العباسي المعتصم.

١٢. اليوم الثالث من شهر رجب: استشهاد الإمام علي بن محمد الهادي عليه الصلاة والسلام بمدينة سر من رأى (سامراء) عام ٢٥٤هـ بتدبير من الخليفة العباسي المعتز بالله.

١٣. اليوم الثامن من شهر ربيع الأول: استشهاد الإمام الحسن بن علي العسكري عليه الصلاة والسلام بمدينة سامراء عام ٢٦٠هـ بتدبير من الخليفة العباسي المعتمد.

- ثانياً: أسرة النبي (ص) :

هناك شخصيات مقدسة في التاريخ الإسلامي وهم من أعلام أسرة رسول الله (ص) وكان لبعضهم أدوار خالدة في حياة النبي (ص) ونصرة الدين مثل والدا أمير المؤمنين أبوطالب بن عبدالمطلب والسيدة فاطمة بنت أسد (ع)، وعم النبي حمزة بن عبدالمطلب (ع)، وابن عم النبي جعفر بن أبي طالب (ع)، والسيدة خديجة الكبرى صلوات الله عليها، ووالدا رسول

الله (ص) عبدالله بن عبدالمطلب والسيدة آمنة بنت وهب (ع)، وأجداد رسول الله (ص) كعبدالمطلب وهاشم (ع)، وأبناءه (ص) إبراهيم والقاسم والطاهر (ع).

فعن أمير المؤمنين (ع)، أنه قال: «والذي بعث محمداً بالحق نبياً، إن نور أبي يوم القيامة يطفئ أنوار الخلائق إلا خمسة أنوار: نور محمد (ص) ونوري ونور الحسن والحسين ونور تسعة من ولد الحسين، فإن نوره من نورنا الذي خلقه الله تعالى قبل أن يخلق آدم بألفي عام».[1]

وعنه (ع): «منّا سبعة خلقهم الله عزَّ وجلَّ لم يخلق في الأرض مثلهم، منّا رسول الله (ص) سيّد الأولين والآخرين وخاتم النبيين، ووصيُّه خير الوصيين، وسبطاه خير الأسباط حسناً وحسيناً، وسيّد الشهداء حمزة عمُّه، ومن طار مع الملائكة جعفر، والقائم(ع)».

وعن سلمان المحمدي، قال: قال النبيُّ (ص) لفاطمة (ع): «شهيدنا سيّد الشهداء وهو حمزة بن عبد المطلب وهو عمُّ أبيك»

قالت (ع): يا رسول الله وهو سيّد الشهداء الذين قُتلوا معك؟

قال (ص): «لا، بل سيّد شهداء الأولين والآخرين ما خلا الأنبياء والأوصياء، وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيّار في الجنة مع الملائكة»[2].

- ثالثاً: الشخصيات الكربلائية:

وهم الرجال والنساء والأطفال الذين خرجوا مع الإمام الحسين (ع) إلى العراق وشاركوه في نهضته المقدسة واستشهدوا معه (ع) في كربلاء أو أسروا وعانوا من السبي والعذاب حتى عودتهم إلى المدينة المنورة.

ويتم إحياء ذكراهم عبر تحديد ليالي وأيام خاصة في موسم عاشوراء لسرد سيرتهم الطاهرة، ففي اليوم الأول مثلاً يتحدثون عن هلال محرم والأحزان التي سيجرها حلوله أي ذكرى مصيبة عاشوراء، وفي اليوم الثاني يتم التطرق لخروج الإمام الحسين (ع) من مكة المكرمة وتوجهه إلى أرض العراق وفراقه لابنته فاطمة (ع) التي خلفها وراءه في الحجاز و لم يأخذها (ع) معه بسبب مرضها.

وفي اليوم الثالث يتم التطرق إلى أصحاب الإمام (ع) وأنصاره ومدى وفائهم ونصرتهم له، وفي اليوم الرابع يتم التطرق لسيرة الحر بن يزيد الرياحي الذي كان أميراً في جيش الأمويين في كربلاء لكنه انحاز إلى الإمام (ع) وقاتل في جبهته (ع) حتى استشهد.

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٩،١)- كتاب تاريخ أمير المؤمنين (ع): عن كتاب «الاحتجاج» لأحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي.
(٢) آل درويش: المجالس العاشورائية

وفي اليوم الخامس تسرد سيرة سفير الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة وهو مسلم بن عقيل بن أبي طالب، وكذلك سيرة الشهيد هاني بن عروة الذي أخفى مسلماً في بيته ودافع عنه حتى آخر لحظة في حياته.

واليوم السادس يخصص لسيرة حبيب بن مظاهر الأسدي، والسابع للعباس بن علي (ع) وهو أخ الإمام الحسين (ع)، والثامن للقاسم بن الحسن (ع) وهو ابن أخ الإمام (ع) أي ابن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، والتاسع لابن الإمام الحسين (ع) ويدعى علي ويلقب بالأكبر، والليلة العاشرة لرضيع الإمام (ع) وهو عبدالله الرضيع، أما اليوم العاشر فيسرد فيه مقتل الإمام (ع) وهو اليوم الوحيد الذي يذكر فيه الشيعة رواية مقتل الإمام الحسين (ع) بصورة كاملة ومباشرة، ولا يتطرقون إليها بنفس الطريقة في أي يوم آخر من السنة لشدة وقعها على نفوسهم وتأثيرها عليهم.

أما مساء يوم العاشر أي ليلة الحادي عشر فتخصص لسرد مصيبة نساء الحسين (ع) بعد استشهاده وخصوصاً شقيقته السيدة زينب بنت أمير المؤمنين (ع).

وفي ذكرى الأربعين يتم التطرق إلى سيرة الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه الصلاة والسلام في الأسر، والى شهادة السيدة رقية بنت الحسين (ع) في الشام، وإلى قصة زيارة جابر بن عبدالله الأنصاري في يوم الأربعين فهو أول من أحيا هذه الذكرى امتثالاً لكلام رسول الله (ص)، وكذلك في هذا اليوم يتم التطرق إلى سيرة السيدة فاطمة الكلابية زوجة أمير المؤمنين (ع) وتلقب بأم البنين حيث أن جميع أبنائها الأربعة (العباس وعبدالله وعثمان وجعفر) فدوا الحسين (ع) بأرواحهم (ع) في كربلاء.

وبعد ذلك بأيام قليلة يتم إحياء ذكرى شهادة طفلين شقيقين هما ولدا مسلم بن عقيل واللذان كانا في الأساس ضمن رحل الحسين (ع) في كربلاء إلا انهما هربا من الأسر في الكوفة فتم أسرهما مرة أخرى بعد أسابيع قليلة وذبحهما على شاطئ الفرات في قصة فجيعة أخرى من فجائع واقعة الطف.

الأزمنة الدينية المقدسة:

هناك أزمنة وأوقات تم الحث على إحيائها بالأعمال العبادية والذكر وعينت لها شعائر خاصة بها، ومن أبرزها:

- ليلة ويوم الجمعة: وقد مرت في الفصول السابقة الإشارة إلى فضله وفضل إحيائه فلا نعيده.
- شهور رجب وشعبان ورمضان: وقد تمت الإشارة سالفاً إلى ما لهم من الفضل والتأكيد على إحيائهم فلا نعيده.
- ليالي القدر الثلاث: أي ليلة ١٩ و ٢١ و ٢٣ من شهر رمضان المبارك، ويتم إحيائها في كل موسم رمضاني، والعمل فيها خير من ألف شهر كما ورد في القرآن الكريم.
- عيدي الفطر والأضحى: يستحب إحياء ليلتي ويومي عيد الفطر أي اليوم الأول من شهر شوال، والأضحى أي اليوم العاشر من شهر ذي الحجة، بالأدعية والصلوات والزيارات والسنن المخصصة لهاتين المناسبتين، حيث ورد فيهما العديد من الشعائر الواجبة والمستحبة[١].
- ليلة ويوم عرفة: يستحب إحياء ليلة عرفة ويومها الموافق لليوم التاسع من شهر ذي الحجة وله فضل كبير جداً، وقد ورد فيه أعمال وشعائر كثيرة.

والخلاصة أن المواسم الشعائرية ومبرراتها تعم السنة من بدايتها وحتى نهايتها، سواء من خلال إحياء ذكرى القضايا أو الشخصيات أو الأزمنة المقدسة والمرتبطة بالشئون الدينية والعبادية.

مثال: مراسيم الفرح ومراسيم الجزع

ونورد فيما يلي مثالين على مراسيم الفرح والاحتفال بحدث سعيد وهو ولادة الإمام الحسين صلوات الله عليه، ومراسيم الحزن والجزع بسبب حدث فجيع وهو شهادته عليه الصلاة والسلام.

احتفال أهل السماء بولادة الإمام الحسين صلوات الله عليه:

عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله ـ في حديث طويل ـ قال[٢]: «لما ولد الحسين بن علي صلوات الله عليهما، وكان مولده عشية الخميس ليلة الجمعة أوحى الله

(١) القمي: مفاتيح الجنان.
(٢) الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة.

إلى ملك خازن النيران أن اخمد النيران على أهلها لكرامة مولود ولد لمحمد صلى الله عليه وآله، وأوحى إلى رضوان خازن الجنان أن زخرف الجنان وطيبها لكرامة مولد ولد لمحمد صلى الله عليه وآله في دار الدنيا، وأوحى إلى حور العين أن تزين وتزاورن لكرامة مولود ولد لمحمد صلى الله عليه وآله في دار الدنيا، وأوحى الله إلى الملائكة أن قوموا صفوفاً بالتسبيح والتحميد والتمجيد والتكبير، لكرامة مولود ولد لمحمد صلى الله عليه وأله في دار الدنيا، وأوحى الله عز وجل إلى جبرائيل عليه السلام أن اهبط إلى نبيي محمد في ألف قبيل، في القبيل ألف ألف ملك على خيول بلق مسرجة ملجمة عليها قباب الدر والياقوت، معهم ملائكة يقال لهم : الروحانيون بأيديهم حراب من نور أن هنئوا محمداً بمولوده».

اضطراب أهل السماء والأرض ومخلوقات الكون بشهادة الإمام الحسين صلوات الله عليه:

عن زُرارَةَ قال[1]: قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا زُرارَة إنَّ السّماء بكت على الحسين أربعين صباحاً بالدَّم، وإنَّ الأرض بَكَتْ أربعين صباحاً بالسَّواد، وإنَّ الشَّمس بَكَتْ أربعين صباحاً بالكُسوف والحُمرَة، وإنَّ الجبال تَقَطعتْ وانْتَثَرتْ، وإنَّ البحار تَفجَّرت، وإنَّ الملائكة بَكَت أربعين صباحاً على الحسين عليه السلام، وما اخْتَضبتْ منّا امرأةٌ ولا ادَّهَنتْ ولا اكْتَحَلتْ ولا رَجَّلتْ حتّى أتانا رأس عبيد الله بن زياد، ومازلنا في عَبرة بعده، وكان جدّي إذا ذكره بكى حتّى تملأ عيناه لحيته، وحتّى يبكي لبكائه رحمة له مَن رَآه، وإنَّ الملائكة الَّذين عند قبره ليَبكون، فيبكي لبكائهم كلُّ مَن في الهَواءِ والسَّماء من الملائكة، ولقد خرجتْ نفسه عليه السلام فزَفَرَتْ جهنَّمُ زَفْرَةً كادتِ الأرض تنشقّ لزَفْرَتها».

---

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات.

الفصل السابع
الأدوات الاستراتيجية لإحياء الشعائر

يقوم شيعة آل رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين وبتوجيه من أئمتهم المعصومين بإحياء الشعائر الدينية عن طريق استخدام أدوات ووسائل تشكّل لب الممارسة الإحيائية، وهي عبارة عن ست أمور، قد يكفي أحدها لتفعيل عملية الإحياء، وقد يتطلب الأمر مزج أكثر من وسيلة منها، وهي كالتالي:

أولاً: الزيارات

واحدة من أهم وسائل إحياء الدين في النفوس وأبرز مظاهر شعائره هي زيارة الشخصيات العظيمة التي أسست هذا الدين وحفظته وفدت أرواحها وأموالها ونفوسها من أجل عزته، وقد أشرنا في الباب السابق إلى الشخصيات التي يتم تعظيمها، والتي تتمحور بشكل عام حول رسول الله (ص) وأهل بيته (ع).

وكما أشرنا آنفاً، فان الزيارة قد تكون حضورية أو زمانية أو مطلقة وهي عملية تحيي ذكرى الشخصية المقدسة وآثارها في النفس والذهن من خلال شعائر الزيارة، وتربط الزائر بها وتنبهه إلى أهمية موالاتها والاقتداء بها والسير على هداها، وقد تطرقنا في الفصول السابقة إلى العديد من توصيفات هذه العملية فلا نعيدها هنا.

ثانياً: مجالس الذكر

يقصد بمجالس الذكر اجتماع اكثر من شخص في مكان ما لتذاكر علوم الدين وسيرة رسول الله (ص) وأهل بيته الكرام (ع) وخصالهم وأفكارهم وأعمالهم وإنجازاتهم وأخلاقهم، وغير ذلك من العلوم الصالحة والمنجية في الدنيا والآخرة، والتي يرام منها الهداية والتبصر في أمور الدين والدنيا.

عن معتب مولى أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال[1]: سمعته (ع) يقول لداود بن سرحان: «يا داود، أبلغ مواليَّ عنّي السلام، وأني أقول: رحم الله عبداً اجتمع مع آخر فتذاكرا أمرنا، فإن ثالثهما ملك يستغفر لهما، وما اجتمع اثنان على ذكرنا إلاّ باهى الله تعالى بهما الملائكة، فإذا اجتمعتم فاشتغلوا بالذكر، فإن في اجتماعكم ومذاكرتكم إحياءنا، وخير الناس مِنْ بعدنا مَنْ ذَاكرَ بأمرنا ودعا إلى ذكرنا».

وعنه أيضاً عليه السلام، أنه قال: «تلاقوا وتحادثوا العلم، فإن بالحديث تجلى القلوب الرائنة، وبالحديث إحياءُ أمرنا، فرحم الله من أحيا أمرنا».

وعن الهروي قال: سمعت أبا الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام، يقول: «رحم الله عبداً أحيا أمرنا».

فقلت له: وكيف يحيي أمركم؟

قال (ع): «يتعلَّم علومنا ويعلِّمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتّبعونا».

وعنه أيضاً عليه السلام، أنه قال: «من تذكَّر مصابنا فبكى وأبكى لم تبك عينه يوم تبكي العيون، ومن جلس مجلساً يحيي فيه أمرنا لم يمت قلبه يوم تموت القلوب».

وروي في بحار الأنوار أنه لمّا أخبر النبي (ص) ابنته فاطمة (ع) بقتل ولدها الحسين (ع) وما يجري عليه من المحن بكت فاطمة بكاء شديداً، وقالت: «يا أبتِ، متى يكون ذلك؟»

قال (ص): «في زمان خال منّي ومنك ومن علي».

فاشتدَّ بكاؤها وقالت (ع): «يا أبت، فمن يبكي عليه؟ ومن يلتزم بإقامة العزاء له؟»

فقال النبيّ (ص): «يا فاطمة، إن نساء أمتي يبكون على نساء أهل بيتي، ورجالهم يبكون على رجال أهل بيتي، ويجدِّدون العزاء جيلاً بعد جيل في كل سنة، فإذا كان يوم القيامة تشفعين أنت للنساء وأنا أشفع للرجال، وكل من بكى منهم على مصاب الحسين أخذنا بيده وأدخلناه الجنّة. يا فاطمة، كل عين باكية يوم القيامة إلاّ عين بكت على مصاب الحسين، فإنها ضاحكة مستبشرة بنعيم الجنة».

أصناف المجالس:

هناك أكثر من نمط وصنف من مجالس الذكر، أكثرها شيوعاً بين شيعة أهل البيت (ع) هي التالية:

(١) آل درويش: المجالس العاشورائية، عن بحار الأنوار للمجلسي

١. مجالس السيرة والوعظ والإرشاد:

وهي المجالس التي تقام في المناسبات الدينية والتاريخية أو بصورة دورية في ليلة محددة من ليالي الأسبوع (حتى بدون تزامن مناسبة أو ذكرى ما)، أو لأي سبب آخر يرتأيه المشاركون في المجلس، وغالباً ما يكون مضمون الحديث أو الخطاب أو الحوار الذي يتداول فيه يدور حول سيرة أحد المعصومين (ع) أو أقواله أو إرشاداته وما أشبه.

٢. مجالس العزاء:

وهي ما تدعى بالمجالس الحسينية، وتقام في ذكرى شهادة المعصومين (ع) وخصوصاً شهادة الإمام الحسين (ع)، وتتم الإشارة غالباً إلى جانب من شهادة الإمام الحسين (ع) حتى لو كانت الذكرى التي يتم إحيائها تتعلق بإمام آخر من الأئمة عليهم السلام، وتسمى بمجالس العزاء (أو النياحة) لأنها تختم دائماً بذكر مصيبة استشهاد الشخصية المحيا ذكرها. ويتم استخدام أبيات الشعر في ذلك، مما يهيج مشاعر المستمعين ويؤدي إلى نحيبهم وبكائهم على صاحب الذكرى.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا النوع من المجالس يتم مزجه مع مجالس المناسبات الشخصية كمجالس العزاء الشخصية التي تنعقد لقراءة الفاتحة على روح أحد المتوفين من عائلة ما، حيث يتم في مثل هذه المناسبة إيراد السيرة والأشعار الخاصة بمصيبة الإمام الحسين (ع).

٣. مجالس تلاوة القرآن الكريم:

وهي مجالس مخصصة لتلاوة الذكر الحكيم بصورة جماعية وفي مجالس مفتوحة، وتقام هذه المجالس بصيغتها الجماعية خصوصاً في ليالي شهر رمضان المبارك، حيث يتم تلاوة ختمة كاملة للمصحف الشريف أو اثنتان أو أكثر، بتقسيم تلاوة الأجزاء على ليالي الشهر الثلاثين.

٤. مجالس الدعاء:

وهي مجالس مخصصة لقراءة الأدعية بصورة جماعية، ويتم إقامتها بالخصوص في أوقات مشهورة كليالي الجمعة لقراءة أدعية خاصة مثل دعاء كميل (وهو دعاء النبي الخضر عليه السلام،

علمه أمير المؤمنين عليه السلام لصاحبه كميل بن زياد النخعي، فسمي به)، ويوم الجمعة لقراءة دعاء الندبة، وليالي القدر للإتيان بشعائرها بصورة جماعية وقراءة الأدعية الخاصة بها كدعاء الجوشن الكبير (وهو دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله)، وغيرها من الأوقات.

٥. مجالس الأهازيج والأفراح:

وهي المجالس التي تعقد لإحياء المناسبات البهيجة كذكرى مواليد آل بيت رسول الله (ص)، وغالباً ما تروى فيها الأشعار والأهازيج التي تمجد رسول الله (ص) وأهل بيته (ع)، ويتبادل الشيعة فيها التهاني ويباركون لبعضهم البعض تلك الذكرى السعيدة.

وهنا أيضاً يتم مزج هذا الصنف من المجالس مع مجالس المناسبات الشخصية كمجالس عقد قران زوجين من اتباع أهل البيت (ع) حيث يتم في مثل هذه المناسبة إيراد السيرة والأشعار الخاصة بالزواج الميمون لرسول الله صلى الله عليه وآله وعقد قرانه على السيدة خديجة الكبرى عليها السلام، أو الزواج الميمون لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب وسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليهما الصلاة والسلام.

وتقام هذه المجالس غالباً في الحسينيات وهي أماكن مشيدة مخصصة لعقد المجالس الحسينية (ومن هنا اسمها المنسوب للإمام الحسين عليه السلام، كما تدعى بالمآتم وهو المجلس الذي يعده أهل المصائب لتعديد مصائبهم[1] ويطلق عليها غالباً عنوان المآتم الحسينية) ومجالس الذكر والإرشاد، وكذلك مجالس التلاوة والدعاء.

وقد تقام هذه المجالس في البيوت خصوصاً مجالس التلاوة الرمضانية، وأيضاً بالنسبة للنساء حيث غالباً ما يتلاقين في بيت إحدى العوائل التي تخصص مساحة أو غرفة في بيتها لعقد هذه المجالس (إضافة إلى وجود حسينيات خاصة بالنساء)، أما المساجد فغالباً ما يعقد فيها مجالس الدعاء خصوصاً ليلة الجمعة بعد صلاة العشاء.

ثالثاً: الشعر

الشعر هو أحد المكونات الأساسية في المجالس الحسينية (مجالس العزاء) وكذلك في مجالس الفرح، وقد صدرت على مدى القرون آلاف القصائد الشعرية التي

(١) بادي: المصيبة الراتبة

تصف أحوال آل بيت رسول الله (ص)، وخصوصاً تلك التي تتعرض لسيرة الإمام الحسين (ع) واستشهاده في واقعة الطف بكربلاء عام ٦١ للهجرة على يد يزيد بن معاوية وجيوشه الأموية.

وقد حث أئمتنا عليهم الصلاة والسلام على قرض الشعر ونظمه في السياقات المشار إليها، فعن الإمام الصادق (ع)، قال: «ما من أحد قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى به إلاّ أوجب الله له الجنّة وغفر له»[1].

وعن أبي هارونَ المكفوف، قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فقال لي: «أنشِدْني»، فأنشدتُه.

فقال (ع): «لا، كما تنشدون وكما ترثيه عند قبره».

قال: فأنشدته:

أُمْرُرْ عَلى جَدَثِ الحُسَينِ فَقُل لأعْظُمِهِ الزَّكيَّةِ

قال: فلمّا بكى أمسكت أنا.

فقال (ع): «مُرَّ»، فمررت.

قال: ثمَّ قال (ع): «زِدني زِدني».

قال: فأنشدته:

يا مَريمُ قُومي فانْدُبي مَولاكِ وَعَلى الحُسَين فأسْعِدي بِبُكاكِ

قال: فبكى، وتهايج النّساء، قال فلمّا أن سَكتن، قال لي: «يا أبا هارون، مَن أنشد في الحسين عليه السلام فأبكى عشرة فله الجنّة».

ثمَّ جعل ينقّص واحِداً واحِداً حتّى بلغ الواحد، فقال (ع): «من أنشد في الحسين فأبكى واحِداً فله الجنّة».

ثمّ قال (ع): «مَن ذَكرَه فبكى فله الجنّة»[2].

(١) آل درويش: المجالس العاشورائية

(٢) ابن قولويه: كامل الزيارات.

غاية الشعر:

للشعر أهمية كبيرة، فقديماً قيل (الشعر ديوان العرب) أي انه كان الوسيلة لحفظ تاريخ العرب في أحقاب الزمن الغابرة، وأهميته في موضوعنا تنبع من أنه أحد وسائل حفظ الذاكرة الجماعية للشيعة بصورة تروق للعواطف ومحببة للنفس، وترغّب في الإنصات والاستماع لمحتواه، وتسهّل ثباته وحفظه في الذاكرة.

كما إن الشعر من الناحية العملية يعالج موضوع التوصيف بلسان الحال، فمادته تسمح تجاوزاً توصيف كثير من الأوضاع ليس بصورة حرفية وإنما بلسان حالها، وهذا ما نجده كثيراً في الأشعار الحسينية التي توصّف ما جرى في واقعة الطف بكربلاء، فهي تصور مثلاً حواراً أو عتاباً لم يحصل بين الإمام الحسين وأخته الحوراء زينب عليهما السلام، ولكن الشاعر يريد أن يقول بأن حجم المصاب يسمح لنا بأن نتخيّل هذا النوع من الحوار.

مسارات الشعر:

هناك مسارات أساسية ثلاثة للشعر في هذا السياق، وهي:

- الشعر المؤرخ للسيرة:

كقصيدة (أحرم الحجاج) للشاعر البحراني المرحوم الشيخ حسن الدمستاني، المكونة من حوالي ٢٠٠ بيت، وهي مشهورة جداً ويستعين بها خطباء المنبر الحسيني بصورة كبيرة، وهي تؤرخ لحركة الإمام الحسين (ع) من ليلة خروجه من المدينة المنورة بعد وداع قبر جده رسول الله (ص)، إلى لحظة استشهاده (ع) في كربلاء، حيث تصور أبياتها مختلف الوقائع التي جرت عليه (ع) وعلى أهله وأنصاره الكرام. وهي تبدأ بقوله رحمه الله:

أحرم الحجاج عن لذاتهم بعض الشهور

وأنا المحرم عن لذاته كل الدهور

كيف لا أحرم دأباً ناحراً هدي السرور

وأنا في مشعر الحزن على رزء الحسين

- أشعار المديح:

وهي الأشعار التي يتم الاستعانة بها عادة في مناسبات الفرح والبهجة، وتصف الخصال الحسنة ومحاسن الأشخاص والأفعال، ومن أمثلة ذلك القصائد التي تصف مولد رسول الله (ص) وفضائله، أو تصف زواجه من خديجة الكبرى (ع)، أو تصف بطولات أمير المؤمنين (ع) في الغزوات، أو فداءه لرسول الله (ص) ليلة هجرته بمبيته (ع) في فراش ابن عمه ليعمي خبره على المشركين الذين راموا قتله في تلك الليلة.

ومنها أيضاً أشعار البطولة في سيرة الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء، كقول محمد مهدي الجواهري في قصيدته المشهورة «آمنت بالحسين»:

شممت ثراك فهب النسيم ... نسيم الكرامة من بلقع
وعفّرت خدي بحيث استراح ... خدّ تفرّى ولم يضرع
وحيث سنابك خيل الطغاة ... جالت عليه ولم يخشع

- أشعار الرثاء:

وهي كثيرة جداً، وقد أشار الشيخ عبدالله الحسن في كتابه (ليلة عاشوراء في الحديث والأدب) إلى الأبعاد العديدة التي استخدمها الشعراء فقط في توصيف ليلة واحدة هي ليلة عاشوراء، انطلاقاً من الأحداث التي جرت في تلك الليلة، حيث يخاطب الشاعر ليلة عاشوراء بقوله:

يا ليلة الحزن خطّي للنهى علما ... فقد كتبناك في أعماقنا ألما

ويخاطبها شاعر آخر، بقوله:

بك يا ليلة الوداع الرهيب ... سال دمعي دماً لرزء الغريب

في حين يشير شاعر ثالث هو المرحوم صالح الكواز (ت ١٢٩٠هـ) إلى المآسي الكربلائية، بقوله:

خضبوا وما شابوا وكان خضابهم ... بدم من الأوداج لا الحنّاء
ومغسّلين ولا مياه لهم سوى ... عبرات ثكلى حرّة الأحشاء
أصواتها بحّت وهن نوائح ... يندبن قتلاهن بالإيماء[1]

(١) العاتي: الظاهرة الحسينية في الشعر العربي

رابعاً: الانفعالات

هناك عدة آيات في القرآن الكريم مدحت حالة الانفعال العاطفي مع القيم الصالحة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ (يونس ٥٨).

وفي آية أخرى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة ٨٣).

وفي آية ثالثة: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ (الإسراء ١٠٩).

وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام في هذا الشأن[١] (أي إظهار التفاعل مع القضايا المقدسة)، يقول (ع) لابن شبيب في يوم الحادي من محرم: «يا ابن شبيب، لقد حدَّثني أبي، عن أبيه، عن جدّه أنه لما قُتل جدّي الحسين أمطرت السماء دماً وتراباً أحمر.

يا ابن شبيب، إن بكيت على الحسين حتى تصير دموعك على خدّيك غفر الله لك كلَّ ذنب أذنبته صغيراً كان أو كبيراً، قليلاً كان أو كثيراً».

ثم يقول (ع): «يا ابن شبيب، إن سرَّك أن تكون معنا في الدرجات العلى من الجنان فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا، فلو أنّ رجلا تولّى حجراً لحشره الله معه يوم القيامة».

فنرى هنا أن الإمام (ع) يحض شيعته على إهراق دموعهم على خدودهم، وعلى أن يفرحوا لفرح آل محمد ويحزنوا لحزنهم عليهم السلام، وأن يتأسّوا بالسماء التي أنزلت دماً وتراباً أحمراً بإذن الله حزناً على الحسين عليه السلام.

غاية الانفعالات:

العاطفة هي الحائط الآخر الذي تستند عليه عملية الإحياء فالذكرى الذهنية تتحول إلى حالة جافة من الاستحضار، ولا تتحول إلى ريح داخلية تحرك أشرعة النفوس وتعبئها إلا بالعاطفة، والعاطفة لا تتولد إلا اذا كان هناك تعاطف أي تفاعل.

وبالنسبة لقضايا مثل عاشوراء وعيد الغدير وبعثة رسول الله (ص) وغيرها فالمطلوب هو استشعار القيم التي تضمنتها وإحياء الذكر بالعاطفة والتعاطف، فبالنسبة لعاشوراء مثلاً ليس المطلوب تخطي الحزن وإنما الشعور بالحزن على الإمام الحسين (ع)، فأهمية الإحياء هنا هو

(١) الصدوق: عيون أخبار الرضا (ع)

أن تجعل المؤمنين يشعرون بالوجع الذي استقر في نفس الحسين (ع) وهو يضحي بخيرة أهله وأصحابه من أجل مبادئه، وأن يستشعروا الحيف الذي مورس عليهم، وأن يعايشوا تسليم الإمام (ع) أموره إلى الله وصبره وعنائه وتركيزه على نصرة القيم الإلهية في أصعب الظروف التي يمكن أن تمر على إنسان[1].

كما أن الانفعالات تساعد على الحاق العاطفة الوجدانية بمنطق العقل الذي قد يكون مقتنعاً بما هو حق ومزدرياً لما هو باطل، ولكنه قد يكون في مكان وعواطف صاحبه وتفاعله في مكان آخر، لذا فإن التأكيد على أهمية الانفعال في إحياء الذكرى هو لإيجاد التوافق والترابط بين موقف العقل وموقف النفس الجياشة بالعاطفة، وذلك الاستشعار لا يكون بالعقل وحده، وإنما بالنسبة لغالبية الناس يكون بواسطة إلحاق العاطفة الوجدانية بمنطق العقل.

التعبير عن الانفعالات:

هناك عدة صيغ للتعبير عن الانفعال في حالتي الفرح والحزن، وهي كالتالي:

أولاً: تعبيرات الفرح:

يعبّر الشيعة عن فرحهم بالصور التالية:

- تسمية المناسبات بالأعياد:

فمثلاً وردت روايات عديدة عن ذكرى ما حدث بغدير خم في حجة الوداع، والتشديد على اعتباره عيداً، فقد روي أنّه سُئل الإمام جعفر الصّادق عليه السلام: هل للمسلمين عيد غير يوم الجمعة والأضحى والفطر؟

قال (ع): «نعم، أعظمها حُرمة».

قال الراوي: وأيّ عيد هو؟

قال (ع): «اليوم الذي نصب فيه رسول الله (ص) أمير المؤمنين (ع) وقال: ومن كنت مولاه فعليٌّ مولاه، وهو يوم ثماني عشر من ذي الحجّة».

(1) Religion as a cultural system :Clifford

قال الراوي: وما ينبغي لنا أن نفعل في ذلك اليوم؟

قال (ع): «الصّيام والعبادة والذّكر لمحمّد وآل محمّد (ع) والصّلاة عليهم، وأوصى رسول الله (ص) أمير المؤمنين (ع) أن يتّخذ ذلك اليوم عيداً، وكذلك كانت الأنبياء تفعل كانوا يوصون أوصياءهم بذلك فيتّخذونه عيداً».

- التعبير بصيغ كلامية خاصة:

فمن الأمور التي تعزز عملية التفاعل هو التعبير اللفظي الخاص، وذلك لأن التعابير الخاصة تحوي مضامين توكيدية خاصة، فقد ورد عن أئمة أهل البيت (ع) أن على المؤمنين اذا تلاقوا في يوم الغدير أن يحيي أحدهم الآخر بقوله: «اَلْحَمْدُ للهِ الّذى جَعَلَنا مِنَ الْمُتَمَسِّكينَ بِوِلايَةِ أمير الْمُؤْمِنينَ والأئمة عَلَيْهِمُ السَّلامُ».

وأن يقولوا أيضا: «اَلْحَمْدُ للهِ الَّذى أَكْرَمَنا بِهذَا الْيَوْمِ وَجَعَلَنا مِنَ الْموفينَ بِعَهْدِهِ إِلَيْنا وَميثاقِهِ الّذى واثَقَنا بِهِ مِنْ وِلايَةِ وُلاةِ أَمْرِهِ وَالْقَوّامِ بِقِسْطِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْنا مِنَ الْجاحِدينَ وَالْمُكَذِّبينَ بِيَوْمِ الدِّينَ»[1].

- لبس الجديد والتحلي بمظاهر الفرح:

قال الشيخ عباس القمي رحمه الله في مفاتيح الجنان: واعلم انّه قد ورد في هذا اليوم فضيلة عظيمة لكلّ من أعمال تحسين الثّياب والتزيّن واستعمال الطّيب والسّرور والابتهاج وإفراح شيعة أمير المؤمنين صلوات الله وسلامُهُ عليه والعفو عنهم وقضاء حوائجهم، وصلة الأرحام والتّوسّع على العيال وإطعام المؤمنين وتفطير الصّائمين ومصافحة المؤمنين وزيارتهم والتّبسّم في وجوههم وإرسال الهدايا اليهم، وشكر الله تعالى على نعمته العظمى نعمة الولاية، والإكثار من الصّلاة على محمّد وآل محمّد عليهم السلام، ومن العبادة والطّاعة، ودرهم يعطى فيه المؤمن أخاه يعدل مائة ألف درهم في غيره من الأيام، وإطعام المؤمن فيه كإطعام جميع الأنبياء والصّديقين.

ثانياً: تعبيرات الحزن:

يعبر الشيعة عن حزنهم على ما جرى على آل رسول الله (ص) بالصور التالية:

---

(١) القمي: مفاتيح الجنان

- **إظهار الحزن:**

عن الإمام علي بن موسى الرّضا (ع) قال: كان أبي صلوات الله عليه إذا دخل شهر المحرّم لم ير ضاحكاً، وكانت كآبته تغلب عليه حتّى يمضي منه عشرة أيّام، فإذا كان اليوم العاشر كان ذلك اليوم يوم مصيبته وحُزنه وبكائه، ويقول هذا اليوم الذي قتل فيه الحسين (ع)[1].

- **البكاء والتباكي والصراخ:**

وقد ورد الحث على البكاء في مصائب آل محمد (ع) سيما في مصيبة كربلاء والتباكي لمن لم يقدر على البكاء، وبل ورفع الصوت بالصراخ.

فعن الإمام الصادق (ع)، أنه قال: «إنّ عاشوراء أحرق قلوبنا وأرسل دموعنا، وأرض كربلاء أورثتنا الكرب والبلاء، فعلى مثل الحسين فليبكِ الباكون، فإنّ البكاء عليه يمحو الذنوب أيّها المؤمنون»[2].

وعن الإمام أبي جعفر الباقر (ع)، انه قال: «كان عليّ بن الحسين عليهما السلام يقول: أيّما مؤمنٍ دمعتْ عَيناه لقتل الحسين ابن عليٍّ عليهما السلام دمعةً حتّى تسيل على خدّه، بوّأه الله بها في الجنّة غُرفاً يسكنها أحقاباً، وأيّما مؤمن دَمَعَتْ عيناه حتّى تسيل على خَدّه فينا لأذىً مسّنا مِن عَدوّنا في الدُّنيا بوّأه الله بها في الجنّة مبوّأ صدقٍ، وأيّما مؤمن مَسّه أذىً فينا فَدَمَعَتْ عيناه حتّى تسيل على خَدّه مِن مَضَاضةِ ما أُوذي فينا صرّف الله عن وجهه الأذى وآمنه يوم القيامة مِن سَخطه والنّار»[3].

وفي دعاء الإمام الصادق (ع) لزوار الحسين (ع): «... وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمةً لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا»[4].

وفي دعاء الندبة ورد: «فَعَلَى الأطائبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ مُحَمَّد وعَليٍّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِما وآلِهِما فَلْيَبْكِ الْباكُونَ وإيّاهُمْ فَلْيَنْدُبِ النّادِبُونَ ولِمِثْلِهِمْ فَلْتَذْرِفِ الدُّمُوعُ ولْيَصْرُخِ الصّارِخُونَ ويَضِجَّ الضّاجُّونَ ويَعِجَّ الْعاجُّوَن».

---

(١) القمي: مفاتيح الجنان
(٢) العاملي: المواسم والمراسم
(٣) ابن قولويه: كامل الزيارات
(٤) سند: الشعائر الحسينية، بحار الأنوار للمجلسي (كتاب المزار)

- **إظهار الجزع والصياح:**

وهذا أمر شبيه بما سبقه ويتداخل معه، فعن الإمام الصادق (ع، قال): «إنَّ البكاء والجزع مكروهٌ للعبد في كلِّ ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن عليّ عليهما السلام، فإنّه فيه مأجورٌ»[١].

وعن الإمام الباقر (ع): «أشد الجزع الصراخ بالويل، والعويل، ولطم الوجه والصدر»[٢].

- **التعبير بصيغ كلامية خاصة:**

فكما في الأفراح، هناك في بعض المناسبات المحزنة وخصوصاً يوم عاشوراء تحية خاصة يستحب تداولها بين الشيعة إذا تلاقوا وهي في مضمونها تعزية، وهي كالتالي: "أَعْظَمَ اللهُ أُجُورَنا بِمُصابِنا بِالْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلامُ وَجَعَلْنا وإِيّاكُمْ مِنَ الطّالِبِينَ بِثارِهِ مَعَ وَلِيِّهِ الإِمامِ الْمَهْدِيِّ مِنْ آلِ مُحَمَّد عَلَيْهِمُ السَّلامُ"[٣].

- **لبس الثياب السود ونشر السواد:**

عن الأصبغ بن نباتة أنه قال: دخلت مسجد الكوفة بعد قتل أمير المؤمنين (ع) ورأيت الحسن والحسين (ع) لابسي السواد. وإلى ذلك أشار ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة بشأن لبس الإمام الحسن (ع) ثياب سود بعد شهادة أبيه (ع)، وكذلك إشارة عمر بن الإمام زين العابدين (ع) حول لبس نساء بني هاشم السواد والمسوح لما قتل الإمام الحسين (ع)[٤].

خامساً: المواسم

الأداة الأخرى لإحياء الشعائر هي التكرار، والتكرار يتجسد في صيغة المواسم، والتي فحواها تجديد الشعائر مرة بعد أخرى، وقد تطرقنا لفائدة ذلك حين الكلام عن تشعير الزمان واستراتيجيته.

---

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات
(٢) العاملي: مراسم عاشوراء
(٣) القمي: مفاتيح الجنان
(٤) سند: الشعائر الحسينية

وقد أكّد أهل البيت (ع) على حالة تكرار الشعائر، ففي رواية حنان بن سدير[1]، عن الإمام الباقر (ع)، في حديثه لرجل كوفي سأله: «أتزور قبر الحسين عليه السلام في كلّ جمعة؟»

قال: لا.

قال (ع): «ففي كلّ شهر؟»

قال: لا.

قال (ع): «ففي كلّ سنة؟»

قال: لا.

فقال أبو جعفر عليه السلام: «إنّك لمحرومٌ من الخير».

وعن الإمام الصادق (ع): «حقٌّ على الغَنيّ أن يأتي قبر الحسين عليه السلام في السّنة مَرَّتين، وحَقٌّ على الفقير أن يأتيه في السَّنَة مَرَّة».

وفي رواية مرفوعة إلى عليّ بن ميمون الصّائغ، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: "يا عليُّ بلغني أنَّ قوماً مِن شيعتنا يمرُّ بأحدهم السَّنة والسَّنتان لا يزورون الحسينَ عليه السلام!"

قلت: جُعِلتُ فِداك إنِّي أعرف أُناساً كثيرةً بهذه الصِّفة.

قال (ع): «أما والله لحظّهم أخطأوا، وعن ثَواب اللهِ زاغوا، وعن جِوار محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم تَباعدوا».

وفي رواية أخرى: «لا ينبغي للمسلم أن يتخلّف عن زِيارة قبره أكثر من أربع سنين».

الغاية من المواسم:

من أهم غايات المواسم هو تخليد الذكر، فعملية الإحياء الدوري في كل عام كفيلة بذلك. من جهة أخرى فإن عملية استيعاب وترسيخ المضامين التي تحويها القضايا والأحداث والوقائع المقدسة تحتاج إلى وقت بالنسبة لأكثر الناس لكي يستوعبوها بالتدرج ويربطوها بشئون حياتهم المستجدة يوماً تلو الآخر.

(١) هذا الخبر وما بعده منقول عن كامل الزيارات

سادساً: المراسم

المراسم هي مجمل القواعد والإجراءات المتبعة في إحياء ذكر آل محمد (ع) وتسمى بمراسم الاحتفال أو الفرح (اذا كانت في مناسبة مفرحة) أو مراسم العزاء (اذا بالعكس من ذلك)، وهي عبارة عن مزيج متنوع من الأدوات والمكونات والآليات السالفة، فهناك مراسم الزيارة ومراسم الدعاء وتلاوة القرآن وغير ذلك من الممارسات الإحيائية، وسنوجز لاحقاً أهم المراسم الشائعة لدى شيعة أهل البيت (ع) وطريقة إقامتها.

الغاية من المراسم:

- إحياء الذكر عبر المظاهر التعبيرية: فكما أشرنا سالفاً بأن الذكرى تتخلّد، وآثارها تتولّد إذا ما تم إحيائها بإشراك أكبر قدر ممكن من المشاعر والجوارح، وسيتبين ذلك في عرضنا للشعائر بعد قليل.
- الرد على من يريد أن يطفئ نور الله: فقد تعرض تاريخ أهل البيت عليهم الصلاة والسلام لأكبر عملية تشويه في التاريخ الإسلامي، بل أن كل الكذب الذي ملأ بعض أشهر كتب التاريخ الإسلامي إنما كان لإطفاء سيرة آل بيت رسول الله (ع) ومحو ذكرهم، وهنا نشير كمثال إلى ما فعله أعداء آل بيت رسول الله (ص) بالنسبة ليوم عاشوراء وهو يوم أعظم مصيبة أصابت رسول الله وآله الكرام في تاريخ المسلمين، فقد حولوه إلى يوم عيد وزينة شماتةً برسول الله (ص) وأهل بيته (ع)، كما فعل بنو أُميّة وكل أتباعهم ومن جاء بعدهم، وأوّل مَن فعل ذلك الحجاج بن يوسف الثقفي برضا وبمرأى ومسمع من الخليفة عبدالملك بن مروان، وبمرأى ومسمع من بقايا الصحابة وجميع التابعين، و لم نجد اعتراضاً من أحد منهم، ولا من أي من علماء الأمّة وصلحائها، باستثناء أهل البيت عليهم السّلام.

وقد وضعت في شأن هذا اليوم مرويات عديدة من قبيل توبة الله فيه على آدم (ع)، واستواء سفينة نوح (ع) على الجودي، ونحو ذلك.

قال علاء زكريا القزويني: فزعم بنو أُميّة أنهم اتخذوه عيداً فتزيّنوا فيه وأقاموا الضيافات، والشيعة اتخذوه يوم عزاء ينوحون فيه ويجتنبون الزينة، وأهل السنّة يزعمون أنّ الاكتحال في هذا اليوم مانع من الرمد في تلك السنة ومَن اغتسل فيه لم يمرض ذلك العام ومَن وسّع على عياله وسّع الله عليه سائر سنته.

وقال عن شهر صفر: اليوم الأوّل منه عيد بني أُميّة، أدخلت فيه رأس الحسين رضي الله عنه بدمشق.

وقال البيروني، بعد ذكر ما جرى على الإمام الحسين عليه السّلام يوم عاشوراء: فأمّا بنو أمية فقد لبسوا فيه ما تجدّد وتزيّنوا واكتحلوا وعيّدوا وأقاموا الولائم والضيافات وأطعموا الحلاوات والطيّبات، وجرى الرسم في العامة على ذلك أيّام ملكهم وبقي فيهم بعد زواله عنهم، وأمّا الشيعة فإنهم ينوحون ويبكون أسفاً لقتل سيّد الشهداء فيه.

ويقول المقريزي: اتخذ الملوك من بني أيوب يوم عاشوراء يوم سرور يوسّعون فيه على عيالهم وينبسطون في المطاعم ويتخذون الأواني الجديدة ويكتحلون ويدخلون الحمام جرياً على عادة أهل الشام التي سنّها الحجاج في أيّام عبد الملك بن مروان، ليرغموا به آناف شيعة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذين يتخذون يوم عاشوراء يوم عزاء وحزن على الحسين بن علي لأنه قتل فيه.

إلى غير ذلك مما رواه المؤرخون، بل لقد بلغ بهم الأمر أن رووا في تفسير آية: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ (طه ٥٩)، عن ابن عباس: يوم الزينة يوم عاشوراء.

وعن ابن عمر، عن النبي (ص): مَن صام يوم الزينة أدرك ما فاته من صيام تلك السنة، ومَن تصدّق يومئذ بصدقة أدرك ما فاته من صدقة تلك السنة.

بل زعموا أنّ الاكتحال في هذا اليوم مانع من الرمد في تلك السنة، أمّا ابن الحاج فذكر: أنه يستحب يوم عاشوراء التوسعة فيه على الأهل والأقارب واليتامى والمساكين وزيادة النفقة والصدقة مندوب إليه بحيث لا يجهل ذلك، وبعد أن ذكر أشياء تفعل في هذا اليوم لم تعرف عن السلف، كذبح الدجاج وطبخ الحبوب وزيارة القبور ويدخل النساء الجامع العتيق بمصر وهنّ في حال الزينة الحسنة والتحلّي والتبرّج للرجال وكشف بعض أبدانهن ويقمن فيه من أوّل النهار إلى الزوال، إلى أن قال: ومن البدع التي أحدثها النساء فيه استعمال الحناء على كلّ حال فمَن لم يفعلها منهن فكأنها ما قامت في عاشوراء، ومن البدع أيضاً محرهن فيه الكتان وتسريحه وغزله وتبيضه في ذلك اليوم بعينه، ويشلنه ليخطنّ به الكفن، ويزعمن أنّ منكراً ونكيراً لا يأتيان مَن كفنها مخيط بذلك الغزل، إلى أن قال: وممّا أحدثوه فيه من البدع: البخور، فمَن لم يشتره منهم في ذلك اليوم ويتبخّر به فكأنه ارتكب أمراً عظيماً، وكونه سنّة عندهنّ لا بدّ من فعلها، وادخارهنّ له طول السنة يتبركن به، ويتبخرن إلى أن يأتي مثله يوم عاشوراء الثاني، ويزعمون أنّه إذا بخّر به المسجون خرج من سجنه، وأنه يبرئ من العين

والنظرة والمصاب والموعوك، قال: وقد أدركنا بقايا مما عمله بنو أيوب ، من اتخاذ عاشوراء يوم سرور وتبسّط[1].

هذا، وقد ورد في زيارة عاشوراء المرويّة عن الإمام الباقر عليه السّلام قوله: «اللّهم إنّ هذا يوم تبرّكت به بنو أمية وابنُ آكلة الأكباد».

كما روى الشّيخ الصّدوق، عن جبلة المكيّة، قالت: سمعت ميثماً التّمار قدّس الله روحه يقول: والله لتقتل هذه الأمة ابن نبيّها في المحرّم لعشرة تمضي منه، وليتّخذنّ أعداء الله ذلك اليوم يوم بركة، وانّ ذلك لكائن قد سبق في علم الله تعالى، أعلم ذلك بعهد عهده إليّ مولاي أمير المؤمنين عليه السلام.

إلى أن قالت جبلة: فقلت: يا ميثم وكيف يتّخذ النّاس ذلك اليوم الذي يقتل فيه الحسين عليه السلام يوم بركة؟

فبكى ميثم (رضي الله عنه)، ثمّ قال: سيزعمون لحديث يضعُونه انّه اليوم الّذي تاب الله فيه على آدم وإنما تاب الله على آدم عليه السلام في ذي الحجة، ويزعمون أنّه اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح عليه السلام على الجودي وإنما استوت في العاشر من ذي الحجّة، ويزعمون انّه اليوم الذي فلق الله فيه البحر لموسى عليه السلام وإنما كان ذلك في ربيع الأول[2].

أصناف المراسم:

وفيما يلي نماذج للشعائر والمراسم المتداولة، في أوساط الشيعة الإمامية، وقد يطلق عليها (آداب)، فهناك آداب للدعاء، وآداب للزيارة، وآداب للفرح وأخرى للتعزية، وغيرها كثير:

- مراسم الدعاء:

هناك شعائر ومراسم للدعاء أصبحت عادات منتشرة ، منها الاجتماع في أوقات معينة لقراءة الأدعية المعتبرة بصورة جماعية، كدعاء كميل في ليالي الجمعة، ودعاء الندبة في يوم الجمعة، ودعاء التوسل، وحديث الكساء، وأدعية ليالي القدر في شهر رمضان المبارك، حيث يقوم شخص أو يتناوب أكثر من شخص على قراءة الدعاء المحدد بصوت حزين ويشاركه الحضور في الإنصات والبكاء.

(١) منقول بتصرف عن المواسم والمراسم للعاملي
(٢) القمي: مفاتيح الجنان

وهنا نحن لا نتكلم عن عموم آداب الدعاء وتراث أهل البيت (ع) الهائل في هذا الحقل، فذلك سنذكر طرفاً منه في محله، وإنما نتكلم عن بعض الممارسات التي تحولت إلى شعائر جماعية كالقراءة الحزينة للدعاء والاجتماع لقراءته.

عن الإمام الصادق (ع)، قال: «إن الله تبارك و تعالى أوحى إلى موسى بن عمران (ع) أن إذا وقفت بين يدي فقف موقف الذليل الفقير، وإذا قرأت التوراة فأسمعنيها بصوت حزين، وكان موسى (ع) إذا قرأ كانت قراءته حزنا و كأنما يخاطب إنسانا».

وعن رسول الله (ص)، انه قال في شأن الاجتماع للدعاء: «لا يجتمع أربعون رجلا في أمر واحد إلا استجاب الله تعالى لهم حتى لو دعوا على جبل لأزالوه»[1].

- مراسم الزيارة:

يقوم اتباع أهل البيت (ع) بزيارة قبور ومقامات رسول الله (ص) وأهل بيته الكرام (ع) باستمرار، كل حسب استطاعته، من قريب أو من بعيد، سواء مقاماتهم (ع) في أرض الحجاز أو العراق أو إيران أو بلاد الشام، وهناك عدة شعائر للزيارة، منها السعي لأداء الزيارة قدر الإمكان في الأوقات الأشد استحباباً كزيارة الحسين (ع) في يوم عرفة أو في الأربعين أو النصف من شعبان، وزيارة رسول الله (ص) وأئمة البقيع بالتزامن مع أيام الحج (قبل أو بعد أيام المناسك مباشرة)، أو في الإجازات المهنية السنوية والصيفية.

كما انهم يلتزمون بآداب الزيارة بصورة عامة، كالاغتسال بنية الزيارة، والالتزام بالوقار والسكينة أثناءها، والانشغال بالأمور العبادية في تلك المدة، والمشي على القدمين إلى المقامات قدر الإمكان سيما في زيارة الإمام الحسين (ع)، والاهتمام بالحضور المستمر في مقام الإمام المعصوم (ع)، والإكثار من الدعاء وطلب الحاجات فيه، وإقامة الصلوات المندوبة، وقراءة نصوص الزيارات المطلقة أو المخصوصة بكل إمام (ع)، وما أشبه ذلك.

عن أبي الصّامت، قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام وهو يقول: «مَن أتى قبر الحسين عليه السلام ماشياً كتب الله له بكلِّ خُطْوَة ألفَ حسنة، ومحا عنه ألفَ سيّئة، ورفع له ألف دَرَجة، فإذا أتيت الفُرات فاغتسِل، وعلّق نَعلَيك وامشِ حافياً، وامش مَشي العبدِ الذَّليل،

---

(١) الدعوات للراوندي

فإذا أتيتَ باب الحائر فكبّر أربعاً، ثمَّ أمْشِ قليلاً، ثمّ كبّر أربعاً، ثمّ ائْتِ رَأسه فَقِف عليه فكبّر أربعاً، وصلِّ عنده، واسألِ الله حاجتَك»[1].

– مراسم المهرجانات الدينية:

هناك صنفين أساسين من المهرجانات الدينية، الأول ما يسمه طابع الفرح، والآخر يسمه طابع الحزن، ولكل شعائره.

- مهرجانات الفرح: غالباً ما تكون هذه المناسبات هي ذكرى لمولد أحد أعضاء البيت المحمدي صلوات الله عليهم أجمعين، أو وقائع تتعلق بحياتهم كمبعث رسول الله (ص) ويوم عيد الغدير، وما أشبه.

ويتم إحياء الذكرى بصورة احتفالية في ليلة الذكرى أو في مساء يوم الذكرى (لانشغال الناس غالباً في أعمالهم كل صباح).

ويتم إحياء هذه المناسبات بصورة جماعية في الحسينيات عادةً، ويكون التجمع مليئاً بتعبيرات ومظاهر الفرح، كالزينة في المجلس والطرقات المحيطة به، ويتم إلقاء الخطب التي تمجد سيرة أصحاب المناسبة، وإلقاء الشعر والمديح والإنشاد والأهازيج.

كما يتم توزيع الحلويات والأشربة الحلوة وضيافة الأطعمة في الطرقات التي تشهد الاحتفال، وفي بعض الأعياد يتم توزيع النقود على الصغار، وارتداء الملابس الجديدة، وقراءة زيارات أو أدعية خاصة أو إقامة صلوات خاصة كصلاة العيدين.

- مهرجانات العزاء والمواساة: هناك فكرة مغلوطة وشائعة عند أكثر الكتاب من غير الشيعة الذين يكتبون عن العزاء والشعائر الحسينية لدى الشيعة، وهي أن هذا العزاء وما فيه من شعائر كلطم الصدور وتطبير الرؤوس والضرب على الظهر بالسلاسل وغير ذلك، إنما هو حالة تكفير لديهم يكفرون بها عن تقصيرهم في نصرة الحسين (ع) في كربلاء[2]، أو عن دعوتهم للحسين (ع) إلى الخروج للكوفة ثم خذلانه.

وهذه الآراء ربما تكون مستقاة من الحالة التي عرضت على التوابون وأدت إلى النتيجة التي حصلت في معركة عين الوردة، إلا أن ذلك أبعد ما يكون عن الصواب، فلا الشيعة

---

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات
(٢) انظر مثلاً الشعائر بين الدين والسياسة في الإسلام والمسيحية

خذلوا الحسين في كربلاء[1]، ولا شاركوا في قتله ليكفروا عن ذلك فيما بعد، ولا يمارس الشيعة هذه الشعائر للتكفير عن أي ذنب في هذا الشأن.

فالعزاء والتعزية ظاهرة دينية ـ شعائرية اشتقت من فعل (عزى) أي واسى وشاطر الآخر أحزانه، وقد اتخذت بمرور الزمن معنى وخصوصية وهي إظهار الحزن والأسى في ذكرى عاشوراء[2]، وكذلك في ذكرى استشهاد بقية المعصومين الأربعة عشر من آل بيت محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

وسوف نتطرق فيما يلي إلى مراسم العزاء في شعائر إحياء ذكرى مصيبة الإمام الحسين (ع) في عاشوراء بكربلاء، لأنها تشكّل التعبير الأوسع والأبلغ لشعائر العزاء.

مراسم الشعائر الحسينية:

إن من أبرز الشعائر الحسنية التي تقام في ذكرى عاشوراء هي التالية:

- مظاهر الحزن ولبس السواد وتعزية عاشوراء:

خلال أيام العزاء وإحياء الذكرى يغلب على شيعة أهل البيت (ع) لبس الملابس السوداء وتعليق اللافتات والأقمشة السوداء على الجدران لإضفاء مسحة من الحزن في البيئة التي يتواجدون فيها ويقيمون فيها الشعائر، وعندما يتلاقون غالباً ما يحيي بعضهم بعضا بكلمة (مأجورين) أو (عظم الله أجوركم)، وهي اختزال للمقولة التي اشرنا إليها سالفاً.

ويستعد الرجال والنساء لذلك بشكل خاص قبل أيام شهر محرم التي تصادف ذكرى عاشوراء وذلك بشراء الملابس السوداء لهم ولأطفالهم والتي غالباً ما يكون قد كتب عليها كلمات تعبر عن المناسبة خصوصاً ملابس الأطفال حيث يكتب عليها كلمات مثل «يا حسين» أو «يا شهيد» أو «يا زهراء[3]» أو ما أشبه.

(١) قادة التوابون الذين شاركوا عامة الناس في دعوة الحسين (ع) للقدوم إلى الكوفة كانوا في سجون الأمويين حين وقعت معركة كربلاء

(٢) الحيدري: تراجيديا كربلاء

(٣) المقصود فاطمة الزهراء (ع) أم الحسين (ع)، فكأنهم يستحضرون ذكرها لمواساتها بمصابها بولدها الشهيد (ع).

- مجالس التعزية:

أي الحسينيات التي تغطّى غالباً جدرانها بالقماش الأسود، حيث يجلس الناس مجتمعين للاستماع إلى خطيب يختارونه، فيبدأ خطابه (والذي يفترض أن لا يتجاوز ساعة واحدة) بقراءة آيات من الذكر الحكيم أو حديث شريف وأبيات شعرية رثائية غالباً ما تشير إلى الإمام الحسين (ع) وواقعة كربلاء، وقد تستغرق هذه المقدمة ٥ دقائق أو أقل أو اكثر، ثم ينتقل الخطاب إلى عرض موضوع إرشادي ما، سواء على هيئة سلسلة من الأفكار والآراء أو وقائع سيرة أهل البيت (ع)، ويتدرج الحديث مع نهايته إلى ذكر حدث الوفاة أو الاستشهاد، ويتبعه فوراً بصورة سلسة الانتقال إلى تلاوة أبيات من الشعر بصورة حزينة وبكائية، تهيج المستمعين وتقودهم إلى ذرف الدموع والبكاء على صاحب الذكرى.

وفي أغلب هذه المجالس - حتى التي تختص بإمام آخر غير الإمام الحسين (ع) - يتم ختام المجلس بذكر الإمام الحسين (ع) وبأبيات شعرية عنه، وفي أغلب الأحيان يتم إطعام المستمعين والمشاركين في المجلس بعد ختامه مباشرة، وهذه المجالس قد تعقد صباحاً أو بعد الظهر أو ليلاً.

- مواكب العزاء:

هي عبارة عن مسيرات جماهيرية منظمة[1] (كل موكب رئيسي قد يحوي مجموعة من المواكب الفرعية والتي سنتطرق إليها في الفقرة التالية) قد تستمر لساعة أو اكثر، ويتم خلالها إنشاد القصائد الحزينة التي تتطرق إلى القيم والأفكار والبطولات والمواقف التي تحكي سيرة الإمام والمعصوم الذي تحيا ذكراه، ولكنها قد تتطرق إلى قضايا معاصرة مرتبطة بالوضع السياسي أو الاجتماعي أو الديني للمجتمع، أو تمزج المحتويين معا.

وعادة ما يتم الإنشاد بإيقاع حزين وببحر خاص يختلف من قصيدة لأخرى، وذلك بقيادة أحد المنشدين (المدّاحين) الحسينيين ويطلق عليه لقب (الرادود) لأن الناس يرددون أبيات المقدمة لما ينشده[2] بعد كل مجموعة من أبيات القصيدة.

ويكون للموكب مسار معين يؤدي غالباً إلى المرور على الطرق الداخلية للأحياء الشيعية وذلك لكي لا تواجه بمن يعترض عليها من مخالفي مذهب أهل البيت (ع) ولتخليد صدى

(١) في العراق يطلق لفظ موكب على المنصات التي توضع في الشوارع لتوزيع الماء والطعام على المعزين في مواسم العزاء، بينما في البحرين يطلق عليها لفظ مضيف أي مكان الضيافة.

(٢) الحيدري: تراجيديا كربلاء

الذكرى بين جدران بيوت محبي أهل بيت النبي عليهم صلوات الله أجمعين، ويكون للقصائد التي تنشد في مواكب العزاء دور في صياغة الوعي والهوية الشيعية (وسنتطرق إلى ذلك لاحقاً إن شاء الله).

وأخيراً فإن كل موكب ينطلق من إحدى الحسينيات (وليس لكل حسينية موكب) وهو يمثل القائمون على تلك الحسينية أو الحي الموجودة فيه أو المنطقة والقرية الواقعة فيها.

أصناف مواكب العزاء:

هناك عدة أنماط من مواكب العزاء يتفرد كل منها بصيغة معينة، هذه الصيغة يتم ممارستها إما لوجود روايات عن أئمة أهل البيت (ع) تشير بوضوح إليها، وإما لأن القيام بها يحاكي المعاناة والمشاعر التي تعرض لها الإمام الحسين (ع) وأهل بيته وأصحابه في كربلاء، ومن أبرزها:

١. موكب لطم الصدور:

وفي هذا الموكب يقوم المشاركون السائرون فيه بلطم صدورهم بأكفّهم بإيقاع منتظم، مستعينين بإيقاع الإنشاد الذي يصدر عن الرادود المنشد للقصيدة، وهو من أكثر أنماط المواكب انتشاراً وتتم إقامته نهاراً وليلاً، وقد يؤديه المعزون من الرجال أو بعضهم وهم مكشوفو الصدور (أي يكشفون القمصان عن صدورهم بما يناظر شق الجيب).

وفي حديث خالد بن سدير، عن الإمام الصادق (ع)، قال: «ولقد شققن الجيوب ولطمن الخدود الفاطميات على الحسين بن علي، وعلى مثله تلطم الخدود وتشق الجيوب»[1].

ولعل من مضامين هذا العزاء الأساسية هو إيجاع محبي الحسين (ع) لصدورهم لمواساته في مأساته حينما جالت خيول الأمويين على صدره الشريف وهشّمت أضلاعه بعد استشهاده مباشرة.

٢. موكب ضرب الهامة بالسيف (التطبير):

وفي هذا الموكب يقوم المعزون بلبس ثياب بيضاء ترمز إلى الأكفان، ويحلقون رؤوسهم ويضربون مقدمتها العلوية (الهامة) بالسيوف ضرباً خفيفاً جارحاً للسطح الخارجي لجلدة

(١) العاملي: مراسم عاشوراء، والحلي: الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي

الرأس، فيسيل الدم من الرأس على الوجه والجسد، ويسير المعزون وهم يلوحون بالسيوف عالياً، ويتم ذلك والمطبرون يصرخون بإيقاع عسكري (حيدر حيدر) وعلى ضبط قرع الطبول الكبيرة، ويحملون رايات بيضاء ملطخة بلون الدم أو بالدم النازف منهم.

وهذا الموكب لا يخرج إلا في نهار يوم عاشوراء في أغلب المناطق الشيعية في العالم، وفي البحرين يخرج أيضاً في نهار يوم ذكرى أربعين الإمام الحسين (ع) الموافق العشرون من شهر صفر، وتتخذ في أثناء ذلك إجراءات طبية ووقائية كتعقيم السيوف وحضور فريق من المسعفين للسير مع الموكب لضمان سلامة المعزين[1].

ويقصد بهذا العزاء التعبير عن الاستعداد الافتراضي للمعزين لخوض المعركة مع الإمام الحسين (ع) في كربلاء فيما لو كانوا معه وأنهم على استعداد لمواساته والتضحية بدمائهم من أجله وفضخ رؤوسهم بالسيوف فداءً لرأسه الشريف (ع).

من الجدير الإشارة إلى أن بعض الباحثين نسب أصل بعض الشعائر كإدماء المعزين لأجسادهم بالسلاسل أو بالسيوف إلى عادات المسيحيين في أوروبا الذين كانوا يحيون أيام خاصة لذكرى قتل وصلب المسيح عليه السلام (بحسب اعتقاداتهم) وذلك بإدماء أجسادهم بهذه الطرق، وأنها انتقلت إلى البلاد الإسلامية والمجتمعات الشيعية مع الفتح العثماني لشرق أوروبا أو بسبب الاحتكاك التجاري بين الإقليمين، ويشير إلى ذلك الباحث العريق إسحاق نقاش، حيث يذكر أن في مدينة فلورنسا الإيطالية وحدها حوالي ٢٥ نادي يقومون بهذه الشعائر في القرن الرابع عشر، وأن مدينة البندقية كانت تحوي في القرن السادس عشر ستة أندية لذلك يضم كل منها ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ عضو وكانوا يمارسون هذه الشعائر على مدى اثنا عشر يوماً في السنة[2].

وقد ذكر الدكتور الشيخ محمد جمعة رواية أخرى عن أصل الإدماء في شعائر عاشوراء نسبها إلى عملية تأسيس الجيش الانكشاري التركي وتدريباته في بلاد القوقاز[3].

---

(١) أثار هذا الصنف من المواكب ولا زال يثير الكثير من اللغط حول حليّته أو كراهيته الشرعية، وقد أثبت العديد من العلماء الأفاضل مشروعيته بأدلة فقهية عديدة، وهذا ليس مورد بحثنا هنا، ولكني خلال خمسة عقود من حياتي لم أرى أو اسمع عن شخص واحد توفي في البحرين أو تعرض لمرض معدي أو غير معدي بسبب هذا العزاء. وقد حصلت حادثة في تسعينيات القرن الماضي عند حسينية القصاب في المنامة عاصمة البحرين، توفي على أثرها أحد المعزين بعد ساعات من الموكب، فتم نسبة الوفاة إلى قيام المتوفى بأداء شعيرة التطبير، إلا إن ذلك لم يكن صحيحاً، فقد كنت شخصياً موجوداً بجانب المتوفى أثناء وقوع الحادثة، وكان هناك أكثر من سبب للوفاة و لم يكن التطبير أحدها (وربما نتطرق لتفاصيل القصة يوماً ما).

(٢) Nakash An attempt to trace the origin of the rituals of «Ashura»:

(٣) بادي: المصيبة الراتبة

أما أنا فأرى بأن لهذه الشعيرة تأصيل سابق في التراث الشيعي، حيث يذكر رواة الشيعة ومحدثيهم وكذلك أشار الباحث الدكتور محمد جمعة بأن أول من أدمى رأسه حزناً وجزعاً على مصاب الحسين عليه الصلاة والسلام هو أخته العقيلة السيدة زينب بنت أمير المؤمنين عليهما السلام، فإنها عندما رأت رأس أخيها على رمح طويل مرفوع أمامها في شوارع الكوفة وكانت هي أسيرة على الناقة التي دخلت بها الكوفة من كربلاء نطحت جبينها بمقدم المحمل حتى رأى الناس الدم يخرج من تحت قناعها، وأومأت إلى رأس أخيها (ع) بحرقة وجعلت تقول:

يا هلالاً لما استتم كمالا — غاله خسفه فأبدى غروبا
ما توهمت يا شقيق فؤادي — كان هذا مقدراً مكتوبا[1]

٣. موكب لطم الظهر بالسلاسل:

في هذا الموكب يقوم المعزون بضرب ظهورهم بمجموعة منتظمة من السلاسل يتراوح طولها بين ١٥ ـ ٢٠ بوصة، يطلقون عليها لفظ الزنجيل (وهي كلمة محورة عن كلمة زنجير الفارسية والتي تعني السلسلة)[2]، وكبقية المواكب يتم ذلك بإيقاع منتظم، وعلى قرع طبل كبير يغلب عليه هنا الطابع العسكري، ويتم في بعض البلدان (كالبحرين وايران) بإيقاع بطيء، وفي أخرى (كالعراق) بإيقاع سريع، وقد يخلع بعض المعزين قمصانهم لتعرية ظهورهم، وأحياناً يقوم البعض بالحاق مدى (سكاكين) صغيرة بنهايات السلاسل مما يحدث جروحاً سطحية في جلد الظهر، ويردد المعزين كلمات إيقاعية مثل (حسين حسين حسين) (يا بن الزهراء يا حسين) وما أشبه، وذلك في الفواصل التي يمسك فيها منشد الموكب عن الإنشاد، وهذا الصنف من المواكب تتم إقامته نهاراً وليلاً.

ولعل مضمون هذا الصنف من المواكب هو مواساة السبايا والأسارى من النساء والأطفال الذين تم تلويعهم وجلدهم بالسياط على وجوههم وظهورهم ومتونهم بعد أن استشهد جميع الرجال والشباب والمقاتلين حيث لم يبقى معهن إلا الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه الصلاة والسلام حيث كان شديد العلة لا يقوى على الوقوف والحركة من شدة مرضه (ع).

---

(١) روي ذلك في بحار الأنوار وفي عوالم العلوم

(٢) الحيدري: تراجيديا كربلاء

٤. موكب ذو الجناح:

وهو موكب يخرج غالباً في نهار يوم عاشوراء، ويردد المعزون فيه بانكسار أبيات القصيدة المعروفة (أحرم الحجاج) للمرحوم الشيخ حسن الدمستاني، وفيها أبيات تصف رجوع "ذو الجناح" (وهو فرس الإمام الحسين عليه السلام) من الميدان إلى مخيم النساء وهو منكوس السرج بلا فارس ولا صاحب، مما أعطى إشارة لحرم الإمام (ع) بوقوعه صريعاً في أرض المعركة، ويكثر المعزين من ترديد بيت الشعر (ذا الجناح أقبل من الميدان خالي وا ويلاه.. أي وا حسيناه وا ويلاه.. أي وا حسيناه وا ويلاه).

٥. موكب الأبواق والطبول:

وهو موكب تستخدم فيه الأبواق والطبول لتصدر انغاماً وترانيم توازي إيقاع العزاء والإنشاد الذي يلهج به الرادود، ويلبس فيه المعزون والذين عادة ما يكون عددهم محدود (بخلاف المواكب الأخرى) لباساً موحداً (طقم) ويمشون بانتظام شبه عسكري.

وبعكس بقية المواكب فإن هذا الموكب يحتاج إلى أيام من التدريب على إيقاع القصيدة التي يتم تحديدها مسبقاً، من قبل أناس محترفين غالباً على العزف على الآلات التي يستخدمونها في الموكب (كالطبول العسكرية الكبيرة والصغيرة، والأبواق والصنوج[1] العسكرية)[2].

ولعل مضمون هذا الصنف من المواكب هو استرجاع المناخ العسكري لواقعة كربلاء التي واجه فيها الإمام (ع) وأصحابه، جيوش بني أمية.

٦. موكب ركضة طويريج:

وفي هذا الموكب يقوم المعزون بالهرولة (بعكس المواكب الأخرى التي يمشي فيها المعزون) وهم يلطمون بأيديهم على صدورهم ورؤوسهم بصورة عفوية ويرددون بصوت عال بعض الكلمات بعينها مثل (حسين حسين) أو (شهيد شهيد) أو ما أشبه، وهو لا يخرج إلا في نهار يوم عاشوراء (بالإضافة إلى يوم الأربعين في البحرين)، وغالباً بعد انتهاء المواكب الأخرى لكي لا تعترض مسيرته وإيقاعه السريع.

---

(١) يطلق عليها العوام اسم (طوس)

(٢) هناك من يعترض على شرعية هذه الشعيرة بسبب أدوات العزف المستخدمة فيها، ولكن أورد الفقهاء موارد حليتها وشرعيتها، لعل افضل من استدل على شرعيتها الشيخ عبدالحسين الحلي في كتاب (الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي).

ومضمون هذا العزاء يرمز إلى هرولة النساء وهروبهن من المخيم وهن يصحن بأصواتهن مستغيثات بالحسين (ع) الصريع على رمضاء كربلاء، وذلك حين هجم جيش الأمويين عليهن في الخيام وأحرقها عليهن.

وعزاء طويريج مشهور في العراق وقد انتقل مع بداية القرن الميلادي الجديد إلى البحرين.

٧. المشي على الجمر:

وهنا يقوم المعزون بحرق الخشب ليجتمع الجمر في ساحة ما، ثم يمشون عليه مسرعين حفاة الأقدام، في أجواء التعزية الحزينة، ويرمز إلى مواساة نساء وأطفال الحسين (ع) حين داسوا أثناء فرارهم من الخيام المحترقة، على الجمر المتناثر بين الخيام بسبب الحرائق التي اشتعلت فيها.

وهذه الشعيرة منتشرة بين شيعة الهند وباكستان، وقد انتقلت مؤخراً إلى شعائر عاشوراء في البحرين.

٨. موكب الصم:

وأخيراً تجدر الإشارة إلى أنه في العاشر من محرم عام ١٤٢٦هـ (١٩ فبراير ٢٠٠٥م) تم اطلاق أول موكب عزاء للصم والبكم في البحرين (وقد يكون الأول عالمياً)[1].

المظاهر الفنية والتصويرية المرافقة للمواكب:

هناك مجموعة من المظاهر الشعائرية ترافق مواكب العزاء بصيغة أو بأخرى، وهذه المظاهر تهدف غالباً إلى إعادة تشكيل صورة واقعة الطف في الأذهان وتجسيدها بصيغ تمثيلية مخففة واستحضار بيئتها الملحمية، وأهم تلك المظاهر، هي:

١. قافلة الخيل:

وهي عبارة عن مجموعة مكونة من عدة أفراس تسير خلف بعضها البعض وتفصل بينها امتار قليلة، ويتم وضع أقمشة زاهية أو بيضاء ملطخة بلون أحمر، دون أن يمتطيها أحد (أحياناً يسمح لبعض الآباء بوضع أطفالهم على ظهر الخيل للحظات قصيرة).

(١) للتفصيل راجع: حسن: المواكب الحسينية

هذا الموكب يرمز غالباً إلى خيل معسكر الإمام (ع)، وهو يتقدم أغلب مواكب اللطم والزنجيل وذو الجناح، ولا ترى هذه الشعيرة إلا في موسم عاشوراء فقط.

٢. قافلة النوق:

وهي عبارة عن ناقة أو أكثر تسير في مقدمة موكب اللطم، وتحلّى بقماش أسود، وأحياناً يتم وضع هودج فارغ عليها، وأحياناً يتم إركاب فتيات صغيرات على الهوادج يقرأن القرآن أو خطبة السيدة أم كلثوم أو السيدة زينب عليهما السلام في أهل الكوفة وأهل الشام كصورة رمزية عما أصاب سبايا آل محمد (ص).

وهذا الموكب لا يرى عادة إلا في ذكرى أربعين الإمام الحسين (ع) وأحياناً في اليوم العاشر من محرم، وهو يرمز إلى موكب السبايا الذين تم حملهم على النوق الهزل بلا معين ولا حامي من كربلاء إلى الكوفة ثم إلى الشام.

٣. حمل الرايات:

يقوم المعزون بحمل العديد من الرايات (الأعلام) أمام المواكب أو في داخلها، وقد تتفاوت كثرة وقلة حسب المعزين في كل موكب، وعادة ما يتم التلويح بها بحماسة تتناغم مع إيقاع التعزية.

ويغلب على الرايات مجموعة من الألوان، فهناك مثلاً الرايات السوداء التي ترمز إلى شياع الحزن على الإمام (ع)، وهناك الحمراء التي تذكر بدم الإمام (ع) وبأن ثأره لم يؤخذ بعد، وهناك الخضراء التي ترمز إلى تغيّر لون جثمانه الشريف بعد أن اصطلى في شمس صحراء نينوى لثلاثة أيام، وهناك اللون الأبيض والذي يعتبر شعار العلويين ويستخدم لأنه يمكن تلطيخه بوضوح باللون الأحمر.

وطبعاً هذه الشعيرة ترمز إلى راية الإمام الحسين (ع) في المعركة، وقيل بأنه عليه السلام كانت له رايتان الأولى راية الأصحاب وكانت عند حبيب بن مظاهر الأسدي والثانية راية الهاشميين عند أخيه أبي الفضل العباس (ع).

وقد تحمل رايات بلون واحد خالية من أية علامات، أو رايات تحوي نقوشاً ورموزاً كربلائية كصورة الكف التي ترمز إلى أكف العباس (ع) التي قطعت في المعركة، أو يكتب

عليها اسم الحسين (ع) وأسماء أصحابه، أو يكتب عليها أبرز الشعارات التي وردت في سياق الأحداث، مثل (هيهات منا الذلة)، وما أشبه.

٤ . حمل اللافتات:

وهي عبارة عن لافتات كبيرة تتصدر المسيرة العامة للموكب الرئيسي ويكتب عليها اسم الموكب والمنطقة أو الفئة التي يمثلها، كما قد يتم حمل لافتات أصغر بين المواكب الفرعية أو داخلها، تحوي صوراً أو كلمات أو شعارات تعبر عن ذكرى واقعة الطف.

٥ . التشبيه (المشاهد التمثيلية):

الشبيه أو التشبيهات هي عبارة عن مشاهد يتم استحضارها من واقعة الطف، فمثلاً فيما يتعلق بمواكب الخيل، يتم امتطاء أحدها من قبل شاب يلبس رداء أخضر، وقد ثبت في هامته سيف يخترق جمجمته إلى النصف، وهو يتهادى بصورة مترنحة وكأنه سيهوي من على الفرس الذي يمتطيه، وهذا المشهد يرمز إلى مصرع علي الأكبر (ع) ابن الإمام الحسين (ع) وإلى الطريقة التي استشهد بها، أو إلى القاسم ابن الإمام الحسن (ع) الذي استشهد بطريقة مشابهة، ويستمر هذا المشهد أمام الموكب حتى وصوله إلى نهايته.

وهناك أيضاً مشاهد تمثل السبايا، حيث يتم كما أشرنا نصب هودج على أحدى النياق في موكب النوق، وتحمل عليه امرأة أو صبية محجبة بالكامل، وتقرأ القرآن، أو تقرأ خطبة السيدة زينب (ع) في أهل الشام، أو خطبة السيدة أم كلثوم (ع) في أهل الكوفة، بما يرمز إلى حالة السبايا بعد مصرع الشهداء وسوقهن على النياق الهزل إلى الأسر في الكوفة وفي الشام إلى حين رجوعهن إلى كربلاء والذي صادف اليوم الأربعين لشهادة الإمام الحسين (ع).

كما يتم تكبيل شاب بالسلاسل في عنقه ويديه ورجليه (أو ما يسمى بالقيود الجامعة) ويسير حافياً مع مجموعة من الأطفال التي تتباكى في حالة يرثى لها ومن حولهم جنود الأعداء (وأحياناً يتم وضع هذا الشاب على ناقة)، بحيث يظهر هذا الشاب بمظهر العليل الذي هدّه المرض، ويرمز هذا المشهد إلى حالة الأسر التي وقع فيها الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) بعد المعركة، والذي لم يشترك في القتال لشدة مرضه وتعرضه للإغماء المستمر آنئذ.

وهناك في بعض الدول كتركيا يقوم الشيعة بوضع القيود والسلاسل في أيديهم وأعناقهم وأقدامهم وهم يعزون للإشارة إلى نفس الحالة.

المناخ الفني والثقافي والاجتماعي لموسم الشعائر الحسينية:

هناك مجموعة من الفعاليات والأنشطة التي يتم تنفيذها خلال مواسم الإحياء سيما في موسم عاشوراء، ومن أبرزها:

١. مضايف توزيع الماء وأصناف المشروبات والأطعمة:

واحدة من الشعائر الشائعة في موسم عاشوراء هي توزيع مياه الشرب على عموم الناس المشاركين في الإحياء والعابرين.

والسبب الرئيسي وراء هذه الشعيرة هو ارتباطها الواضح باستشهاد سبط رسول الله (ع) وجميع أصحابه وهم عطاشى قد منعوا ماء الفرات، الذي كانت تلغ فيه كلاب الكوفة، لثلاثة أيام متتالية.

وعادة ما تقترن عملية التوزيع بصيحة (اشرب ماء والعن يزيد)، فعن داودَ الرَّقّيّ، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام إذ استسقى الماءَ، فلمّا شربه رأيته قد استعبر واغْرَورَقتْ عَيناه بدُمُوعه، ثمّ قال لي: «يا داودُ، لعن الله قاتل الحسين، فما مِن عبدٍ شرب الماءَ فذكر الحسين عليه السلام ولعنَ قاتله إلاّ كتب الله له مائة ألف حَسَنة، وحطّ عنه مائةَ ألف سيّئة، ورفع له مائة ألف درجةٍ، وكأنّما أعتق مائة ألف نَسَمةٍ، وحَشَره اللهُ تعالى يوم القيامة ثلج الفُؤاد»[1].

وإلى جانب الماء يتم توزيع المشروبات الحلوة الممزوجة بعصائر الفاكهة، كما يتم توزيع الأطعمة الخفيفة ووجبات الغداء والعشاء على المعزين وعموم الناس وذلك لمساعدتهم على تحمل عناء المشاركة في إحياء الذكرى، كما أن هذه العادة تجاري السنة الواردة عن رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) بتهيئة الطعام لأهل المصيبة لثلاثة أيام وذلك لانشغالهم بالعزاء والبكاء على مصابهم، وحيث أن الشيعة يعتبرون أنفسهم هم أهل المصيبة بما حل على آل بيت رسول الله (ص) وهم في نفس الوقت مشغولون بالحضور إلى مواقع الإحياء والانشغال في عملية الإحياء لساعات طويلة يومياً، جاءت هذه العادة لتناظر سنة الإطعام في المصيبة.

ومضائف الطعام والشراب قد يتكفل بها أصحاب موكب ما أو متطوعون من أهل المنطقة أو أحد التجار أو فاعل خير أو أي شخص يرغب في تقديم هذه الخدمة مجاناً.

(١) ابن قولويه: كامل الزيارات

٢. التمثيل المسرحي:

المسرحية فن أدبي قديم وهو يعالج القضايا المتعلقة بطبيعة الإنسان وما يصدر عنه من أفعال وما يعتمل داخله من مشاعر وأحاسيس وأفكار[١].

وفي هذه الفعالية يتم تمثيل مشاهد رئيسية من سيرة الإمام الحسين عليه السلام، كبدء خروجه من مدينة جده رسول الله (ص) إلى مكة المكرمة، ومنها إلى أرض العراق، أو مشاهد المعارك البطولية بين أصحاب الإمام (ع) وجيش الأمويين، أو مواقف الأصحاب التي تعبر عن الوفاء والفداء لإمامهم (ع)، أو الحوارات التي دارت بين الحسين (ع) وأخته الحوراء زينب بنت أمير المؤمنين (ع)، أو غير ذلك.

وهذه المسرحيات قد تعقد في الساحات الكبيرة المكشوفة للعموم، أو في الصالات المغلقة (للنساء فقط)، وقد تقام في أيام المصيبة خصوصاً نهار عاشوراء.بموازاة مواكب العزاء أو قبلها أو بعدها، أو تقام في أيام لاحقة ولكن خلال فترة الموسم التي تمتد طوال شهري محرم وصفر من كل عام، وغالباً ما يقوم بالتمثيل مجموعة من المتطوعون يرافقهم بعض الممثلين المحترفين الذين يشرفون على تشكيل المشاهد والأداء المسرحي[٢].

وهناك نوع آخر من التمثيل يدمج مع مجالس العزاء، وخصوصاً ليلة الثامن من محرم وهي الليلة التي يتم فيها استعراض سيرة القاسم ابن الإمام الحسن (ع) وهو شاب صغير لم يبلغ الحلم (١٣ سنة حسب بعض الروايات) حيث يتم استحضار صبي بنفس العمر تقريباً يلبس ثياباً خضراء اللون، ويحمل إلى جانبه الورود والبخور وبعض الزينة، حيث يشار إليه (ع) بالعريس في قصة مشهورة يذكرها الخطباء في شأن القاسم (ع).

ويتكرر استعراض مشابه ليلة العاشر من محرم حيث يجلب إلى مجلس العزاء طفل رضيع ملفوف في قماش أبيض ملطخ بلون أحمر، وعادة ما يكون عمره أقل من عام ويتم إيقاظه من غفوته لكي يبكي قليلاً فيضفي جواً من الكآبة والحزن على المجلس، وهو يرمز إلى عبدالله رضيع الإمام الحسين (ع) والذي كان عمره ستة أشهر حين قتل، وقد رماه أحد قادة جيش الأمويين بسهم يوم عاشوراء فأصابه في نحره وذبحه على الفور وهو بين ذراعي أبيه (ع) الذي كان حمله معه إلى ارض المعركة ليطلب له الماء بعد أن أمضّه العطش.

(١) العاتي: الظاهرة الحسينية

(٢) راجع على سبيل المثال رمزية الألوان، وشيعة العراق وغيرها من المصادر

وقد روي أن الإمام الصادق عليه السلام كان جالساً يستمع لمرثيّة شاعر في مصاب الإمام الحسين عليه السلام وكانت النسوة خلف ستار يستمعن أيضاً، فجيء بطفل من وراء الستار فوضع في حجر الإمام عليه السلام فلما رآه الإمام (ع) اشتد بكاؤه[1].

٣. اللوحات الفنية:

هذه الفعالية عبارة عن عرض مجموعة من اللوحات المرسومة التي تصوّر ما وقع في كربلاء، وقد توضع على يافطات يتم حملها في مواكب العزاء (كما كان يحصل في البحرين سابقاً)، أو يتم تخصيص ساحة أو صالة مفتوحة تحت عنوان المرسم الحسيني (كما يحصل في البحرين حالياً).

وغاية هذه الرسومات هو خلق مشهدية كربلائية تساعد على نقل الخيال الإنساني إلى أجواء معركة كربلاء.

٤. نحت وتشييد المجسمات:

وهو نشاط شبيه في المضامين بنشاط الرسم، وما يتم تجسيمه هنا هو بعض اللقطات العاشورائية كالتفاف النسوة حول فرس الحسين (ع) حين رجع إلى المخيمات بسرجه الخالي.

كما يتم تشييد مجسمات صغيرة على جانب الطرقات تصوّر مشاهد ومقامات الأئمة (ع) سيما المقامات الكربلائية، ويتم أحياناً صنع مجسمات صغير قابلة للحمل والنقل، يتم حملها على أكتاف المشاركين السائرين في مواكب العزاء[2].

٥. توزيع المطبوعات:

من الفعاليات المستجدة في السنوات الأخيرة، نصب خيام صغيرة في مواقع محددة في مناطق الإحياء لتوزيع المطبوعات والنشرات الثقافية والإعلامية باللغات المحلية والعالمية للتعريف بسيرة وقضية الإمام الحسين (ع)، وغالباً ما تكون هذه المطبوعات مجانية أو تباع بمبالغ رمزية.

والذي يشرف على هذا النوع من الأنشطة أو يتبنّاها هم الجمعيات الثقافية والدينية، أو فاعلوا الخير أو بعض التجار والوجهاء أو رجال الدين أو غيرهم ممن يميل أساساً إلى ممارسة هذا النشاط.

(١) الشيرازي: إحياء عاشوراء
(٢) الفردان: رمزية الألوان

الفصل الثامن
الأدوار الاستراتيجية في إحياء الشعائر

إلى جانب الأدوات الاستراتيجية، هناك أشخاصاً قاموا ويقومون بأدوار استراتيجية في عملية الإحياء، لم تكن لتكتمل لولا الخطوات والأعمال التي قاموا بها في هذا السياق، وهؤلاء هم:

أولاً: المؤرخون وأصحاب السير

وهم الكتاب الذين دونوا وأرخوا للأحداث والشخصيات التي تشكل محور عملية الإحياء، كالذين أرخوا لسيرة رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) بصورة عامة فذكروا الوقائع المهمة في حياتهم (كسيرة ولاداتهم ووفياتهم وكحادثة الإسراء مثلاً بالنسبة لرسول الله (ص)) أو الذين أرخوا لوقائع بذاتها كبيعة الغدير أو واقعة الطف أو غير ذلك.

يذكر ناشر كتاب (الملهوف على قتلى الطفوف) لمؤلفه السيد ابن طاووس، في المقدمة[1] عمن كتب وأرخ لمقتل الإمام الحسين (ع) إلى زمن السيد ابن طاووس، حيث يضع في مقدمتهم الأصبغ بن نباتة، وهو من صفوة أصحاب الإمام علي (ع) وقد عمّر بعده طويلاً، ومن بعده أبو مخنف لوط بن يحي الأزدي وكان أبوه من أصحاب أمير المؤمنين (ع)، ثم أبو أحمد عبدالعزيز بن يحيى الجلودي من أصحاب الإمام الباقر (ع)، وبعده جابر بن يزيد الجعفي وهو من أصحاب الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، وغيرهم عشرات (حوالي ٣٣ كاتباً) ممن أرخوا للمقتل، إلى زمن ابن طاووس الذي توفي سنة ٦٦٤هـ حيث له كتابان حول المقتل، الأول هو المشار إليه أعلاه، والثاني هو «المصرع الشين في قتل الحسين (ع)».

(١) ابن طاووس: الملهوف على قتلى الطفوف

وما ذكرناه في موضوع مقتل الحسين (ع)، يمكن القول بما يماثله بالنسبة لبقية المواضيع كتاريخ رسول الله (ص)، وتاريخ أمير المؤمنين والأئمة من بعده صلوات الله عليهم أجمعين، وتاريخ الوقائع المهمة كغيبة الإمام المهدي، وغيرها.

ثانياً: مدونو متون الأعمال والسنن الشعائرية

وما يقال عن مدونو السير والتاريخ يقال أيضاً عن مدونو الأعمال والسنن الشعائرية، فمن اهتموا بنقل السنن والشعائر كثيرون، وقد وجدت الشعائر في نوعين من الكتب، الأولى هي الكتب التي تتكلم في أمور الدين من فقه وعبادات وآداب، فتجد سنن الشعائر متناثرة فيها حسب المواضيع والعناوين التي تلحق بها، فتجد آداب الصلاة في كتاب فقه الصلاة، وشعائر الحج في كتاب الحج، وهكذا.

والنوع الثاني هو الكتب التي كتبت أساساً لتدوين الشعائر وآدابها وسننها، ككتاب (كامل الزيارات) لابي القاسم جعفر بن محمد ابن قولويه القمي المتوفي سنة ٣٦٨هـ، وهو كتاب مختص في بيان فضل وآداب وكيفية زيارة رسول الله (ص) والأئمة من ذريته عليهم الصلاة والسلام.

ويذكر السيد جواد الأصفهاني في تحقيقه على كتاب (إقبال الأعمال) لمؤلفه السيد رضي الدين علي بن موسى الملقب بابن طاووس، بأن السيد ابن طاووس المتوفي كما ذكرنا في القرن السابع الهجري كان لديه في مكتبته من مصادر الدعاء أكثر من سبعين مجلداً، وقد ألف اعتماداً عليها ما لا يقل عن عشرة كتب (بخلاف مؤلفاته الأخرى)، فكتب كتاباً اسمه (فلاح السائل) وهو عن الأعمال والسنن المستحبة في كل يوم وليلة، وكتاب (زهرة الربيع في أدعية الأسابيع)، وكتاب (جمال الأسبوع) حول مستحبات وأعمال أيام الأسبوع، وكتاب (الدروع الواقية) وهو في أعمال كل شهر، وكتاب (المضمار) وهو في سنن الصوم، وكتاب (السالك المحتاج إلى معرفة مناسك الحاج)، وكتاب (إقبال الأعمال) في أعمال شهور السنة، وكتاب (السعادات بالعبادات) للأعمال غير المؤقتة بوقت معين، و كتاب (مهج الدعوات) وهو في الأدعية أيضاً، وكتاب (المجتنى من الدعاء المجتبى).

وهناك متون عديدة ومشهورة ككتاب (مصباح المتهجد) لشيخ الطائفة محمد بن حسن الطوسي قدس سره، وكتاب (الدعوات) للشيخ سعيد قطب الدين الراوندي، و(البلد الأمين) لإبراهيم العاملي الكفعمي المتوفى سنة ٩٠٥هـ وغيرها، بالإضافة إلى المتون حديثة العهد واشهرها كتاب (مفاتيح الجنان) للمحقق الشيخ عباس القمي رحمه الله، وهو من محققي القرن الهجري الرابع عشر.

وكما هو معلوم فقد كان لهذه الجهود العظيمة وأمثالها شأناً كبيراً في حفظ سنن وشعائر الدين والشريعة على مر الدهور ومنعها من الاندثار أو الضياع أو التحريف، كما كان لها شأناً في إخراجها إلى الناس بصورة ممنهجة وسهلة وميسرة.

ثالثاً: الشعراء

وقد أسلفنا الحديث عن الشعر وأهميته في الشعائر، وتشجيع أئمة أهل البيت (ع) على قرضه لخدمة الدين والشريعة وشعائرها، وقد استجاب اتباع أهل البيت (ع) وشيعتهم إلى توصيات أئمتهم (ع) إلى درجة أن ليس الشعراء هم فقط من اهتموا بهذا الموضوع، وإنما كبار فقهاء المذهب أيضاً.

ويشير إلى ذلك العلامة عبدالحسين الأميني في الجزء الثاني من موسوعة الغدير، حيث يقول: (اقتفى أثر الأئمة الطاهرين فقهاء الأمة وزعماء المذهب، وقاموا لخدمة الدين الحنيف بحفظ هذه الناحية من الشعر كلاءة لناموس المذهب، وحرصا لبقاء مآثر آل الله، وتخليدا لذكرهم في الملأ، وكانوا يتبعون منهاج أئمتهم في الاحتفاء بشاعرهم وتقديره، والإثابة على علمه والشكر له بكل قول وكرامة، وكانوا يحتفظون بهذه المغازي بالتأليف في الشعر وفنونه، ويعدونه من واجبهم كما كانوا يؤلفون في الفقه وساير العلوم الدينية، مهما كان كل منهم للغايات حفيا.

هذا شيخنا الأكبر الكليني الذي قضى من عمره عشرين سنة في تأليف الكافي أحد الكتب الأربعة مراجع الإمامية، له كتاب (ما قيل من الشعر في أهل البيت)، والعياشي الذي ألف كتبا كثيرة في الفقه الإمامي لا يستهان بعدتها، له كتاب (معاريض الشعر)، وشيخنا الأعظم الصدوق الذي بذل النفس والنفيس دون التأليف والنشر في الفقه والحديث، له كتاب (الشعر)، وشيخ الشيعة بالبصرة الجلودي ذلك الشخصية البارزة في العلم وفنونه، له كتاب (ما قيل في علي عليه السلام من الشعر)، وشيخ الإمامية بالجزيرة أبو الحسن الشمشاطي مؤلف (مختصر فقه أهل البيت)، له كتب قيمة في فنون الشعر، ومعلم الأمة شيخنا المفيد الذي لا تخفى على أي أحد أشواطه البعيدة في خدمة الدين وإحياء الأمة وإصلاح الفاسد، له كتاب (مسائل النظم)، وسيد الطائفة المرتضى علم الهدى، له ديوان وتآليف في فنون الشعر، إلى زرافات آخرين من حملة الفقه وأعضاد العلم الإلهي من الطبقة العليا)[1].

---

(١) النجفي: موسوعة الغدير

والشعراء الذين استخدموا شعرهم في إحياء ذكر أهل البيت (ع) وما يتعلق بهم من أحداث كواقعة الغدير وكربلاء وسير الأئمة ومناقبهم ومكارمهم (ع)، كثيرون ومشهورون، كالشاعر أبو المستهل الكميت المتوفي سنة ١٢٦هـ، والذي يقول في قصيدته:

ويوم الدوح دوح غدير خم أبان له الولاية لو أطيعا
ولكن الرجال تبايعوها فلم أر مثلها خطراً مبيعا

والسيد الحميري المتوفي سنة ١٧٣هـ والذي يقول:

من الذي أحمد في بينهم يوم غدير الخم ناداه؟
أقامه من بين أصحابه وهم حواليه فسماه

والشاعر العبدي الكوفي الذي يقول:

بلغ سلامي قبرا بالغري حوى أوفى البرية من عجم ومن عرب
واجعل شعارك الله الخشوع به وناد خير وصي صنو خير نبي

والشاعر دعبل الخزاعي الذي استشهد عام ٢٤٦هـ، حيث يقول:

فكيف ومن أنى بطالب زلفة إلى الله بعد الصوم والصلوات؟
سوى حب أبناء النبي ورهطه وبغض بني الزرقاء والعبلات
وهند وما أدت سمية وابنها أولوا الكفر في الإسلام والفجرات
هم نقضوا عهد الكتاب وفرضه ومحكمه بالزور والشبهات

وغيرهم من الشعراء، الذين حفظوا قضايا أهل البيت (ع) في أشعارهم ودواوينهم وجعلوها على مر العصور مادة سهلة للتذكر والنقل والحفظ والاستدلال والاستعمال.

رابعاً: الخطباء

وهم العلماء ورواة الأحاديث والسير والمعارف الدينية، الذين يرتقون المنابر في المناسبات والمواسم وغيرها ليذكروا الناس بمناقب أهل البيت عليهم السلام ومناقبهم وفضائلهم وتاريخهم ويفسروا ذلك ويشرحوه ويحللوه ويربطوه بواقع الناس وحياتهم وأفكارهم وسلوكهم.

والخطباء أصناف، فهناك ما يدعى بالخطيب الحسيني، وهو الذي يتطرق لسيرة الإمام الحسين (ع) في المواسم العاشورائية، والذي حين يتطرق لسير أئمة أهل البيت (ع) لابد وأن يعرج في النهاية إلى ذكر الإمام الحسين (ع) بطريقة المناحة لإبكاء المستمعين على الإمام (ع).

وهناك الخطيب الجماهيري الذي غالباً ما يتطرق لمواضيع دينية لها صلة بحياة الناس وسلوكياتهم وشئونهم العامة والخاصة، ولكن بمنهجية الوعظ والنصح والإرشاد الديني البحت، وحتى لو تطرق لسيرة أهل البيت (ع) فليس بطريقة النياحة والإبكاء التي يتوسلها الخطيب الحسيني.

وهناك الخطباء المتكلمون في وسائل الإعلام الحديثة كالإذاعة والتلفزيون، وهؤلاء قد يأخذون دور المتحدث الخطيب، أو دور المجيب لأسئلة من يستضيفه على الهواء، مع الإشارة إلى أن جميع أصناف الخطباء حالياً يتم بث خطاباتهم على شاشات التلفزيونات وأثير الإذاعات.

وللخطباء دور مهم في الشعائر، بل إن الشعائر بدونهم تكون ناقصة، كما إن أثرهم كبير في المجتمع الشيعي، فاذا ارتقوا ارتقى معهم، واذا تراجعوا ظهر أثر ذلك على مستمعيهم وجمهورهم.

وقد اشرنا أعلاه إلى دور مجالس الخطباء وأهميتها، فلا نزيد هنا اكثر من ذلك.

خامساً: المنشدون

وهم الأشخاص الذين يقومون بإنشاد الشعار والقصائد وترجيعها ومد الصوت ورفعه وترقيقه في إنشادهم لمدائح أو مراثي أهل البيت (ع)، وقد اشرنا اليهم بلفظ «الروادید» حين تطرقنا أعلاه إلى مواكب العزاء.

وفي خبر أبي هارون المكفوف[1]، قال: قال لي أبو عبد الله (ع): «أنشدني في الحسين (ع)»، فأنشدته.

قال (ع): «أنشدني كما تنشدون»، يعني بالرقة.

فأنشدته:

أمرر على جدث الحسين　　　وقل لأعظمه الزكية

(١) الحلي: الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي

وخبره الآخر: قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال: «أنشدني»، فأنشدته.

فقال (ع): «لا، كما تنشدون، وكما ترثيه عند قبره»، فأنشدته.

وللمنشدون دور رئيسي خصوصاً في الشعائر الحسينية، حيث تكاد لا تكتمل مراسم الشعائر الحسينية إلا بوجودهم ومشاركتهم. والمنشدون موجودون في كل زمان ومكان ومن أشهرهم في الحقب الأخيرة المنشد المرحوم حمزة الصغير، والمرحوم ياسين الرميثي الذي اشتهر بقصيته ذائعة الصيت "يا حسين بضمايرنا"، والمنشد الرادود باسم الكربلائي، وغيرهم.

سادساً: المنظمون

وهم الأشخاص الذين يشاركون في تنظيم وإطلاق وتنفيذ الشعائر الدينية الجماعية بأنواعها المتعددة، وينقسمون إلى عدة أصناف بحسب الوظائف التي يقومون بها، كالتالي:

- القيمون على الحسينيات:

وهم الأشخاص أو العائلات الذين يقومون بأمر الحسينية وشئون إدارتها، فقد يتكفلون مثلاً بميزانيتها السنوية أو على الأقل في المناسبات الرئيسية، فالميزانية تغطي تكاليف الخطيب الحسيني ومصاريف الضيافة والخدمات التي تقدم بعد الاحتفالات أو مجالس العزاء، كما إنها تغطي تكاليف الصيانة لبناء وتأثيث الحسينية.

والقيمون على الحسينية عادةً ما يكونون المسئولين أيضاً عن تنظيم برنامج الاحتفالات أو مجالس التعزية، والتنسيق مع بقية الحسينيات إذا تطلب الأمر حول برنامج مواكب العزاء وبرنامج الخطابة الصباحية أو المسائية أو الليلية، كما أنهم هم المسئولون بالدرجة الأولى عن تحديد الخطيب الذي يتم اختياره لإحياء الموسم الشعائري، وعن استضافته، وإدارة شئونه خلال فترة إقامته فيما لو كان مدعواً من خارج البلاد.

- القيمون على المواكب والاحتفالات:

وهؤلاء قد يكونون هم أنفسهم القيمون على الحسينية، وقد يكونون غيرهم حيث يفوض القيمون على الحسينية هذا الدور لغيرهم من الناشطين في هذا الحقل. وهؤلاء عادةً ما يكونون مسئولين عن إدارة الحفل الإنشادي، أو إدارة مسيرة موكب العزاء (بحسب المناسبة)، ويكونون مسئولين عن التنسيق مع منشدي القصائد والرواديد،

كما يكونون مسئولين عن المسائل الفنية كالمعدات (مكبرات الصوت)، وتنظيم مشاركات قوافل الخيل والرايات واللافتات والشبيهات وغيرها.

- هيئة المواكب الحسينية:

وهي هيئة قد تتألف بالتنسيق بين ممثلين عن الحسينيات ووجهاء الشيعة، والجهات الرسمية المسئولة عن الأمن والنظام كوزارة الداخلية، وإدارة الأوقاف المسئولة عن قسم من الحسينيات. وهؤلاء يتابعون التنسيق مع الجهات الرسمية المسئولة عن الأمن العام وحركة المرور في الشوارع، والتنسيق بين الحسينيات حول أوقات خروج مواكب العزاء وتاليها، والتأكيد على الضوابط المطلوبة في عملية الإحياء والأنشطة الحسينية عموماً، والتصدي لعلاج المشاكل التي قد تبرز بين حين وآخر وتتصل بعملية الإحياء، سواء بين الأهالي أنفسهم أو بين الأهالي والجهات الرسمية.

- القيمون على مواكب التشبيه والتمثيل:

وهذا الصنف من المنظمين يكون عادةً مسئولاً عن إعداد هذه المواكب من زوايا عديدة كالتنسيق مع كتاب المادة المسرحية، وفريق إعداد المكان الذي سيتم فيه تنفيذ الأداء لاستقبال الجمهور، والتنسيق مع الفريق الفني وتدريب الممثلين، والترويج للمشاركة الجماهيرية، وتصوير الحدث وبثه على قنوات البث الإلكترونية والفضائية، وما أشبه.

- القيمون على المضايف:

وهم المسئولون عن نصب المضيف، وأحياناً عن تدبير ميزانية الأطعمة التي سيتم توزيعها على جمهور المشاركين، وإعداد الطعام وأواني الطبخ والتوزيع، وتوزيع الطعام بأنفسهم أو بالتنسيق مع فريق عمل متفرغ لذلك.

-القيمون على مراكز توزيع المطبوعات الثقافية:

وهؤلاء مسئولون عن نصب الخيمة أو إعداد موقع التوزيع بصورة عامة، وإعداد مواد التوزيع والعرض، واحياناً يكونون مسئولون عن جمع ميزانية المشروع، والتنسيق مع معدي

النشرات وكتابها ومخرجيها والجهات التي تقوم بطباعتها، كما غالباً ما يقومون بتوزيع المطبوعات بأنفسهم أو بالتعاون مع فريق توزيع متفرغ لذلك.

سابعاً: المانحون

وهم الذين يقومون بالتبرع وتقديم المنح المالية للجهات التي تحيي الشعائر الدينية، وهم أصناف، فهناك الداعمون الأساسيون أي الذين يقدمون الدعم المالي بصورة أساسية ومتواصلة للحسينية أو لموكب العزاء أو ما أشبه، وقد يكون هؤلاء من القيمون على الحسينية وقد لا يكونون كذلك.

وهناك المانحون الموسميون الذين يتبرعون بالمنح المالية في مواسم معينة أو لشعائر مواسم معينة كشعائر موسم عاشوراء.

وهناك المانحون العرضيون الذين قد يتبرعون في إحدى المرات لسبب أو لآخر، كمصادفة توافر المال لديهم أو بسبب نذر أو حماس عارض لشعيرة معينة أو لاحتفال ما.

وأخيراً هناك جمهور المتبرعين، أي عموم الناس الذين يلقون النقود في صناديق التبرعات التي تنتشر أحياناً في الحسينيات أو المضائف أو مسار مواكب العزاء أو ما أشبه، وعليه يمكن اعتبار هذه من التبرعات الموسمية في أغلب الأحيان.

وفي العموم فإن مراسم الإحياء تعتمد غالباً على الداعمين الأساسيين أو الموسميين، في حين تكون المنح العارضة والتبرعات الجماهيرية رافدة لذلك الدعم.

ثامناً: الجمهور

وأخيراً هناك الجمهور المستهدف من قبل القائمين بالشعائر، وهذا الجمهور أساسي جداً فبدون حضوره تفقد الشعائر الجماعية تأثيرها المجتمعي.

وهذا الجمهور يتنوع في أكثر من صنف، فهناك جمهور مجالس الخطابة والذين يحضرون أساساً للاستماع إلى ما يقوله الخطيب من أفكار وعظات وسير.

وهناك الجمهور الذي يهتم بالمشاركة في مواكب العزاء أو الاحتفالات بصورة أساسية أكثر من أي شيء آخر.

وهناك جمهور الأجواء الاحتفالية الذي قد لا يشارك في المجالس ولا في المواكب ولكنه يحضر في أجواء الشعائر لكي يشاهد ما يجري ويلتقي بالحضور ويعبر عن ارتباطه بما يجري بمجرد الحضور.

ولابد من التوضيح بأن هذه الأصناف تتمازج في أغلب الأحيان، فأغلب الناس يشاركون بالاستماع في مجالس الوعظ والخطابة، ثم ينقسمون بين من يشارك في المواكب الاحتفالية وبين من يتفرج عليها.

وهناك من يقوم بالأدوار الثلاثة في تراتبية قد تأخذ صيغة المشاركة في أحد المجالس، ثم المشاركة في موكب احتفالي، ثم البقاء للتفرج على بقية المواكب والفعاليات الأخرى، وهذه الحالة ممكنة خصوصاً في المواسم التي تستغرق فيها عمليات الإحياء ساعات طويلة كمواسم عاشوراء.

القسم الثالث

الآثار الاستراتيجية للشعائر الدينية

الفصل التاسع
تشكيل الهوية الشيعية الجماعية

ما هو معنى الهوية؟

الهوية هي حقيقة الشيء أو الشخص التي تميزه عن غيره[1]، وبالتالي فهوية التشيع مثلاً هي حقيقة مبادئه وأفكاره ومكوناته، وهوية الشيعي هي حقيقة مبادئه وأفكاره وسلوكه بما يتوافق مع التشيع.

أهمية الهوية:

أهمية الهوية تنبع من كونها الأداة التي تميّز بين حياة وأخرى وبين مسار وآخر سواء في الدنيا أو الآخرة، فالشيعي إنما يكون شيعياً إذا اتبع حقيقة التشيع، والمسيحي يكون مسيحياً لأنه يتبع حقيقة ما يرى أنه يمثل المسيحية، والبوذي كذلك بالنسبة إلى البوذية، وهكذا بالنسبة إلى جميع الأمم والمجتمعات والأفراد والهويات التي تتمثل فيهم.

وفي هذا القسم من الكتاب نريد أن نوضح كيف أن الشعائر الدينية لدى شيعة رسول الله وأهل بيته عليهم صلوات الله هي التي تساهم بصورة أساسية في تكوين وتثبيت هويتهم الشيعية، وسوف نستدل على ذلك بالكثير من الأدلة النابعة من مكونات الشعائر ذاتها وبالخصوص النصوص والقيم التي تشكل خطابها، والسياقات التاريخية التي نشأت فيها، والعقائد الدينية التي تعبر عنها وتتمثّلها.

إن تشكيل الهوية وتوسيعها (بصورة عرضية) أو تعميقها (بصورة طولية) عملية تستمر لدى المرء مدى الحياة، وفي بداية الكتاب حين عرفنا الشعائر قلنا بأن الدين يصنع الشعائر (وهذا ما أوضحناه في القسم الأول) وهنا سنوضح الجزء الآخر من المقولة وهي أن (الشعائر تصنع التدين)، ولكن قبل ذلك لنتوسع قليلاً في موضوع الهوية.

---

(١) نعمة: المنجد

أنماط الهوية:

يمكن قراءة الهوية الإنسانية من زوايا عديدة، فلكل شخص أكثر من نمط من الهوية (وليس أكثر من هوية، فالأنماط أو المستويات المتعددة من الهوية يفترض أن تنتهي كلها عند حقيقة واحدة مشتركة بينها)، فهناك ما يمكن أن يدعى بالهوية الفردية للإنسان فهو فلان ابن فلان ويمارس العمل الكذائي وهو ذو طباع معينة ولديه التزامات وممارسات سلوكية واجتماعية وميول فكرية، وهناك الهوية الجماعية فهو إما من البلد أو العرق أو المذهب أو الطائفة أو الطبقة أو الديانة الفلانية.

وهاتان الهويتان تتداخلان فيما بينهما بصورة قوية وعفوية في ذات الوقت منذ ولادة الإنسان وبداية نشأته حتى وفاته، فالهوية الفردية نتاج الأعراف والعادات والتاريخ والسلوك الاجتماعي الجماعي الذي يحيط به، فالبيئة الاجتماعية مساهم كبير في صياغة شخصية الفرد، ويعبر بعض مفكري علم الاجتماع عن ذلك بالذاكرة الجماعية للفرد أو الذاكرة الثقافية للفرد الناتجة عن تواصله مع البيئة المجتمعية المحيطة به.[١]

ويشير آخرون[٢] إلى ثلاث مستويات يعبر فيها الإنسان عن هويته، المستوى الأول يعبر عن هويته كفرد، وفي هذه الحالة فإنه ينظر إلى نفسه كشخص قائم بذاته، ويقيم نفسه على أساس ميزاته الفردية (شجاعته، طوله، ذكائه، الخ)، وتكون مرجعيته في نظرته تلك نابعة من مقارناته بين ذاته وبين شخصيات الأفراد الآخرين الذين يعرفهم ويقيم علاقات معهم كأقربائه وأصدقائه، ويكون الحافز الاجتماعي الأساسي الذي يوجه مسار حياته هو مصالحه واهتماماته الشخصية.

وفي المستوى الثاني ينظر الإنسان إلى نفسه من خلال علاقاته الاجتماعية فقيمته تنبع من قيمة العلاقات التي يقيمها سواء كانت علاقات حزبية سياسية أو إنتاجية اقتصادية أو تعبيرية ثقافية أو غيرها، وهو يقيم نفسه وأهميتها على أساس الدور الذي يلعبه ضمن هذه العلاقات سواء كان منتجاً أو مستهلكاً أو قائداً أو تابعاً أو مؤثراً أو هامشياً، وتكون مرجعيته في نظرته تلك نابعة من الطريقة التي يراه بها الآخرون ومدى الأهمية أو القيمة التي يضفونها عليه، ويكون الحافز الاجتماعي الأساسي له هنا هو المنفعة المتبادلة بينه وبينهم، فكلما كانت المنفعة أكبر نظر إلى العلاقة على أنها ذات قيمة أعظم، وهكذا.

---

(١) Collective memory and cultural identity :Assmann

(٢) Who is this «We»? :Brewer

وفي المستوى الثالث ينظر إلى نفسه من خلال الفئة التي ينتمي إليها (الطائفة أو المذهب أو العرق أو العشيرة أو ما أشبه)، وبالتالي فهو يرى نفسه بالصورة التي تنطبق على جماعته، فإذا كان الناس ينظرون إلى طائفته على أساس أنها ذات وجاهة أو سيادة أو أولوية على الطوائف الأخرى فإن الفرد المنتمي إليها سينظر إلى نفسه على أن سيد ووجيه ومقدم على أبناء الطوائف الأخرى، والعكس صحيح، كما أنه سيقيم نفسه من خلال مدى تطابقه مع الصورة الجماعية لهوية الفئة التي ينتمي إليها، وستنبع مرجعية كل فرد فيهم في تقييم نفسه من المقارنات الداخلية للمجموعة ومدى توافقه معها، والحافز الاجتماعي هنا يكون المصلحة والرفاهية الجماعية.

وهناك[١] من يرى مجموعة من عناصر الهوية الجماعية تتراكب في المستوى الفردي للهوية، وهذه العناصر هي التصنيف الذاتي، أي القدر الذي يصنف فيه الإنسان ذاته على أساس انتمائه إلى مجموعة ما ومدى تطابقه مع قيمها وسلوكياتها وطبيعتها فالفئة التي يغلب على أبنائها صفة العلماء أو التجار أو المحاربون الشجعان سيرغب أعضائها في الظهور بمظهر مشابه على الأغلب، و النظرة الإيجابية أو السلبية التي يحملها الفرد نفسه أو النظرة العامة للمجتمع تجاه هذا الانتماء أو التصنيف، والأهمية التي يتصورها الفرد إلى ذلك الانتماء ومدى الأولوية التي وضعها له في حياته، ومدى الاعتمادية والاندماج مع تلك المجموعة وإحساسه بوجود مصير مشترك وبوجود التزامات بينية مع هذه الجماعة، ومدى الاعتقاد بقيم وتاريخ وآثار هذه المجموعة وإحساسه بأن هذا التاريخ يمثله ويمثل القيم التي يعتقد بصوابها.

ويرى آخرون[٢] بأنه تاريخياً لم تكن للهوية الفردية تصور مدرك وواضح بقدر الهوية الجماعية للفرد، فالهوية الفردية قد تخبو وتبرز الهوية الجماعية بسبب تأثير المناخ الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي قد يتوجه إلى إبراز القضايا التي تطالب بها جماعته كالحرية مثلاً أو السلطة أو المكانة بين الناس أو ما أشبه، وبالتالي تطغى الدوافع الجماعية على الدوافع الفردية، فتتحول نظرة الإنسان إلى هويته من المستوى الأول الشخصي إلى المستوى الثاني القائم على العلاقات الاجتماعية، أو إلى المستوى الثالث القائم على الانتماء الجماعي[٣].

(١) Ashmore: An organizing framework for collective identity

(٢) de Benoist: On identity

(٣) Brewer: Who is this «We»?

ما الذي تقدمه الهوية الجماعية؟

- التماسك: الهوية الجماعية توفر التماسك الداخلي للجماعة، فإحساس كل عضو بأنه جزء متكامل ومتوافق في أفكاره وطباعه ونواميسه مع آلاف أو ملايين من البشر، فالشيعي الذي يجد نفسه جزء من ٣٠٠ مليون شيعي حول العالم يفكرون ويتصرفون ويصلون ويحجون ويتعاملون مع الأمور الدينية والدنيوية بطريقة مشابهة، يعطيه إحساس بالألفة والقبول والشعور بكونه طبيعي في توجهاته وآرائه وتصوراته عن الحياة، وبالتالي فإن ذلك الإحساس يشكل عامل جذب داخلي تجاه الجماعة يزيد من تماسكها وألفتها.

- الاستقرار: كما توفر الأمان لأعضائها بأن تجعل العالم من حولهم أكثر معنىً، تشيّد أنماط جماعية من المعرفة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والتربوية والدينية وغيرها، أي أن كل فرد من الجماعة يفتح عينيه على الحياة فيجد بأن لدى جماعته طريقة مستقرة وواضحة للتعامل مع الأحزان والأفراح والتحديات والنجاحات والاختلافات والتوافقات وما شابه، وبالتالي تسمح للفرد بأن يقود حياته بدون الحاجة إلى اختراع طرق من عنده للتعامل مع مختلف الظواهر الاجتماعية والثقافية والسلوكية التي تواجهه، وعندما يصبح العالم مفهوماً تصبح الأمور من حولنا منطقية أكثر.

- الحصانة: من جهة أخرى فإن الهوية الجماعية تعمل كمصفاة تمنع تغلغل أية أفكار أو قيم تعتبر مخالفة أو منحرفة عن قيم المجموعة وأفكارها (على الأقل في العديد من الحالات تمنع تغلغلها بصورة كاملة)، فالشيعي مثلاً يبقى شيعياً محصّناً أمام مختلف الأفكار والمذاهب والاتجاهات غير المتطابقة مع مذهبه لأنه يجدها منحرفة عما يراها صواباً من المنظار المذهبي الشيعي، وهكذا الأمر بالنسبة للمذاهب والطوائف الأخرى.

- الإدراك: كما أن الهوية الجماعية تجعل أعضائها يفهمون بعضهم ويتوقعون ما يفكر فيه الآخرون منهم، لأنهم يحملون ذات القيم، ويستخدمون ذات الخطاب، ويتشاركون ذات المعايير، فالشيعي أينما كان يتوقع أن الشيعة سيحيون بأسى ذكرى عاشوراء حين يحين أوانها، وأنهم سيدافعون عن أهل البيت (ع) وسيرتهم فيما لو تعرض أحد لذكرهم بسوء، وهكذا فالأشخاص الذين يعيشون في منظومة أو ينتمون

إلى مجموعة سياسية أو ثقافية أو دينية معينة تجعلهم يحملون ذات الفكر السياسي أو الثقافي أو الديني ستكون لديهم القابلية على توقع السياق العام لاستجابات ومواقف بعضهم البعض بشأن ما يجري حولهم من تفاعلات سياسية أو ثقافية أو دينية[1].

أساس الهوية الجماعية: الولاء

غالباً ما تكون المسألة في الهوية الجماعية ليست (من أنا؟) وإنما (لمن ولائي؟)، وفي هذه الحالة لابد وأن نعرف المكونات الأساسية التي تجتذب الولاء في الجماعات الإنسانية، فهناك عوامل عديدة قد يشكل أحدها أو مزيج منها صلب هذه الهوية، وقبل أن نشير بإيجاز إلى تلك العوامل نشير إلى بعض التعريفات اللغوية[2] التي تتضمن مفهوم الجماعة الإنسانية.

- فالعرق هو أصل كل شيء وحين يقال بأن المجموعة الفلانية هي مجموعة عرقية فالمقصود إنها ترجع إلى أصل واحد.
- والنحلة هي المذهب والديانة أو الدعوى.
- والملة تعني الطريقة أو الشريعة في الدين، وقد ورد في القرآن الكريم ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ (الحج ٧٨)، وورد ﴿وألوا استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقا﴾ (الجن ١٦).
- والطائفة هي الجماعة من الناس الذين يجمعهم رأي أو مذهب يمتازون به عن سواهم، وقد أطلق القرآن الكريم هذا التعبير على المسلمين ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ (النور ٢)، وعلى أهل الكتاب ﴿فآمنت طائفة من بني إسرائيل﴾ (الصف ١٤).
- والشيعة تطلق على الأتباع والأنصار، وقد ورد في القرآن الكريم ﴿فوجد فيها رجلين يقتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه﴾ (القصص ١٥)، وكل قوم اجتمعوا على أمر فهم شيعة، ثم صار هذا لقباً لأتباع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وأهل بيت رسول الله (ص).
- والفرقة هم القسم من كل شيء، قال تعالى «ولولا نفر من كل فرقة منهم طائفة» (التوبة ١٢٢).

(١) The Construction of Identity :Schopflin
(٢) راجع معجم المنجد، والمصباح المنير، والقاموس المحيط.

أما العوامل التي تشكل أساس الهوية الجماعية فأهمها السلالة أو العنصر أو النسب العشائري، ويفترض هذا التصنيف وجود سمات وملامح جسمانية مشتركة بين أعضاء هذه المجموعة أو تناسل وتوالد ممتد إلى أصل واحد.

وهناك عاملي اللغة والثقافة، فالمجموعات القائمة على وحدة اللغة أو الثقافة يشتركون في التقاليد وأسلوب الحياة وطريقة التفكير، فاللغة تتحول إلى وعاء للثقافة ومخزن للتراث.

وكذلك يشكل الدين أحد العوامل الأساسية في تشكيل المجموعات، فالذين ينتمون إلى دين واحد أو نفس المذهب في اطار هذا الدين يعتبرون أنفسهم طائفة متفردة في مقابل غيرهم الذين ينتمون إلى دين أو مذهب آخر(١).

وهناك عامل الجغرافيا، بمعنى الانتماء القومي إلى أرض معينة أو وطن محدد.

وكذلك عامل التاريخ المشترك الذي يضفي شرعية على وجود الجماعة أو الطائفة من خلال الوقائع والمشاعر والمواقف التاريخية المشتركة والتي تتحول إلى رابط للأجيال المتتالية لأعضائها(٢).

ركائز الهوية الجماعية الشيعية:

يتساءل حنا بطاطو في دراسته عن العراق(٣)، عن علة استمرارية التشيع في العراق على مدى الحقبة الإسلامية كلها، على الرغم من أن في هذه الحقبة حكمت العراق غالباً (مع استثناء الفترات القصيرة نسبياً لحكم البويهيين، وحكم آل مزيد، والمشعشعيون) سلالات وحكومات كانت تخالف أو تناوئ الفكر الديني والعقائدي لأهل البيت عليهم السلام؟

ويجيب إبراهيم الحيدري عن ذلك في دراسته الاجتماعية عن الشعائر الحسينية، «بأن قوة أية ظاهرة دينية كانت أم اجتماعية واستمراريتها في المكان والزمان لا تأتي من قناعة المعتقدين بها فحسب، وليس بالضرورة من شرعيتها، وإنما من مصداقيتها وقدرتها على ربط أفكارها بالواقع الاجتماعي - السياسي ربطاً جدلياً، وكذلك بحاجات الناس وطموحاتهم وآمالهم.... .

ويقول: إن من طبيعة أية ظاهرة دينية تستطيع الحفاظ على وجودها وفاعليتها واستمراريتها، هي أصالتها وإمكاناتها في أن تنزل إلى الوجدان وتتجذر في الذاكرة،

---

(١) ابراهيم: الملل والنحل والأعراق

(٢) مهدي: التعددية الإثنية

(٣) بطاطو: العراق

وتكون وحدة اجتماعية ـ نفسية ليس من السهولة تفكيكها، وهي أحد العوامل الرئيسية التي تضمنت ديمومة الوجود الشيعي في العراق واستمراريته.

وكما أشار بطاطو، فإن المدن الشيعية المقدسة في النجف وكربلاء ومدارسها الدينية والعلاقات التجارية المتبادلة التي حافظ عليها الشيعة ولو بشكل متقطع، وكذلك تكيّف البدو مع معتقدات المنطقة الشيعية التي استوطنوها وممارساتهم الدينية، كانت قد ساعدت على ذلك، إضافة إلى مأساة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، التي ربطت الفكر الشيعي بالواقع الاجتماعي ـ السياسي المرفوض ربطاً جدلياً ومستمراً، وكان لها دور فعال لا يمكن التقليل من شأنه»[1].

إن استمرار وامتداد الهوية الشيعية لاتباع أهل بيت رسول الله (ص) في مختلف مناطق العالم يعود إلى مجموعة عوامل مشتركة تشكل أساس الهوية الشيعية الجماعية، ليس منها بطبيعة الحال العرق أو العنصر أو الأرض أو اللغة، فالشيعة موجودون في كل بقاع الأرض وهم من مختلف الأعراق والأجناس، ويتكلمون العديد من اللغات الأم.

ولكن يمكن تحديد العوامل الأساسية للهوية الشيعية العامة، في الأمور التالية:

- العقيدة التي يتشارك بها جميع أبناء الطائفة، والقائمة على مرتكزات أصولية وعقائدية تتباين في مصادرها وطبيعتها مع جميع المذاهب الإسلامية الأخرى، وهذا لا يعني بأن هذا المذهب يشذ عن غيره وإنما لأنه أول المذاهب الإسلامية على الإطلاق ولأن من أطلقه وأسسه هو رسول الله (ص) بذاته، فيمكن القول بأن جميع المذاهب الإسلامية الأخرى هي التي تباينت عن مذهب آل بيت رسول الله (ص).

وعلى كل حال فمصادر العقيدة الشيعية هي القرآن الكريم وسنة رسول الله وعترته الطاهرة صلوات الله عليهم أجمعين، أي الكتاب والعترة، لا الكتاب والسنة المبتورة التي لم تلحق بالأوصياء الشرعيين لرسول الله (ص) وهم الأئمة من آله، ولا الكتاب والصحابة، ولا الكتاب وأئمة الفقه الذين تعرفوا على سنة النبي (ص) بعد قرن ونيف من وفاته (ص).

وأصول مذهب آل البيت (ع) خمسة وهي أصول الإسلام الصحيحة، وهي التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد، وفروع الإسلام على مذهب أهل البيت (ع) عشرة هي الصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتولي (موالاة أولياء الله) والتبري (التبرؤ من أعداء الله).

---

(١) الحيدري: تراجيديا كربلاء

- التاريخ المشترك الذي يقرأه اتباع أهل البيت قراءة مختلفة عن قراءة الفرق الأخرى، فالقراءة الشيعية للتاريخ ترى بأن ما جرى من أحداث، منذ البعثة والهجرة ووقائع كالذي وقع في غدير خم وسقيفة بني ساعدة مروراً بكربلاء وانتهاءً بالغيبة، إنما ينظر إليه بمنظار الحق والباطل وأن من يمثل الحق هم رسول الله وأهل بيته الأطهار، وقد أوضح رسول الله (ص) ذلك في حديث الثقلين الكتاب والعترة وفي مواقف كثيرة وهو (ص) القائل بأن علي مع الحق والحق مع علي يدور معه حيثما دار.

بينما يرى الآخرون بان التاريخ مجموعة من الأخطاء التي تم التوبة عنها في آخر لحظة، فكل طاغية وحاكم ارتكب ما ارتكب من جرائم في حق الدين والمسلمين ثم تاب قبل ساعة من وفاته وبالتالي فان كل ما عمله مغفور ويمكن تجاوزه، أو إن التاريخ عبارة عن مهازل كوميدية حيث أن (سيدنا معاوية قاتل سيدنا علي رضي الله عنهما وليس لنا أن نبحث في شأنهما لأنهما من العشرة المبشرين بالجنة، أما عشرات الألوف الذين قتلوا في الحرب بينهما فهؤلاء أمرهم إلى الله إن شاء عفا وإن شاء عاقب).

وهكذا بدل أن يتحول تاريخ الأمة إلى مدرسة نستبصر منها الصواب والخطأ كما هو تاريخ كل الأمم يصبح تاريخنا نحن المسلمين مصدر لازدواجية الشخصية والخبال الفكري والنفسي.

إن التاريخ الشيعي أو الذي يُقرأ قراءةً شيعية، يمثل المرتكز الأساسي للذاكرة الجماعية التي تشد وتربط أبناء الطائفة على مدى الدهور والأيام وفي مختلف البقاع والظروف.

- القيم الثقافية المشتركة المستندة إلى أصول ومبررات العقيدة والتاريخ، والتي تتجلى في خطاب ثقافي صادر عن رسول الله وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين، حيث يؤكد هذا الخطاب على قيم قد تبدوا عالمية ومشتركة بين جميع الثقافات كالحق والعدل والمساواة، ولكنها في الحقيقة تتباين في منطلقاتها، فالحق لدى أهل البيت (ع) هو ما يتوافق مع القيم وليس ما يتوافق مع الرجال، والحرية هي منحة من الله وليس مكرمة من الخليفة أو الحاكم، والإنسان يصبح ذا منزلة لدى الله لأنه يعمل ويكدح ويتعلم، لا لأنه ابن حاكم أو خليفة حتى لو كان اكثر الناس بلادةً وكسلاً ووقاحة.

هذا إلى جانب أن الفكر الشيعي يتميز بميزان تفتقده بقية الفرق وهو تولي آل بيت رسول الله (ص) والتبرؤ من أعدائهم على المستويات الفكرية والتاريخية والسياسية والعقائدية وغيرها.

وستتضح في الفصول التالية كيف أن هذه العوامل تم تأطيرها جميعاً وبصورة قوية وفاعلة في عموم الشعائر الدينية للشيعة.

أولاً: التاريخ المشترك والذاكرة الجماعية

لكل جماعة ذاكرة ثقافية، تتشكل كمفهوم جماعي من كل المعارف والأحداث والوقائع والقيم المتراكمة عبر الأزمنة خصوصاً التأسيسية منها للجماعة، وتعمل على توجيه السلوك والخبرة الجماعيين، ضمن عملية التفاعل داخل مجتمعها، ليتكرر ذلك السلوك وتلك الخبرة عبر الأجيال في صورة أعراف وعادات وشعائر وممارسات تعبر عن هويتها، فحدث مثل واقعة كربلاء لدى اتباع أهل البيت (ع) لا يشكل أحد مكونات الذاكرة الجماعية للشيعة فقط، وإنما أحد منحوتاتها ووسومها، فهو محفور في ذاكرتهم بطريقة تعجز أية ممحاة من استئصاله من ذاكرتهم أو محو انعكاساته من سلوكهم.

وتبني الجماعات تماسكها وتميّزها على محتويات هذه الذاكرة، التي يجب أن تتبلور وتتحول إلى ذاكرة محسوسة، من خلال النصوص التي تدونها، والصور التي تعبر عنها، والشعائر التي تجسّدها، والأبنية التي تمثلها، والمشاهد التي تختزنها، والمدن التي تحتضنها، والأزمنة التي تفاعلت فيها.

وتنتج الذاكرة الثقافية آثار أساسية، منها(١):

- تعزيز صلابة الهوية الجماعية، فتجعل تمييعها بالمؤثرات التي تعد غريبة عنها صعباً. وصلابة الهوية تسهّل عملية التعريف، فحين نصادف شيئاً ما أو حدثاً أو قيمة تتوافق مع هويتنا يسهل علينا حينئذ أن نقول (هذا نحن، أو هذا ما نحن عليه)، كما يسهل علينا نبذ ما لا يتوافق مع هويتنا فنقرر فوراً أن (هذا ليس من طبعنا)، وبالتالي يصبح واضحاً من هو من هذه الفئة ومن لا ينتمي إليها.
- الذاكرة الثقافية تمنح الجماعة القدرة على إعادة إحياء هويتها وإنعاشها وربطها بالأوضاع المعاصرة فلا تعتبر تراثاً مندرساً بعيداً عن الواقع، كما إنها تحفظها من التشويه والتحريف وتساعدها على الصمود أمام النقد، وكل ذلك ممكن بالاعتماد على قوة وكثافة المادة الثقافية المخزونة والمحفوظة (أي المدونة) في الذاكرة الجماعية.

---

(١) Collective memory and cultural identity :Assmann

- الذاكرة الثقافية تعزز القدرة على صياغة هويات الأعضاء الجدد (سواء المولودين الجدد، أو المتحولين من طوائف أخرى)، من خلال قوة وكثافة النصوص والصور والشعائر والمشاهد والأماكن والأزمنة التي تعبر عنها.
- كما أنها تخلق التزاماً تجاه نظام القيم والأولويات الذي يميّز هذه الجماعة، من خلال تنظيم آلية التزود الثقافي والمعرفي لأعضائها، فهناك قيم مهمة وأخرى غير مهمة، ومركزية وأخرى هامشية، وأصيلة وأخرى دخيلة، وموقع تلك القيم من الناحية الثقافية يقوم على مدى مساهمتها في إنتاج أو تمثيل أو إعادة إنتاج صورة الجماعة وهويتها.

وقد أطلق بعض العلماء على كل الأشياء الرئيسية والمؤثرة والأصيلة في ذاكرة أي أمة لفظ الوسوم أي الأشياء المختومة والتي طبعت في ذاكرة الناس كالوسم والوشم والختم وطبعت كنقوش ومنحوتات لا يمكن إزالتها.

تحديات الهوية:

وقبل أن نتطرق إلى منحوتات ووسوم الذاكرة الشيعية، نشير بإيجاز إلى بعض التحديات العامة التي تتعرض لها الهوية الشيعية، فهناك تحدي نابع من تنوع الهويات العرقية والثقافات الاجتماعية بين شعوب العالم الإسلامي، وبالتالي فإن الثقافة الشيعية (أو أية ثقافة أخرى) قد تتعرض للتحوير والتحريف بتأثير الثقافات العرقية أو الاجتماعية الناتجة من ذلك التنوع، وكما أسلفنا فإن قوة وكثافة الصيغ التي تعبر عن الثقافة الشيعية يمكن أن تكون عائقاً أمام هذا التهديد.

وهناك تهديد البيئات الثقافية والاجتماعية المخالفة أو المناوئة للثقافة الشيعية، وهذه الحالة تتعرض لها الأقليات الشيعية التي تعيش في مجتمعات أكبر منها عدداً أو تفرض هيمنة وسيطرة سياسية عليها، وكذلك الأقليات التي تعيش مشتتة لسبب أو لآخر في أرجاء هذا العالم الواسع. وتقوم الذاكرة الثقافية بدور كبير في مواجهة هذه الأنواع من التهديدات، وخصوصاً حين تصدر في صورة إحياء للشعائر الدينية.

يذكر إسحاق نقاش في بحثه حول أصول شعائر عاشوراء، بأنه ومع سقوط الدولة الصفوية في بدايات القرن الثامن عشر، ومع الغزو الأفغاني الذي كان يتبع مذهباً آخر مخالف لمذهب غالبية الشعب الإيراني، نشطت حركة الشعائر الحسينية وحافظت على

زخمها بالرغم من الفوضى السياسية التي عمت البلاد، وأنها بلغت ذروتها مع عودة الحكم الشيعي مرة أخرى تحت راية القاجاريين، وأن الروحانية الشعبية المتمثلة في الشعائر كانت أداة صمود في وجه الغزو الأفغاني[1].

ما هي مكونات الذاكرة الثقافية للشيعة؟

الذاكرة الشيعية موسومة بوسوم راسخة ومحفورة لا يمكن أن تتغير مع مرور الزمن، فقد تحولت من مساحات للتأمل والتفكر الاستذكاري في الماضي إلى مواضيع ثقافية تتبلور في شكل علامات بارزة في الفكر والسلوك الشيعي.

وهذه العلامات أو الوسوم كما سنعبر عنها، لن تجد لها أو لغالبيتها مثيلاً في ذاكرة أية فئة أخرى من فئات المسلمين، فحتى الذين يقرون بها أو بجزء منها فإنهم يؤولونها بتأويلات غريبة لا تتحملها اللغة أو الوقائع ولا تتوافق مع المنطق والعقل، ولذا فإن هذه الوقائع تعبر بخصوصية عن ثقافة الشيعة وذاكرتهم الجماعية.

ويمكن تصنيف هذه الوسوم إلى الأصناف التالية:

وسوم الفرح: ما يفرح له الشيعة

هناك العديد من الأحداث والوقائع التي تولد الفرح في نفوس الشيعة وتحيي فيهم علامات السعادة، واذا اردنا أن نتكلم عن أبرزها والتي لا تغيب عن ذاكرتهم ويهتمون بإحياء ذكراها بأفضل ما لديهم من إمكانية، فيمكن الإشارة إلى الوسوم التالية، (وسوف نرتبها بصورة عامة بحسب أسبقيتها الزمانية):

- ولادة رسول الله (ص) في السابع عشر من ربيع الأول، والتي كانت بشارة بقرب خلاص البشرية على يديه الشريفتين.
- ولادة أمير المؤمنين (ع) في الثالث عشر من شهر رجب المرجب، وهو (ع) وزير رسول الله (ص) في رسالته، ووصيه.
- زواج رسول الله (ص) بالسيدة خديجة الكبرى عليها السلام وحسن معاشرتها الزوجية ومساندتها له في رسالته.

(١) Nakash: An attempt to trace the origin of the rituals of «Ashura»

- المبعث الشريف لرسول الله (ص) في السابع والعشرين من شهر رجب، وبداية اطلاق الرسالة المحمدية.
- ولادة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء صلوات الله عليها، والتي كانت قرة عين رسول الله (ص) والتي سماها بأم أبيها.
- اقتران أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بسيدة النساء فاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين، وما نتج عن ذلك من أعظم البركات والخيرات على الدين وأهله من ولادة أعظم أئمة المسلمين (ع).
- ولادة الإمامين الحسنين صلوات الله عليهما، الذين قال رسول الله (ص) انهما سيدا شباب أهل الجنة، فما بالك بأهل الدنيا.
- ولادة الأئمة التسعة من ولد الحسين عليهم صلوات الله، الذين حافظوا على نهج رسول الله (ص) من الضياع والتحريف الشنيع الذي تعرض له.

وسوم الفخر: ما يفخر به الشيعة

كذلك هناك ما لا يعد من المآثر التي يفخر بها الشيعة كونها تعبر عن جوهر وحقيقة سادتهم من آل بيت رسول الله صلى الله عليهم أجمعين، ومن أبرزها:

- كفالة أبو طالب بن عبدالمطلب (ع) عم رسول الله (ص) له حتى مماته، وحمايته وحماية دعوته من عداء كفار قريش.
- ولادة أمير المؤمنين (ع) في الكعبة الشريفة، وبصورة إعجازية عبرت عن علو مقامه وخطر أمره، وهو الوحيد في جميع الخلق منذ آدم إلى آخر الدهور الذي حصلت له بقدرة الله تعالى هذه المنقبة.
- التزام أمير المؤمنين (ع) وخديجة (ع) برسول الله (ص) منذ اللحظة الأولى لنشأة الإسلام، حيث كان (ع) أول من اتبع رسول الله (ص) في رسالته، ومن بعده خديجة (ع)، وقد سأل الإمام الصادق (ع) عن أمير المؤمنين (ع) وأنه أول من اسلم، فقال الصادق (ع): سبحان الله! أوَ كان كافراً قط؟
- مبيت أمير المؤمنين (ع) ليلة الهجرة في فراش رسول الله (ص)، وفداءه له ليموّه على الكفار خروجه ويضمن سلامته (ص).

- بطولات أمير المؤمنين (ع) في بدر وأحـد والخندق وخيبر وحنين بل وفي كل الغزوات، ومقارعته للأبطال وقتله للأعداء، وهي أكثر من أن تحصى في جميع الغزوات والحروب التي خاضها (ع) لنصرة الدين.
- سيف ذو الفقار وهو السيف الذي أنزله جبرائيل على رسول الله (ص) فأهداه إلى علي (ع)، وذكراه ترمز إلى بطولات الإمام (ع) العسكرية في الدفاع عن الدين.
- رد الشمس لعلي (ع) لصلاة العصر بعد أن غابت، مرة في المدينة المنورة مع النبي (ص) ومرة في العراق حين توجه لصفين، في قصتين مشهورتين.
- علم أمير المؤمنين (ع)، وشدة إدراكه ووعيه للأمور، حتى قال رسول الله (ص) في شأنه (ع): "أنا مدينة العلم وعلي بابها، فمن أراد المدينة فليأتها من بابها"، وحتى قال الخليفة الثاني في ذلك: "لولا علي لهلك عمر".
- تنصيب رسول الله (ص) لأمير المؤمنين (ع) إماماً للناس وخليفة له من بعده في غدير خم.
- زهد أمير المؤمنين (ع) في الدنيا وفي الحكم وبعد الحكم.
- عدل أمير المؤمنين (ع) في الحكم والقضاء بما عجز عنه جميع الخلفاء والولاة، وهو الذي كان يحكم بحكم داود (ع) في القضاء بل وأعظم من ذلك.
- بلاغة أمير المؤمنين عليه السلام وفصاحته وهو ما برز في جميع أئمة أهل البيت عليهم السلام ومن قبلهم رسول الله (ص) حتى أن كلامهم لا يفوقه شيء إلا بيان القرآن الكريم وبلاغته الإعجازية.
- بطولات واقعة كربلاء، والتي تجلت فيها بطولات الإمام الحسين (ع) وأهل بيته (ع) كأخيه العباس بن علي، وابنه علي الأكبر، وابن أخيه القاسم بن الحسن، وابن عمه مسلم بن عقيل (في الكوفة) وغيرهم، وكذلك بطولات أصحابه (ع) كحبيب بن مظاهر، ومسلم بن عوسجة، وعابس بن شبيب الشاكري، وهاني بن عروة (في الكوفة)، والحر بن يزيد الرياحي وغيرهم، حيث دافعوا عن إمامهم (ع) وفدوه بأرواحهم، وصمدوا للأعداء رغم كثرتهم ووحشيتهم.
- عبادة الإمام علي بن الحسين السجاد عليه الصلاة والسلام، وشدة ورعه وتقواه وروحانيته، وهو الذي أعاد إحياء الإسلام بمنهجيته في إمامة المسلمين.

- علم الإمام محمد بن علي الباقر عليه الصلاة والسلام، وما قام به من عمل دؤوب في تجديد الدين وعلوم الشريعة.

- فقه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام، وما قام به من عمل في تبيين تفاصيل الشريعة الإسلامية، وتثبيت دعائمها، وقد كان لدوره في تبيين الحقائق شأناً أن نسبت الطائفة إليه فسميت الشيعة بالجعفرية.

- سيرة أئمة أهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام بصورة عامة منذ ولادتهم إلى ساعة استشهادهم، حيث قضوا جميعهم شهداء بالسيف أو بالسم دفاعاً عن دين الله وشريعة رسوله (ص)، فيحفظ الشيعة كل ما أحاط بحياتهم الشخصية والعامة وفضائلهم ومنجزاتهم وعلومهم وكراماتهم.

وسوم العقيدة: ما يعبر عن صواب عقيدة الشيعة في أئمة أهل بيت رسول الله (ص)

هناك الكثير من الوقائع في التاريخ الإسلامي وفي السيرة النبوية الشريفة مما يعبر عن أحقية شيعة آل بيت رسول الله (ص)، ولكن يمكن الإشارة إلى أبرز الأشياء التي يحتفي بها الشيعة في شعائرهم وأشعارهم، وهي:

- نزول آية الولاية في حق أمير المؤمنين (ع)، في قصة تصدقه بخاتمه على فقير في المسجد وهو راكع، وذلك في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِيْنَ آمَنُوا الَّذِيْنَ يُقِيْمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة ٥٥)، والتي تدل على تنصيب الإمام عليه السلام من قبل الله سبحانه وتعالى ولياً على جميع الناس.

- نزول آية التطهير في حق رسول الله وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم جميعاً صلوات الله، في حادثة الكساء المشهورة، وذلك في قوله تعالى "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا" (الأحزاب ٣٣)، والتي تدل على عصمة أهل البيت وبالتالي أحقيتهم دون غيرهم على الولاية الشرعية على الناس وإمامتهم.

- بيعة يوم غدير خم في الثامن عشر من ذي الحجة، والتي أمر رسول الله (ص) مائة ألف من الحجاج بمبايعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بالإمامة والخلافة والولاية من بعده (ص)، والتي نزلت فيها: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيْنَا﴾ (المائدة ٣)، فتم الدين بولاية أمير المؤمنين (ع).

- واقعة المباهلة التي باهل فيها رسول الله (ص) نصارى نجران، وخروجه اليهم مع علي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم أجمعين، ونزول آية المباهلة في شأنهم، وذلك في قوله تعالى ﴿ تعالوا ندع أبنائنا وأبنائكم ونسائنا ونسائكم وانفسنا وأنفسكم ﴾ (آل عمران ٦١) وبالتالي فقد أوضحت الآية الكريمة منزلة أهل البيت (ع) وأظهرت بأن علي (ع) هو نفس رسول الله (ص)، وأنه عندما غيب رسول الله (ص) الموت من بين ظهراني المسلمين، فقد بقي نفسه معهم وهو علي (ع) فكان بإمكانهم الالتجاء إليه واتباعه، ولكنهم أنقصوا حظهم وأساءوا إلى انفسهم بأن تجاوزوا أمير المؤمنين (ع) إلى غيره، وسلبوه حقّاً قد أثبته الله سبحانه وتعالى له (ع).

وسوم المظلومية: ما يدل على مظلومية آل بيت رسول الله (ص)

- رزية يوم الخميس: وهي الواقعة التي طالب فيها رسول الله (ص) المسلمين وهو يحتضر أن يحضروا له دواة وقلم لكي يكتب لهم كتاب بولاية أمير المؤمنين (ع) من بعده فلا يضلوا أبداً، إلا أنهم رفضوا وقال قائلهم إن النبي (ص) يهجر، فغضب (ص) وطالبهم بالخروج عنه.
- مؤامرة سقيفة بني ساعدة: وهي الواقعة التي تعاقد فيها صحابة النبي (ص) الحاضرون في السقيفة على إخراج أمر خلافة رسول الله (ص) عن أمير المؤمنين (ع) حيث أمرهم النبي (ص) بذلك في غدير خم وفي غيرها من المرات، فخالفوه ونقضوا عهده.
- سلب فدك من سيدة النساء عليها السلام: وفدك بستان كان قد وهبه رسول الله (ص) لفاطمة الزهراء (ع) في حياته، فلما توفاه الله قام الخليفة الأول بمصادرة هذا الحائط منها بدعوى انه (لوحده وشهدت معه ابنته) سمع رسول الله (ص) يقول بما يخالف القرآن الكريم وهو أن الأنبياء لا يورثون وأن ميراثهم هو العلم فقط.
- حروب الجمل وصفين والنهروان: وهي الحروب التي ثارت في وجه أمير المؤمنين أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (ع)، من قبل القرشيين وغيرهم ممن انحرف عنه من الناكثين والقاسطين والمارقين والمنافقين بغياً منهم وحسداً وجوراً عليه (ع).
- خذلان الإمام الحسن (ع) في الكوفة: وذلك في حربه ضد معاوية بن أبي سفيان، بل ومحاولة قتله غيلة وغدراً وتآمر قسم من جيشه وقادته عليه، فقط لأن معاوية عرض عليهم المال والدنيا، والعجب العجاب إن هؤلاء ومعاوية وأمثالهم من المنافقين

يخالفون سيد شباب أهل الجنة ويعادونه في الدنيا ثم يعتبرون أنفسهم مسلمين ويرجون شفاعة جده (ص) سيد الأنبياء والمرسلين، في الآخرة.

- خذلان مسلم بن عقيل في الكوفة: وهذه من أبرز الأمثلة في هذا السياق في الذاكرة الشيعية، ويشبه لديهم كل من تعرض للخذلان من قبل الناس بأنه كمسلم في الكوفة، حين أرسله الإمام الحسين (ع) سفيراً له قبل خروجه من مكة، وبايعه غالبية الناس، ولكنه حين أراد القيام في وجه والي الكوفة عبيد الله بن زياد لم يجد معه أحدا.

وسوم الأسى: ما يجزع له الشيعة

- وفاة رسول الله (ص)، في الثامن والعشرين من صفر، فقد كانت خسارته (ص) على ما هي عليه من الشدة، بداية ارتداد كثير من الناس وخصوصاً من أصحابه عن منهجه وبداية التحريف في العقيدة والدين.
- الهجوم على دار سيدة النساء فاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليهما وآلهما، وإهانتها وضربها في بيتها بالسوط، وكسر ضلعها بباب بيتها الذي اختبأت خلفه لتستر نفسها (ع) به، بعد أن هجم على دارها المنافقون من الصحابة، والذين أرادوا إجبار زوجها أمير المؤمنين (ع) على البيعة للخليفة الأول.
- استشهاد الصديقة فاطمة الزهراء (ع)، بعد حوالي ٧٥ يوماً من وفاة أبيها رسول الله (ص)، متأثرةً بجراح صدرها الذي نبت فيه مسمار الباب الذي اختبأت خلفه، حين هجم المنافقون على بيتها (ع).
- شهادة أمير المؤمنين (ع) في محراب الكوفة: وذلك حين ضربه الخارجي عبدالرحمن بن ملجم المرادي في فجر ليلة القدر بالسيف على رأسه وهو ساجد في نافلة الفجر قبل صلاة الصبح في مسجد الكوفة الأعظم، فكانت ولادته في بيت الله الحرام، وشهادته في محراب الصلاة، وهو (ع) بينهما أفنى حياته في طاعة الله وعبادته ونصرة دينه والدفاع عن رسوله (ص).
- شهادة الإمام الحسن بن علي (ع) بالسم على يد زوجته جعدة بنت الأشعث، بطلب من معاوية بن أبي سفيان وبالتآمر مع أبيها، حيث وعدها بأن يدفع لها مبلغاً من المال

وأن يزوجها ابنه وولي عهده يزيد، ولكنه غدر بها أيضاً فأعطاها المال و لم يزوجها بابنه، فخسرت معهما دنياها وآخرتها.

- مصيبة عاشوراء: وهي من أعظم المصائب وأشدها على نفوس أهل البيت (ع) وشيعتهم جميعا، فما جرى على الإمام الحسين (ع) ومن معه في كربلاء لم يكن له مثيل في تاريخ الأنبياء والرسل والأوصياء، وهو علامة فارقة ووسماً عميقاً لا يمحى أثره في تاريخ البشر.
- سبايا آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين: وهذه المصيبة هي بنت وأخت التي قبلها، فمن سبي من كربلاء وداروا بهم البلدان وهم في قيود الأسر والذل وشمتوا بهم وأساءوا اليهم لم يكونوا إلا بنات وأطفال وأحفاد رسول الله (ص) بعينه، فكان الذي سباهم وقتل جميع أهلهم من عائلة رسول الله (ص) وأبناءه وأحفاده يقوم للصلاة مباشرة بعد ذلك، ويدعي الإسلام وأنه ممثل رسول الله (ص) وأنه الحافظ لدين الله من بعده.
- سجن الإمام موسى الكاظم (ع) في سجن الخليفة هارون العباسي بدون سبب سوى أن عقيدته وإمامته تزعج العباسيين، واستشهاده فيه بالسم والتشهير بجنازته (ع) على جسر بغداد، بعد أن أمضى في السجن والأغلال حوالي أربعة عشر سنة.
- استشهاد الأئمة من آل محمد صلوات الله عليهم أجمعين، بالسموم على يد خلفاء بني أمية وبني العباس، بعد أن أفنوا حياتهم الشريفة في خدمة الدين وهداية الناس وتصحيح الانحرافات والدفاع عن منهج رسول الله (ص) وشريعته.

الشعائر وإحياء الذاكرة الشيعية:

تقوم الشعائر الدينية بالحفاظ على الذاكرة الشيعية وإحيائها وتجديدها باستمرار بل وبربطها بكل ما يستجد من قضايا وأحداث ومجريات حياتية، ويقوم شيعة آل بيت محمد (ص) بإحياء جميع ما اشرنا إليه أعلاه من الوسوم، بل وأكثر منها، بصورة مستمرة ومتتالية في كل عام وخلال مواسم متعددة، من خلال الأدوات والوسائل الشعائرية التي ذكرناها في الفصول السابقة.

ثانياً: القيم الثقافية المشتركة

أحد توصيفات العقيدة بأنها الإدراك والأثر والسلوك المتولد من الوعي بوجود قوى أو كيانات فوق طبيعة البشر، أو من خلال التفاعل الملموس معها، حيث يفترض أن تلعب هذه القوى دوراً مهماً في شئون البشر.

ويمكن قياس المكونات النفسية للعقيدة بعدة طرق منها، مدى التصديق بوجود آلهة أو أرواح ـ بحسب كل عقيدة ـ ذات تأثير على حياة البشر، ومستوى وحجم الالتزام بالممارسات (كالعبادات) التي يحفزها الاعتقاد بوجود مثل تلك القوى، وقوة الالتزام بنظام عقائدي محدد[1].

لا شك بأن العقيدة تشكل، بحسب ما تختزنه من مفاهيم مرتبطة بالواقع، منظومة ثقافية تؤثر في واقع الإنسان المؤمن بها، بواسطة خطاب نصوصها المقدسة، وشعائرها التعبدية والاجتماعية والسلوكية وتوجيهاتها وأوامرها ونواهيها، التي تقود أتباعها إلى سلوك طرق معينة في الحياة ونبذ أخرى، وبالتالي يمكن ربط العقيدة بعملية تنظيم الإنسان لذاته.

ويمكن الإشارة إلى علاقة العقيدة بذلك من خلال التالي:

- اكتشاف الأهداف: العقيدة تؤثر في تنظيم الذات عبر التأثير على اختيار الأهداف، فالالتزام الداخلي تجاه الهوية الجماعية أو الدينية التي تصنع (من نكون) يسبق اختيار الإنسان لأهداف حياته، فالهوية الجماعية للفرد تؤثر ليس على اختيار الأهداف في حقيقة الأمر وإنما على اكتشاف الأهداف قبل ذلك، والذي يتطلب من الفرد معرفة هوية انتمائه، فالأهداف التي يمكن اختيارها هي الأهداف التي تسمح بها الهوية الجماعية للفرد، واذا كانت هذه الهوية قائمة على العقيدة، فستكون الأهداف أيضاً مرتبطة بما تسمح به العقيدة[2]. فمثلاً لا يمكن لفرد أن يختار لنفسه هدف أن يصبح مغنياً إذا كانت عقيدته تحرم الغناء من أساسه.
- تنظيم الأولويات: إن إضفاء القدسية على بعض الأهداف بحيث تجعل منها أولوية في الحياة، يقلل من التضارب بين تلك الأهداف فيجعل التعامل معها وتنظيمها أسهل، فلن تجد هدفاً مقبولاً من العقيدة وآخر مرفوضاً، فإما أن تكون كلها مقبولة أو كلها محرمة، كما أن كون بعض الأهداف والغايات واجبة من وجهة نظرها وأخرى

---

(١) Religion :McCullough

(٢) On identity :Benoist

مستحبة وغيرها مباح، إلى جانب أن بعض الرغبات قد تكون مكروهة، يساعد على تنظيمها وعلى حسم الاختيارات، فالفرد الملتزم لن يختار هدفاً غير محبذ عقائدياً، وبالعكس فقد يتحول شيء كان غير مرغوباً فيه بالنسبة لذوقه العام، إلى شيء أساسي عنده بسبب إضفاء العقيدة قدسية عليه[١].

- إصلاح الذات: العقيدة تؤثر في مراقبة الذات بسبب وجود شعائر كالدعاء تحث على ذلك وتفعّل عملية مراقبة الذات، فبعض الشعائر توضح للإنسان مواضع التقصير التي قد يقع فيها وتحذره منها وتبين له المنهج والسبيل إلى اتقائها والبدائل الحسنة والصالحة التي يمكنه التعويض بها عنها، وبالتالي اذا لاحظ الفرد بأنه مخالف لآداب وسنن عقيدته، فقد يسعى للبحث عن فرص لإصلاح أوضاعه بما ينال الاستحسان والرضا من منظور عقائدي.
- برمجة الحياة: العقيدة تنظم الذات من خلال الشعائر التي تتضمن ممارسات وعمليات مبرمجة ومنظمة، كالصلوات والصوم وغيرها التي ترتبط بأوقات وظروف وإمكانيات وشروط معينة، وبالتالي فإن الفرد يستخدم إرادته ويوظف موارده وإمكانياته لكي تتوافق مع تحقيق الشروط التي يتطلبها إنجاز تلك الشعائر.
- فهم الحياة: إن الهوية القائمة على القيم أقوى من الهوية القائمة على المصالح، فالقيم توحد الهوية ويسهل التشارك فيها، بينما المصالح الشخصية تفرق ويصعب التشارك فيها[٢]. وإن القيم الثقافية والاجتماعية والسلوكية وغيرها التي تتضمنها العقائد قد تتحول إلى نماذج معيشية وحياتية لدى اتباعها، فأهمية العقيدة تنبع من قدرتها على أن تكون مصدراً لمفاهيم عامة وفي ذات الوقت مميزة للفرد وللمجتمع، كمفاهيم الكون والذات والعلاقة بينهما. ومن هذه الوظيفة الثقافية يتولد الدور الاجتماعي والنفسي للعقيدة، فالمفاهيم الدينية توفر إطار من الأفكار العامة التي تضفي معنى واضح على ما نختبره في حياتنا العقلية والعاطفية والأخلاقية[٣].

وفيما يتعلق بمضامين الشعائر الدينية لدى اتباع أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، فيمكن التأكيد على أن تلك الشعائر تساهم بصورة كبيرة في توحيد التوجهات العامة في المجتمعات الشيعية المتناثرة في كل بقاع العالم، فثقافة الشعائر الشيعية تولّد قيماً سلوكية

(١) Religion :McCulloug
(٢) On identity :Benoist
(٣) Religion as a Cultural System :Clifford

وأنماطاً فكرية تجعل من استجابات الشيعة تجاه قضايا الحياة واختيارهم لأهدافهم الفردية والاجتماعية وتنظيمهم لإيقاعات حياتهم أكثر اتساقاً وانسجاماً مع بعضهم البعض، ويدلل بصورة واضحة على أثر شعائرهم الدينية في الحفاظ على أعلى مستوى ممكن من هويتهم المشتركة.

وفيما يلي إشارات سريعة إلى القيم الثقافية التي تولدها الشعائر الدينية كالدعاء والزيارة والشعائر الحسينية، في نفوس وحياة الشيعة في كل زمان ومكان.

القيم الأساسية في الدعاء: ثقافة إصلاح الذات

هناك قيم ثقافية وتربوية وإنسانية وأخلاقية لا تحصى في الأدعية التي تركها الأئمة من آل الرسول (ص) لشيعتهم واتباعهم، ولكن يمكن القول بأنها تتمحور في غالبيتها حول قيمة عظمى هي قيمة إصلاح الذات، والتي يعبر عنها في الأدعية بالعديد من النصوص التي تؤكد على ضرورة التذلل للخالق سبحانه وتعالى، ومحاسبة الذات على أخطائها وآثامها المتعمدة وغير المتعمدة، وأهمية الاستغفار من الذنوب والخطايا، وطلب الهداية إلى الصواب من الله سبحانه وتعالى، وبالتالي السعي لإنشاء السيرة الصالحة التي تنجي الإنسان في دنياه وفي آخرته.

ونشير على سبيل المثال بصورة موجزة إلى مضامين دعاء الصباح، وهو دعاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والسلام، حيث يبدأ الدعاء بالتسبيح بذكر الله سبحانه وبيان قدرته وبديع خلقه، ثم يثني بالصلاة على رسوله وبيان فضله، ثم يسأل الله تعالى أسباب الصلاح والهداية والرحمة والخشوع إليه، بقوله: «...، وافْتَحِ اللّهُمَّ لَنا مَصاريعَ الصَّباحِ بِمَفاتيحِ الرَّحْمَةِ وَالفَلاحِ، وأَلْبِسْنِي اللّهُمَّ مِنْ أَفْضَلِ خِلَعِ الهِدايَةِ والصَّلاحِ، واغْرِسِ اللّهُمَّ بِعَظَمَتِكَ في شِرْبِ جَناني يَنابيعَ الخُشوعِ، وأَجْرِ اللّهُمَّ لِهَيْبَتِكَ مِنْ آماقي زَفَراتِ الدُّموعِ، وأَدِّبِ اللّهُمَّ نَزَقَ الخُرْقِ مِنّي بِأَزِمَّةِ القُنوعِ.

إلهي إنْ لَمْ تَبْتَدِئْني الرَّحْمَةُ مِنْكَ بِحُسْنِ التَّوْفيقِ فَمَنِ السّالِكُ بي إلَيْكَ في واضِحِ الطَّريقِ، وإنْ أَسْلَمَتْني أَناتُكَ لِقائِدِ الأَمَلِ والمُنى فَمَنِ المُقيلُ عَثَراتي مِنْ كَبَواتِ الهَوى، وإنْ خَذَلَني نَصْرُكَ عِنْدَ مُحارَبَةِ النَّفْسِ والشَّيْطانِ، فَقَدْ وَكَلَني خِذْلانُكَ إلى حَيْثُ النَّصَبِ والحِرْمانِ.

إلهي أَتَراني ما أَتَيْتُكَ إلاّ مِنْ حَيْثُ الآمالِ، أَمْ عَلِقْتُ بِأَطْرافِ حِبالِكَ إلاّ حينَ باعَدَتْني ذُنوبي عَنْ دارِ الوِصالِ، فَبِئْسَ المَطِيَّةُ الَّتي امْتَطَتْ نَفْسي مِنْ هَواها، فَواهاً لَها لِما سَوَّلَتْ لَها ظُنونُها ومُناها، وتَبّاً لَها لِجُرْأَتِها عَلى سَيِّدِها وَمَوْلاها.

إلهي قَرَعْتُ بابَ رَحْمَتكَ بيَدِ رَجائي، وهَرَبْتُ إلَيْكَ لاجئاً مِنْ فَرْطِ أَهْوائي، وعَلَّقْتُ بأَطْرافِ حبالِكَ أنامِلَ وَلائي، فَاصْفَحِ اللّٰهُمَّ عمَّا كُنتُ أَجْرَمْتُهُ مِنْ زَلَلي وخَطائي، وأَقِلْني مِنْ صَرْعَةِ رِدائي، فإنَّكَ سَيِّدي ومَوْلايَ ومُعْتَمَدي ورَجائي، وأنْتَ غايَةُ مَطْلُوبي ومُنايَ في مُنْقَلَبي ومَثْوايَ.

إلهي كَيْفَ تَطْرُدُ مسْكيناً الْتَجأَ إلَيْكَ مِنَ الذُّنُوبِ هارِباً، أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ مُسْتَرْشِداً قَصَدَ إلى جَنابِكَ ساعِياً، أَمْ كَيْفَ تَرُدُّ ظَمآناً وَرَدَ إلى حِياضِكَ شارِباً كَلا وحِياضُكَ مُتْرَعَةٌ في ضَنْكِ المُحُولِ وبابُكَ مَفْتُوحٌ لِلْطَّلَبِ والوُغُولِ وأَنْتَ غايَةُ المَسْئُولِ ونِهايَةُ المَأْمُولِ.

إلهي هذه أَزِمَّةُ نَفْسي عَقَلْتُها بعِقالِ مَشيَّتِكَ، وهذه أَعْباءُ ذُنُوبي دَرَأْتُها بعَفْوِكَ وَرَحْمَتِكَ، وهذه أَهْوائِيَ المُضِلَّةُ وَكَلْتُها إلى جَنابِ لُطْفِكَ ورَأْفَتِكَ، فَاجْعَلِ اللّٰهُمَّ صَباحي هذا نازِلا عَلَيَّ بضِياءِ الهُدى وبالسَّلامَةِ في الدِّينِ وَالدُّنْيا، ومَسائي جُنَّةً مِنْ كَيْدِ العدى ووِقايَةً مِنْ مُرْدِياتِ الهَوى، إنَّكَ قادِرٌ عَلى ما تَشاءُ، ...».

ثم يعود الدعاء إلى تسبيح الخالق وتمجيده وبيان عظمته وقدرته وفضله، ويدعوه سبحانه وتعالى إلى أن يمن على عبده الداعي بالمغفرة والتوبة والهداية وصلاح النفس وإزالة العسر وتيسير ذلك كله بفضله ورحمته.

وهذا دعاء يستحب تلاوته في كل صباح، وحين يواظب الإنسان على ذلك فإن هذه المضامين تكرس فيه ثقافة إصلاح الذات، فكيف اذا التزم الإنسان بالمواظبة على مختلف الأدعية والأذكار التي تتضمن معاني مشابهة تعزز ذات السياق وتتلى طوال حياته ليلاً ونهاراً وفي مختلف الأماكن والأوقات، خصوصاً وإن الشيطان وإغراءاته ووساوسه تفتح باب الانحرافات والآثام أمام بني البشر في كل زمان ومكان وتلاحقهم حتى آخر لحظة في حياتهم.

القيم الأساسية في الزيارة: ثقافة التولي والتبري

التولي والتبري والذي يعني اتباع أولياء الله وتوليهم والتبرؤ من أعداء الله والابتعاد عنهم، هو من اهم العبادات، وفي فقه الشيعة يعني التمسك بإمامة العترة الطاهرة من آل بيت محمد صلوات الله عليهم أجمعين، واتخاذهم مرجعية في أمور الدين كافة بل والدنيا، واعتبار الابتعاد عنهم وعدم الأخذ منهم انحراف عقائدي.

وإنما قلنا بأن هذه من أهم العبادات لأنه لا تقبل عبادة إلا إذا كانت صحيحة ولا تكون صحيحة إلا اذا كان طريقها صحيحاً.

قال الإمام الصادق (ع)[1]: «إن أول ما يسأل عنه العبد اذا وقف بين يدي الله جل جلاله، عن الصلوات المفروضات وعن الزكاة المفروضة وعن الصيام المفروض وعن الحج المفروض وعن ولايتنا أهل البيت، فإن أقر بولايتنا ثم مات عليها قبلت منه صلاته وصومه وزكاته وحجه، وإن لم يقر بولايتنا بين يدي الله جل جلاله، لم يقبل الله عز وجل منه شيئاً من أعماله».

وفي رواية أخرى عن الإمام الصادق (ع) عن أبيه عن آبائه (ع)، قال نزل جبرائيل على النبي (ص)، فقال: «يا محمد، السلام يقرئك السلام ويقول: خلقت السماوات السبع وما فيهن، والأرضين السبع ومن عليهن، وما خلقت موضعاً أعظم من الركن والمقام، ولو أن عبداً دعاني هناك منذ خلقت السماوات والأرضين، ثم لقيني جاحداً لولاية علي، لأكببته في النار».

وفي رواية عن الحارث بن يحي عن الإمام الباقر (ع) في قول الله تعالى: ﴿وإني لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾[2]، قال (ع): «ألا ترى كيف اشترط، و لم تنفعه التوبة أو الايمان والعمل الصالح، حتى اهتدى؟ والله لو جهد أن يعمل، ما قبل منه، حتى يهتدي».

قال ـ أي الحارث ـ قلت: إلى من جعلني الله فداك؟

قال (ع): «إلينا».

وعن الإمام الصادق (ع)، في كتاب له للمفضل بن عمر: «إنما يقبل الله من العباد العمل بالفرائض التي افترضها الله على حدودها، مع معرفة من دعا إليه».

وفي رواية عن زريق عن الإمام الصادق (ع)، قال: قلت له أي الأعمال أفضل بعد المعرفة؟ ـ أي معرفة أنهم الأئمة بعد رسول الله (ص).

قال (ع): «ما من شيء بعد المعرفة يعدل هذه الصلاة، ولا بعد المعرفة والصلاة شيء يعدل الزكاة، ولا بعد ذلك شيء يعدل الصوم، ولا بعد ذلك شيء يعدل الحج، وفاتحة ذلك كله معرفتنا، وخاتمته معرفتنا».

والخلاصة أن الدين الصحيح قائم على الولاية الصحيحة لأئمة المسلمين (ع) والتبرؤ من أعدائهم، فلا يمكن المزج بين ما يصدر عنهم وما يصدر عمن خالفهم، وإلا لأصبح ذلك ديناً آخر غير الدين الذي نزل على رسول الله محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وآله.

(١) المجلسي: بحار الأنوار: كتاب الإمامة: باب انه لا تقبل الأعمال إلا بالولاية
(٢) سورة طه ـ آية ٨٢

وأهمية شعيرة الزيارة لآل بيت رسول الله (ص) أنها تكرس هذه القيمة أي الارتباط بالمصادر الصحيحة للدين وهم محمد وآله عليهم السلام، وبالمضامين الدينية والدنيوية التي تحتويها.

وقد أسلفنا بأن الزيارات لأهل البيت (ع) كثيرة ومنتظمة طوال العام عبر المناسبات والمواسم، وهنا نشير بإيجاز شديد إلى أحد الأمثلة، وهو مقطع صغير من الزيارة الجامعة الكبيرة التي يزار بها جميع الأئمة عليهم الصلاة والسلام، حيث يقول نصها المروي عن الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام[1]:

«...، أَشْهَدُ أَنَّكُمُ الأَئِمَّةُ الرّاشِدُونَ الْمَهْدِيُّونَ الْمَعْصُومُونَ الْمُكَرَّمُونَ الْمُقَرَّبُونَ الْمُتَّقُونَ الصّادِقُونَ الْمُصْطَفَوْنَ الْمُطِيعُونَ للهِ الْقَوّامُونَ بِأَمْرِهِ الْعامِلُونَ بِإِرادَتِهِ الْفائِزُونَ بِكَرامَتِهِ، اصْطَفاكُمْ بِعِلْمِهِ وارْتَضاكُمْ لِغَيْبِهِ واخْتارَكُمْ لِسِرِّهِ واجْتَباكُمْ بِقُدْرَتِهِ وأَعَزَّكُمْ بِهُداهُ وخَصَّكُمْ بِبُرْهانِهِ وانْتَجَبَكُمْ لِنُورِهِ وأَيَّدَكُمْ بِرُوحِهِ ورَضِيَكُمْ خُلَفاءَ فِي أَرْضِهِ وحُجَجاً عَلى بَرِيَّتِهِ وأَنْصاراً لِدِينِهِ وحَفَظَةً لِسِرِّهِ وخَزَنَةً لِعِلْمِهِ ومُسْتَوْدَعاً لِحِكْمَتِهِ وتَراجِمَةً لِوَحْيِهِ وأَرْكاناً لِتَوْحِيدِهِ وشُهَداءَ عَلى خَلْقِهِ وأَعْلاماً لِعِبادِهِ ومَناراً فِي بِلادِهِ وأَدِلاَّءَ عَلى صِراطِهِ.

عَصَمَكُمُ اللهُ مِنَ الزَّلَلِ وآمَنَكُمْ مِنَ الْفِتَنِ وطَهَّرَكُمْ مِنَ الدَّنَسِ وأَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ وطَهَّرَكُمْ تَطْهِيراً، فَعَظَّمْتُمْ جَلالَهُ وأَكْبَرْتُمْ شَأْنَهُ ومَجَّدْتُمْ كَرَمَهُ وأَدَمْتُمْ ذِكْرَهُ ووَكَّدْتُمْ مِيثاقَهُ وأَحْكَمْتُمْ عَقْدَ طاعَتِهِ ونَصَحْتُمْ لَهُ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ ودَعَوْتُمْ إِلى سَبِيلِهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وبَذَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي مَرْضاتِهِ وصَبَرْتُمْ عَلى ما أَصابَكُمْ فِي جَنْبِهِ وأَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وآتَيْتُمُ الزَّكاةَ وأَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ ونَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وجاهَدْتُمْ فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ حَتّى أَعْلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ وبَيَّنْتُمْ فَرائِضَهُ وأَقَمْتُمْ حُدُودَهُ ونَشَرْتُمْ شَرائِعَ أَحْكامِهِ وسَنَنْتُمْ سُنَّتَهُ وصِرْتُمْ فِي ذلِكَ مِنْهُ إِلَى الرِّضا وسَلَّمْتُمْ لَهُ الْقَضاءَ وصَدَّقْتُمْ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ مَضى.

فَالرّاغِبُ عَنْكُمْ مارِقٌ، واللاّزِمُ لَكُمْ لاحِقٌ، والْمُقَصِّرُ فِي حَقِّكُمْ زاهِقٌ، والْحَقُّ مَعَكُمْ وفِيكُمْ ومِنْكُمْ وإِلَيْكُمْ وأَنْتُمْ أَهْلُهُ ومَعْدِنُهُ، ومِيراثُ النُّبُوَّةِ عِنْدَكُمْ، وإِيابُ الْخَلْقِ إِلَيْكُمْ وحِسابُهُمْ عَلَيْكُمْ، وفَصْلُ الْخِطابِ عِنْدَكُمْ وآياتُ اللهِ لَدَيْكُمْ، وعَزائِمُهُ فِيكُمْ ونُورُهُ وبُرْهانُهُ عِنْدَكُمْ وأَمْرُهُ إِلَيْكُمْ.

مَنْ والاكُمْ فَقَدْ والَى اللهَ ومَنْ عاداكُمْ فَقَدْ عادَى اللهَ ومَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ ومَنْ أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْغَضَ اللهَ ومَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ فَقَدِ اعْتَصَمَ بِاللهِ، ...»

(١) الصدوق: من لا يحضره الفقيه

وكما في شأن الدعاء، كذلك الزيارة، يكون للتكرار والمواظبة على هذه الشعائر أثراً كبيراً في تكريس العقيدة والهوية الشيعية الجماعية، حتى لو كان الشيعة متباعدون عن بعضهم بأجسادهم، ومتفرقون في مختلف أصقاع الأرض.

القيم الأساسية في النهضة الحسينية: ثقافة إصلاح المجتمع

وكما في الدعاء والزيارة، كذلك الأمر بالنسبة للنهضة الحسينية، فإحيائها يحيي ثقافة إصلاح المجتمع التي جعلها الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام عنواناً لتحركه ونهضته الكبرى، وقد قال (ع) في احدى خطبه لشيعته:

«...، اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا تنافساً في سلطان ولا التماساً من فضول الحطام، ولكن لنري المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبادك، ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك، ...»[1].

وقد حثت الأحاديث والروايات الشريفة على اتباع نهجه الشريف والاقتداء بسيرته المقدسة (ع)، فقد قال رسول الله (ص): "الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة".

وهذه واحدة من أهم القيم التي تتولد من إحياء ذكرى الحسين (ع) والشعائر الحسينية، أي اتباع الهداة من الأئمة (مصباح الهدى) وتحري سبيل النجاة (وسفينة النجاة)، إضافة التمييز بين الإمامة الحقة (الحسين عليه السلام) وإمامة الباطل (يزيد بن معاوية)، والمسئولية التي يجب أن تتحملها إمامة الحق ومن يسير على منهجها.

ومن القيم الثقافية التي تصب في قناة إصلاح المجتمع، هي ثقافة الدفاع عن الحرية ورفض الخضوع للعبودية (ألا وإن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة)[2]، وثقافة نصرة المظلوم (هل من ناصر ينصرنا؟)[3]، وثقافة الشهادة في سبيل الحق (ليرغب المؤمن في لقاء ربه محقاً، ألا ترون إلى الحق لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه)[4]، إضافة إلى قيمة اقتران العبادة والبطولة فقد كان أصحابه والذين قاتلوا معه واستشهدوا بين يديه هم قراء المصر من جهة وفرسان المصر من جهة أخرى كما ورد في وصفهم رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) شريفي: موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام
(٢) المصدر السابق
(٣) المصدر السابق
(٤) المصدر السابق

إن المواظبة على إحياء الشعائر الحسينية يكرس ثقافة الإصلاح في نفوس المسلمين من شيعة آل محمد (ع) بأقصى أبعادها ويجعلها جزء من تركيبتهم الذهنية والنفسية والسلوكية، بل أن شخصيتهم الاجتماعية لا تكاد تعرف من دون ذلك، حتى شهد عليهم مناوؤهم وسموهم بالروافض لرفضهم حكم الظالمين من الخلفاء والسلاطين.

الخلاصة: قيم الشعائر الدينية ثقافة إنسانيه متكاملة

وأخيراً نشير إلى أن جميع الشعائر الدينية ـ وليس فقط ما ذكر أعلاه ـ تحوي مضامين ثقافية عالية تساهم على تشكيل شخصية الملتزمين بها، فالصلاة بما فيها من معاني سامية جداً تتضمن ثقافة الالتفات إلى قيمة الوقت وآثاره اليومية على حياة الإنسان، وفي الحقيقة اغلب العبادات أن لم يكن كلها مرتبط بحركة الوقت مما يستدعي من الإنسان برمجة حياته بما يتوافق مع برامج الشعائر، والصوم إضافة إلى مضامينه العقائدية يعلم الإنسان قيمة التحكم في الذات والرغبات حتى المحللة منها، وقد يبرز هذا أكثر لدى من يواظبون على صوم الأيام والشهور المستحبة باختيارهم وبإرادتهم الحرة.

وقد أوردت دراسة لإحدى الجامعات الأمريكية[1] بأن للحج تأثيراً على الحجاج المسلمين من كل بقاع الأرض حيث أنه ينمي فيهم الايمان بالمساواة والتعايش مع الطوائف والأعراق المختلفة، كما يزيد من المواقف المساندة للمرأة فيما يتعلق بالتعليم والعمل، ويشيع حالة التوحد بين المسلمين بدون أن يكون لذلك ربط بازدياد حالة الكراهية لغيرهم، بل استنتجت الدراسة بأن الحجاج ينمو لديهم الايمان بالسلام والمساواة والتعايش مع مختلف أبناء الديانات الأخرى، وأن هذه الحالات تتولد بسبب احتكاك الحجاج بالآخرين القادمين من مختلف أصقاع الأرض، أي إن هذا يحصل نتيجة لممارستهم شعيرة الحج.

كما أن الحقوق المالية الشرعية كالخمس والزكاة تساعد على تنظيم ومراجعة الممارسات المالية للفرد خصوصاً وانها مرتبطة بحدود كمية (مقدار الخمس والزكاة) وزمنية (موعد إخراجهما) ونوعية (طبيعة المال المخمّس والمزكّى) وغير ذلك من القيم المرتبطة بعموم الشعائر الدينية.

(١) Estimating the Impact of the Hajj: Clingingsmith

الفصل العاشر
التعبئة الدينية

عملية الإحياء: تعبئة عامة

عمليات إحياء الشعائر الدينية تؤثر في حيوية المجتمع وأفراده من عدة نواحي، فهي تبث فيهم الطاقة وتبعث فيهم الهمة وتدفعهم للعمل وتحرك أوضاعهم في اتجاهات عديدة، وبصيغة أخرى تؤدي إلى تعبئة الناس والبيئة التي يعيشون فيها في عدة حقول، وسنتطرق هنا إلى التعبئة التي تولدها عملية الإحياء في الحالة الدينية الروحية والمعرفية.

وقد أشار القرآن الكريم وكذلك روايات أئمة أهل البيت (ع) إلى تأثير الشعائر والمقدسات في الحياة والمنافع العامة للناس، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ (الحج ٢٧ - ٢٨).

وهناك نوعان من التعبئة الدينية يتعرض لها الأفراد في عملية إحياء الشعائر، الأولى إيمانية والثانية معرفية.

أولاً: التعبئة الإيمانية

الايمان شرط مسبق للولوج إلى عالم الشعائر، فالشعائر يسبقها خضوع للسلطة التي تولد الشعائر، وهذا الخضوع ينتج عن الاعتقاد بعلو تلك السلطة وقدسيتها، وتكون الهيمنة ذات الطابع المقدس ضرورية للقبول بالمضمون الذي تشير إليه الشعائر.

وتقوم الشعائر بتعبئة الأفراد والمجتمعات بالفكر وبالسلوك وبالأدوار وبالوظائف وبالروح وبالالتزام الدينيين، من خلال العمليات الإحيائية التي تتداخل فيها النصوص والسياقات والأعمال والانفعالات، وقد تطرقنا لذلك في فصول سابقة فلا نعيده هنا، ولكن من الذي يتفاعل ويتأثر ويتعبأ بسبب هذه الشعائر؟

إن الذي يتعبأ دينياً بفضل تلك المشاعر هم الأشخاص والمجتمعات الذين يهيئون عمليات الإحياء، والذين يشاركون فيها، والذين يحضرون لمشاهدتها، والذين يعايشونها.

ويمكن الإشارة إلى خمسة أصناف من الشيعة يتأثرون ويتعبئون باستمرار بفضل عمليات إحياء الشعائر، وهم:

الصنف الأول: العوام من الشيعة

وهم فئة الشيعة الذين يلتزمون بالتراث الشعائري للتشيع ويشاركون في حضور الاحتفالات والمراسم والمواسم، ومشاركتهم تكون أحياناً بمجرد مشاهدة مراسم الاحتفال أو العزاء كما يحصل مثلاً في مراسم إحياء الشعائر الحسينية، أو بالمشاركة الفعلية في الأعمال الإحيائية كالسير في مواكب اللطم مثلاً في مراسم عاشوراء، أو كالجلوس في مجالس الدعاء الجماعية أو مجالس الخطابة في الحسينيات أو من خلال توزيع الحلوى مثلاً في ذكرى مواليد الأئمة عليهم الصلاة والسلام، بل تجد فيهم من يواظب على إحياء هذه الشعائر والإعداد لها والقيام بها وإنفاق الأموال عليها.

وهذا الصنف من الناس بالرغم من تمسكه وتفاعله مع عمليات إحياء الشعائر الجماعية، ترى فيه من يتساهل أو يتراخى في الالتزام والمواظبة على مجمل الالتزامات الدينية، بل قد تجد فيهم من يتورط في بعض الممارسات التي يعدها الدين انحرافاً كالتورط في شرب المسكرات أو التعدي على أموال بعض الناس أو خيانة أعراضهم. وهذا النوع من الناس بطبيعة الحال موجود في كل الأمم والطوائف، ولا يمكن القول بأن هناك طائفة في العالم يلتزم جميع أفرادها بكل توجيهاتها الدينية بأفضل صورة مطلوبة منهم.

وقد يعترض البعض على قبول مشاركة أمثال هؤلاء المتساهلون في التزاماتهم الدينية في إحياء الشعائر، بالقول بأن حضورهم في هذه المراسم يشيع نوع من أجواء الميوعة أو الخلل أو يضعف المناخ الروحاني للمناسبة، والجواب على هذا الاعتراض هو أن حضور هذا الصنف من الموالين في أجواء المراسم الشعائرية يؤدي إلى نتائج مفيدة، أهمها:

- التأكيد على الاندماج والتفاعل مع الهوية الجماعية للطائفة. يقول صاحب كتاب «الشعائر بين الدين والسياسة»[1] في ملاحظاته على مواكب عزاء عاشوراء في احدى المناطق اللبنانية: (لقد اجتذبت المسيرات جمهوراً مزركشاً من المتفرجين

---

(١) بندكتي: الشعائر بين الدين والسياسة

الذين وقفوا على جانبي الشارع ليشاهدوا المواكب، ...، ثمة أشخاص وهم الأقلية يركزون انتباههم على ما يجري من الشعائر ويرددون الأدعية وأبيات الشعر التي يسمعونها من مكبرات الصوت، ...، هناك صنف آخر من المتفرجين وهم الغالبية، فانهم يدردشون ويدلون بتعليقاتهم على الفرق المختلفة، مما لا يمنعهم عن التدخين وتناول المشروبات. يبدو أن المسيرة في نظر هؤلاء تمثل حدثاً احتفالياً يهم أهل المجتمع المحلي، ...، إن هؤلاء جميعاً يشاركون في ما يحدث أمامهم من شعائر احتفالية على درجات متفاوتة من الخبرة الوجدانية، ...، إنه أشبه ما يكون بتجمع شعبي أو تظاهرة سياسية يثبت من خلالها المجتمع المحلي كيانه وهويته المذهبية. لعل هؤلاء المتفرجين يعيشون ما يشبه خبرة تيقظ الوعي الجماعي، خبرة الانتماء إلى الزمرة المرجعية المذهبية ـ المدنية لكن على درجة منخفضة من الشدة والوضوح).

إن القيام برفض هؤلاء وعدم قبولهم في هذه الأجواء يؤدي إلى نتيجة سلبية خلاصتها ابتعادهم عن الجماعة المؤمنة ووقوعهم في غربة الهوية وضياع العقيدة.

- تشكل فرصة لتنشيط الذاكرة الجماعية ولتعزيز التماسك الجماعي مع الطائفة، وقد اشرنا إلى هذا الموضوع سابقاً، ويمكن القول بأن تنشيط الذاكرة الجماعية والتاريخية والثقافية لهذا الصنف هو أهم من بعض الأصناف الأخرى التي قد تكون أكثر التزاماً ووعياً، فالإنسان الملتزم الواعي يسعى بنفسه من أجل تعزيز إدراكه وارتباطه بهذه الأمور، بينما الإنسان العادي وبطبيعته المتساهلة والمتراخية يحتاج إلى من يصنع له الأجواء الدينية ويضعه فيها بحيث يشعر أنه جزء من تلك المراسم والأصوات والأدعية والألحان واللطم التي تفرض على الجميع جواً احتفالياً مليئاً بالمعاني والمفاهيم والوسوم الدينية، وفي نفس الوقت بعيداً عن الملل أو الشعور بالكلل أو الوحدة أو الغربة الثقافية.

- الشعائر يمكن مع الزمن أن تتحول إلى أداة للمواظبة على الأوامر والنواهي الدينية وللالتزام الأكثر منهجيةً وعمقاً لدى الفرد.

أورد الكافي[1] رواية عن رجل يدعى يزيد بن خليفة، وهو رجل من بني الحارث بن كعب، قال: «أتيت المدينة وزياد بن عبيد الله الحارثي عليها، فاستأذنت على أبي عبدالله ـ أي الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام ـ فدخلت وسلمت عليه وتمكنت من مجلسي.

(١) الحكيم: فاجعة الطف عن كتاب الكافي للشيخ محمد بن يعقوب لكليني

قال: فقلت لأبي عبدالله (ع): إني رجل من بني الحارث بن كعب، وقد هداني الله عز وجل إلى محبتكم ومودتكم أهل البيت.

فقال لي أبو عبدالله (ع): «وكيف اهتديت إلى مودتنا أهل البيت؟! فوالله إن محبتنا في بني الحارث بن كعب لقليل!».

فقلت له: جعلت فداك، إن لي غلاماً خراسانياً، وهو يعمل القصارة، وله همشهريجون[1] أربعة، وهم يتواعدون كل جمعة، فيقع الدعوة على رجل منهم، فيصيب غلامي كل خمس جمع جمعة، فيجعل لهم النبيذ واللحم.

ثم اذا فرغوا من الطعام واللحم جاء بإجانة فملأها نبيذا، ثم جاء بمطهرة، فإذا ناول إنساناً منهم قال له: لا تشرب حتى تصلي على محمد وآل محمد، فاهتديت إلى مودتكم بهذا الغلام.

فقال لي (ع): «استوص به خيراً، واقرأه مني السلام، وقل له: يقول لك جعفر بن محمد: انظر شرابك هذا الذي تشربه فإن كان يسكر كثيره فلا تقربن قليله، فإن رسول الله (ص) قال: كل مسكر حرام، وقال (ص): ما أسكر كثيره فقليله حرام».

قال يزيد بن خليفة: فجئت إلى الكوفة، وأقرأت الغلام السلام من جعفر بن محمد (ع).

قال: فبكى ـ أي الغلام.

ثم قال لي: اهتم بي جعفر بن محمد (ع) حتى يقرئني السلام؟!

قلت: نعم، وقد قال لي: قل له: انظر شرابك هذا الذي تشربه فإن كان يسكر كثيره فلا تقربن قليله، فإن رسول الله (ص) قال: كل مسكر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام، وقد أوصاني بك، فاذهب فأنت حر لوجه الله تعالى.

فقال الغلام: والله إنه لشراب ما يدخل جوفي ما بقيت في الدنيا.

ونلاحظ في هذا الحديث عدة أمور: أولها أن بداية الموضوع هو التقاء خمسة أشخاص يبدو أنهم كلهم أو غالبيتهم من الشيعة، وليس فقط الغلام، وأنهم يتلاقون لأنسهم باللقاء باعتبار أنهم في غربة، ولتداول ذكر أمور تهمهم ومنها على ما يبدو ذكر آل بيت رسول الله (ص) وإن عرضاً (لقوله: لا تشرب حتى تصلي على محمد وآل محمد)، وإن هذا الغلام يكون اللقاء عنده مرة كل خمسة أسابيع، ومع ذلك فقد أثر هذا اللقاء الذي يحصل كل

(١) يعني: جماعة من أهل بلده. والكلمة فارسية الأصل.

خمسة أسابيع على سيد الغلام (ويصعب أن يتأثر سيد من عبده أو غلامه) ودفعه إلى التشيع بالرغم من أنه من بيئة غير ذات مودة لأهل البيت (ع) (فوالله إن محبتنا في بني الحارث بن كعب لقليل).

ويبدو أن مجلسهم كان يحفل بذكر آل محمد (ع) والا لما تأثر سيده بذلك، فلو كانوا يجتمعون فقط للأكل والشرب والأنس، لما كان من مبرر للسيد للاهتداء إلى ولاية أهل البيت (ع).

كما يلاحظ أن هذا الغلام بالرغم من ذلك فإنه يأتي ببعض المحرمات كشربه للنبيذ، مما يدل على أنه من المتساهلين أو الجاهلين ببعض أمور دينه، ومع ذلك فإن الإمام (ع) لم يعنفه، وإنما أرشده للصواب بأسلوب حافظ فيه على احترامه دون تنقيص أو إهانة، وقد أدى الموضوع كله في النهاية إلى حرية الغلام وامتناعه عن المسكر وتثبيت إيمانه (ما بقيت في الدنيا).

- كما يمكن أن تكون المواظبة على مراسيم الشعائر وسيلة للتكفير عن الذنوب وزيادة الهداية بالنسبة لهذا الصنف من الناس، فمما لا شك فيه إن قسم من الشعائر الدينية هو تعبدي في طبيعته كالزيارات والصلوات والأدعية والصيام المندوب وغير ذلك، والإتيان بهذه الأشياء بنية التقرب إلى الله سبحانه وتعالى وإلى صراطه الذي مثله رسول الله (ص) وأهل بيته (ع) يكفر عن الخطايا ويهدم الذنوب، كما إن بقية أنواع المراسم كمجالس الخطابة هي أيضاً من أنواع العبادة ولها نفس الأثر والنتيجة، وفي الحديث الشريف: «من استمع إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان عن الشيطان فقد عبد الشيطان».

الصنف الثاني: الناشطون من الشيعة

المقصود بهذا الصنف من الشيعة الأفراد أو الهيئات التي تنشط في حقل ما كالسياسة أو الاجتماع أو الثقافة أو الدعوة الدينية أو ما أشبه، فهؤلاء عادةً ما يستخدمون الحسينيات ومراكز الأنشطة الشعائرية للترويج لأفكارهم وآرائهم وتصوراتهم للأمور من وجهة نظرهم كشيعة أو كممثلين عن بعض التيارات الشيعية، خصوصاً في البلدان التي يصعب فيها وجود مؤسسات سياسية أو ثقافية أو دينية كالأحزاب السياسية الحرة والمراكز الإعلامية والثقافية المستقلة وما شابهها، فحينئذ تصبح مجالس الخطابة الحسينية ومراسم الشعائر الدينية

والحسينية متنفساً للتعبير عن الآراء الإصلاحية والأفكار التغييرية، وقد عبر بعض الباحثين عن ذلك بتسمية المآتم والحسينيات في البحرين مثلاً بالمؤسسات شبه السياسية[1]، بسبب توظيفها فيما ذكرناه.

ويمكن القول أن هذا الصنف من الشيعة يوظف الشعائر الدينية، من خلال ما يلي:

- استخدام الشعائر كوسيلة لتغذية الدوافع والمنطلقات والرؤى والقيم الإصلاحية في نفوس اتباع أهل البيت (ع) من خلال القيم الثقافية الراسخة في الشعيرة، كما أشرنا إلى ذلك فيما يتعلق بالشعائر الحسينية مثلاً.
- استخدام الخطاب والحماس المتولدان من إحياء المراسم الشعائرية في بث الأفكار والآراء السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها، ومطابقة خطاب النشطاء بالخطاب الكامن في المناسبة أو الشعيرة، وتهيئة نفوس وأذهان المشاركين في الإحياء لاستقبالها والتفاعل معها.
- استخدام الأجواء والمناخات الجماعية وحالة التضامن والتقارب التي تبرز في مواسم الإحياء لكسب المؤيدين والمساندين للأفكار التغييرية التي يطرحها النشطاء، وغالباً ما تكون هذه الأجواء فرصة ذهبية لتجنيد نشطاء جدد لدعم المشاريع الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية.

الصنف الثالث: المحافظون من الشيعة

والمقصود هنا أفراد الشيعة المواظبون بمستوى عال من الالتزام على عموم الممارسات والواجبات الدينية والعبادية والعقائدية الشرعية التي يتطلبها منهم كونهم شيعة يسيرون على منهج أهل البيت (ع) في الالتزام بالأوامر الشرعية واتقاء النواهي والمنكرات، وهؤلاء يستفيدون من المناخات الإحيائية للشعائر، من خلال:

- المشاركة في المراسم الإحيائية للتعبير عن مدى التزامهم الديني والعقائدي، وذلك من خلال مساهماتهم ومشاركاتهم الوجدانية وتركيزهم في الأدوار التي يقومون بها في عملية الإحياء حتى لو كان ذلك الدور هو فقط الجلوس في مجالس الخطابة والإنصات للخطيب وإظهار الاهتمام بما يجري حولهم من مراسم.

(١) الخوري: القبيلة والدولة في البحرين

- توظيف الأجواء الإحيائية والمراسم الشعائرية لتعزيز وزيادة مستوى ارتباطهم وتفاعلهم الفكري والسلوكي والثقافي والاجتماعي بالقيم التي تولدها الشعائر أو بالجهات المتنوعة التي تتحمل مسئولية إحيائها.

الصنف الرابع: العلمانيون من الشيعة

هؤلاء هم الشيعة الذين ولدوا كشيعة وانتموا جينياً إلى هذه الطائفة، ولكنهم في مراحل معينة وأساسية من حياتهم ابتعدوا عن الالتزامات والواجبات الدينية واهملوها وتبنوا آراء وأفكار يعبرون عنها بأنها أكثر تحرراً وأكثر حداثةً، فلا يتقيدون إلا لماماً بما يتطلبه الالتزام الديني من الإنسان العادي.

بالنسبة لهؤلاء، فإن المواسم الشعائرية الرئيسية كموسم عاشوراء يشكل فرصة دورية متقطعة للعودة إلى البيئة التي نشأوا فيها وتكونوا منها، وللرجوع إلى أحضان الهوية الجماعية وضبط النفس والسلوك بما يتماشى مع المناخات الروحية والدينية للموسم، وإن مؤقتاً وبصورة مخففة.

والجدير بالذكر أن غالبية هؤلاء بالرغم من محدودية التزاماتهم العقائدية إلا أنهم لا يشعرون بأن انتمائهم الشيعي يمثل انتقاصاً من كيانهم أو سمة سلبية فيما يخص أصل الهوية، فهم يعرفون بأن بقية الملل والنحل لها ما لها وعليها ما عليها، بل قد تجد منهم من لا يتردد إذا تطلب الأمر بالمجاهرة والمفاخرة بكونه شيعياً حتى لو كان في بيئة مناوئة للتشيع، كما إنهم قد يفاخرون بما يرونه ميزات موجودة في الفكر والتاريخ والمذهب الشيعي مما لا يتوافر بنفس المضمون والجوهر في المذاهب والملل والنحل الأخرى.

يقول احد المفكرين السياسيين العلمانيين من الشيعة[1]: «كانت الحسينية مدرستنا الأولى، تعرفنا من خلالها على تاريخ مدرسة أهل البيت، وزودتنا بحس نقدي يتعامل مع التاريخ بمنهج غير مقدس، وقد أصدم القارئ اذا أشرت إلى أن بعض كتابات في مثالب حدثت في التاريخ الإسلامي وانتبه إليها كتاب علمانيون في السنوات الأخيرة لم تكن تساوي أكثر من أسبوع من الأمسيات التي نقضيها في الحسينية للاستماع إلى قارئ مطلع على التاريخ، ...، وأنا من هذه المدرسة، إن الحسينية أدت دوراً في تشكيل وعينا الأول وصورة وجدان نقي خالص يترسم نقاء الدم في بطاح كربلاء».

(١) وهو السياسي والإعلامي العراقي حسن العلوي. انظر كتيب بعنوان التصدي للفضائيات الشيعية.

الصنف الخامس: الأجيال المتجددة من الشيعة

والمقصود هنا الأطفال والصغار الذين يرافقون آبائهم وأمهاتهم منذ نعومة أظافرهم في هذه المناخات ويضفون بوجودهم جواً عائلياً واجتماعياً حقيقياً على بيئة الإحياء، وتقوم الشعائر الدينية لدى الشيعة بتسهيل عملية تشكيل الهوية الجماعية والذاكرة الثقافية فيهم وتسد الكثير من الثغرات التي قد تحصل لو اعتمد الأمر فقط على تربية آبائهم وأمهاتهم لهم على مناهج أهل البيت (ع)، خصوصاً وأن بناء هذه الهوية فيهم يتم في أجواء وبمراسم احتفالية وجماعية وحركية وانفعالية غالباً ما تكون محببة لدى جميع الأطفال من أي فئة كانوا ولأي جماعة انتموا.

ثانياً: التعبئة المعرفية

توفر الشعائر الدينية فرصة كبيرة للتعرف أكثر على مضامين الدين ومعارفه، وخصوصاً من خلال المضامين والمعاني المنتشرة في نصوص الأدعية والزيارات الشريفة، والتي تدعم وتفسر العديد من المضامين الواردة في النصوص القرآنية الكريمة.

إن العديد من الأدعية والزيارات تتضمن توضيحات وتفسيرات أصولية وعقائدية تعالج أعقد الأمور المفاهيمية وأصعب المشكلات الفكرية، بصيغة سلسة وببصائر واضحة وإرشادات منهجية، ونحن إضافة إلى ما نقوم به من قراءة الأدعية وتلاوة الزيارات بخشوع وبكاء ولوعة، لابد وأن نتأمل في مضامينها ونتدبر في مفاهيمها، فإن لذلك أثر عميق في تثبيت الايمان وشحذ الفكر وتصفية الاعتقادات. وهنا لا بأس بإيراد بعض الأمثلة الموجزة والسريعة للتوضيح:

- المثال الأول هو دعاء الإمام الحسين (ع) في يوم عرفة، حيث يتضمن هذا الدعاء معاني عميقة حول التوحيد، فيشير مثلاً في أحدى فقراته إلى عدم قدرة أي كان على معرفة الله سبحانه وتعالى إلا من خلال ما عرف الله سبحانه وتعالى به نفسه وقدرته، فيقول نص الدعاء الشريف:

«(...)، يا مَنْ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ إلاّ هُوَ، يا مَنْ لا يَعْلَمُ ما هُوَ إلاّ هُوَ، يا مَنْ لا يَعْلَمُهُ إلاّ هُوَ، يا مَنْ كَبَسَ الأَرْضَ عَلى الماء وَسَدَّ الهَواءَ بِالسَّماء، يا مَنْ لَهُ أَكْرَمُ الأَسْماء، يا ذا المَعْرُوفِ الَّذي لا يَنْقَطِعُ أَبَداً، يا مُقَيِّضَ الرَّكْبِ لِيُوسُفَ فِي البَلَدِ القَفْرِ وَمُخْرِجَهُ مِنْ الجُبِّ وَجاعِلَهُ بَعْدَ العُبُودِيَّةِ مَلِكاً، يا رادَّهُ عَلى يَعْقُوبَ بَعْدَ أَنْ ابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ، يا كاشِفَ الضُّرِّ وَالبَلْوى

عَنْ أَيُّوبَ وَمُمْسكَ يَدَيْ إبْراهيمَ عَنْ ذَبْحِ ابْنِه بَعْدَ كِبَرِ سِنِّه وَفَناءِ عُمُرِه، يا مَنِ اسْتَجابَ لِزَكَرِيّا فَوَهَبَ لَهُ يَحْيى وَلَمْ يَدَعْهُ فَرْداً وَحيداً، يا مَنْ أَخْرَجَ يُونُسَ مِنْ بَطْنِ الحُوتِ، يا مَنْ فَلَقَ البَحْرَ لِبَني إسْرائيلَ فَأَنْجاهُمْ وَجَعَلَ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنَ المُغْرَقينَ، يا مَنْ أَرْسَلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَته، يا مَنْ لَمْ يَعْجَلْ عَلى مَنْ عَصاهُ مِنْ خَلْقِه، يا مَنِ اسْتَنْقَذَ السَّحَرَةَ مِنْ بَعْدِ طُولِ الجُحُودِ وَقَدْ غَدَوا في نِعْمَته يَأْكُلُونَ رِزْقَهُ وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ وَقَدْ حادُّوهُ وَنادُّوهُ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، يا اللهُ يا اللهُ يا بَديءُ، يا بَديعُ لا نِدَّ لكَ، يا دائماً لا نَفادَ لكَ، يا حَيّاً حينَ لا حَيَّ، يا مُحْيِيَ المَوْتى، يا مَنْ هُوَ قائمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ، يا مَنْ قَلَّ لَهُ شُكْري فَلَمْ يَحْرِمْني، وَعَظُمَتْ خَطيئَتي فَلَمْ يَفْضَحْني، وَرَآني عَلى المَعاصي فَلَمْ يَشْهَرْني، يا مَنْ حَفِظَني في صِغَري، يا مَنْ رَزَقَني في كِبَري، يا مَنْ أَياديه عِنْدي لا تُحصى وَنِعَمُهُ لا تُجازى، يا مَنْ عارَضَني بِالخَيْرِ وَالإحْسانِ وَعارَضْتُهُ بِالإساءَةِ وَالعِصْيانِ، يا مَنْ هَداني لِلإيمانِ مِنْ قَبْلِ أَنْ أَعْرِفَ شُكْرَ الامْتِنانِ، ...».

وفي فقرة أخرى يشير الدعاء على لسان الإمام (ع) إلى طرق التعرف على الخالق سبحانه وتعالى من خلال الآثار والعلامات التي تملأ الحياة من حولنا، فيقول:

«...، إلهي ما أَقْرَبَكَ منّي وَأَبْعَدَني عَنْكَ، وَما أَرْأَفَكَ بي، فَما الَّذي يَحْجُبُني عَنْكَ، إلهي عَلِمْتُ باخْتِلافِ الآثارِ وَتَنَقُّلاتِ الأَطْوارِ أَنَّ مُرادَكَ منّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إلَيَّ في كُلِّ شَيْءٍ حَتّى لا أَجْهَلَكَ في شَيْءٍ، إلهي كُلَّما أَخْرَسَني لُؤْمي أَنْطَقَني كَرَمُكَ، وَكُلَّما آيَسَتْني أَوْصافي أَطْمَعَتْني مِنَنُكَ، إلهي مَنْ كانَتْ مَحاسِنُهُ مَساوِيَ فَكَيْفَ لا تَكُونُ مَساوِؤُهُ مَساوِيَ، وَمَنْ كانَتْ حَقائِقُهُ دَعاوِيَ فَكَيْفَ لا تَكُونُ دَعاواهُ دَعاوِيَ، ...».

وفي فقرة ثالثة إشارة إلى عدم صلاحية الاعتماد على العقل فقط للتعرف عليه سبحانه وتعالى فالعقل محدود القدرة وهو مخلوق من الله فكيف يعرّف المخلوق خالقه من دون الرجوع إليه سبحانه، فيقول (ع):

«...، كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِه مُفْتَقِرٌ إلَيْكَ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لكَ حَتّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِرَ لكَ، مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إلى دَليلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ إلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً، إلهي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إلى الآثارِ فَارْجِعْني إلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوارِ وَهِدايَةِ الاسْتِبْصارِ،...» الخ.

وقد امتلأ دعاء عرفات بهذه البصائر الرفيعة، فمن أراد التبصر فيها فليرجع إلى الدعاء ويتأمل في محتوياته ومضامينه العالية.

– المثال الثاني هو دعاء الندبة والذي يفسر في ثناياه العديد من القضايا العقائدية المتعلقة بموضوع الإمامة والولاية الكونية للأنبياء والأوصياء (ع) ومنازلهم في الدنيا والآخرة ومكارمهم وأدوارهم وآثارهم على الخلق، وكيفية اختيارهم وعلة اصطفائهم، فيقول نص الدعاء على لسان الإمام الحجة (عج):

«الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ وَصَلّى اللهُ عَلى سَيِّدنا مُحَمَّد نَبيّه وَآله وَسَلَّمَ تَسليماً، اللّهُمَّ لك الحَمدُ عَلى ما جَرى بِه قَضاؤُكَ في أوْليائكَ، الَّذينَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لنَفْسكَ وَدينك، إذْ اخْتَرْتَ لَهُمْ جَزيلَ ما عنْدَكَ منَ النَّعيم المُقيم الَّذي لا زَوال لَهُ وَلا اضْمحْلالَ، بَعْدَ أنْ شَرَطْتَ عَلَيْهِمُ الزُّهْدَ في دَرَجات هذه الدُّنيا الدَّنيَّة وَزُخْرُفها وَزبْرجها، فَشَرَطوا لكَ ذلكَ، وَعَلمْتَ منْهُمُ الوَفاءَ به، فَقَبلْتَهُمْ وَقَرَّبْتَهُمْ وَقَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّكْرَ العَليَّ وَالثَّناءَ الجَليَّ، وَأهْبَطْتَ عَلَيْهِمْ مَلائكَتَكَ وَكَرَّمْتَهُم بوَحْيكَ، وَرَفَدْتَهُمْ بعلْمكَ، وَجَعَلْتَهُمُ الذَّريعَةَ إلَيْكَ وَالوَسيلَةَ إلى رضْوانكَ، فَبَعْضٌ أسْكَنْتَهُ جَنَّتَكَ إلى أنْ أخْرَجْتَهُ منها، وَبَعْضٌ حَمَلْتَهُ في فُلْككَ وَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ منَ الهَلَكَة برَحْمَتكَ، وَبَعْضٌ اتَّخَذْتَهُ لنَفْسكَ خَليلاً وَسَألَكَ لسانَ صدْق في الآخرينَ فَأجَبْتَهُ وَجَعَلْتَ ذلكَ عَليّاً، وَبَعْضٌ كَلَّمْتَهُ منْ شَجَرَة تَكْليماً وَجَعَلْتَ لَهُ منْ أخيه رِدءاً وَوَزيراً، وَبَعْضٌ أوْلَدْتَهُ منَ غَيْر أب وَآتَيْتَهُ البَيِّنات وَأيَّدْتَهُ برُوح القُدُس، وَكُلٌّ شَرَعْتَ لَهُ شَريعَةً وَنَهجْتَ لَهُ منْهاجاً، وَتَخَيَّرْتَ لَهُ أوْصياء مُسْتَحْفظاً بَعْدَ مُسْتَحْفظ، منْ مُدَّة إلى مُدَّة، إقامَةً لدينكَ وَحُجَّةً على عبادكَ، وَلئَلا يَزُولَ الحَقُّ عَنْ مَقَرّه وَيَغْلبَ الباطلُ عَلى أهْله، وَلا يَقُولَ أحَدٌ لَوْلا أرْسَلْتَ إلَيْنا رَسُولاً مُنْذراً وَأقَمْتَ لَنا عَلَماً هادياً فَنَتَّبعَ آياتكَ منْ قَبْل أنْ نَذلَّ وَنَخْزى، إلى أنْ انْتَهَيْتَ بالأمْر إلى حَبيبكَ وَنَجيبكَ مُحَمَّد صَلّى اللهُ عَلَيْه وَآله فَكانَ كَما انْتَجَبْتَهُ، سَيِّدَ مَنْ خَلَقْتَهُ، وصَفْوَةَ مَن اصْطَفَيْتَهُ، وَأفْضَلَ مَن اجْتَبَيْتَهُ، وَأكْرَمَ مَن اعْتَمَدْتَهُ، قَدَّمْتَهُ عَلى أنْبيائكَ، وَبَعَثْتَهُ إلى الثَّقَلَين منْ عبادكَ، وَأوْطأتَهُ مَشارقَكَ وَمَغاربَكَ، وَسَخَّرْتَ لَهُ البُراقَ، وَعرَجْتَ برُوحه إلى سَمائكَ، وَأوْدَعْتَهُ علْمَ ما كانَ وَما يَكُونُ إلى انْقضاء خَلْقكَ، ...»الخ.

ويشير الدعاء إلى قضية محورية ساهمت في توجيه مسار الأمة ومصيرها وهي قضية الوصية والإمامة الإلهية بعد الرسالة المحمدية، وكيف أن رسول الله (ص) أقام هادياً للناس من بعده هو علي بن أبي طالب (ع) وأسباب هذا الاختيار وعلله، فيقول النص الشريف:

«...، فَلَمّا انْقَضَتْ أيّامُهُ أقامَ وَليَّهُ عَليَّ بْنَ أبي طالب صَلَواتُكَ عَلَيْهما وَآلهما هادياً، إذْ كانَ هُوَ المُنْذرَ وَلكُلِّ قَوْم هاد، فَقالَ وَالمَلأُ أمامَهُ مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَليٌّ مَوْلاهُ، اللّهُمَّ وَالِ مَنْ والاهُ وَعاد مَنْ عاداهُ، وَانْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَقالَ مَنْ كُنْتُ أنا نَبيَّهُ فَعَليٌّ أميرُهُ، وَقالَ أنا وَعَليٌّ منْ شَجَرَة واحدَة وَسائرُ النّاس منْ شَجَر شَتّى، وَأحَلَّهُ مَحلَّ هارُونَ منْ مُوسى، فَقالَ لَهُ أنْتَ منّي بمَنْزلَة هارُونَ منْ مُوسى إلاّ أنَّهُ لا نَبيَّ بَعْدي، وَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ سَيِّدَةَ نساء

العالَمِينَ، وَأَحلّ لَهُ مِنْ مَسْجِده ما حَلَّ لَهُ، وَسَدَّ الأَبْوابَ إلاّ بابَهُ، ثُمَّ أَوْدَعَهُ عِلْمَهُ وَحِكْمَتَهُ فَقالَ أَنا مَدينَةُ العِلْم وَعَلِيٌّ بابُها، فَمَنْ أَرادَ المَدينَةَ وَالحِكْمَةَ فَلْيَأْتِها مِنْ بابِها، ثُم قالَ أَنْتَ أَخي وَوَصيّي وَوارِثي، لَحْمُكَ مِنْ لَحْمي وَدَمُكَ مِنْ دَمي، وَسِلْمُكَ سِلْمي وَحَرْبُكَ حَرْبي، وَالإيمانُ مُخالِطٌ لَحْمَكَ وَدَمَكَ كَما خالَطَ لَحْمي وَدَمي، وَأَنْتَ غَداً عَلى الحَوْضِ خَليفَتي، وَأَنْتَ تَقْضي دَيْني وَتُنْجِزُ عِداتي، وَشيعَتُكَ عَلى مَنابِرَ مِنْ نُورٍ مُبْيَضَّةً وُجُوهُهُمْ حَوْلي في الجَنَّةِ وَهُمْ جيراني، وَلَوْلا أَنْتَ يا عَلِيُّ لَمْ يُعْرَفِ المُؤْمِنُونَ بَعْدي، وَكانَ بَعْدَهُ هُدىً مِنَ الضَّلالِ وَنُوراً مِنَ العَمى، وَحَبْلَ اللهِ المَتينَ وَصِراطَهُ المُسْتَقيمَ، ...» الخ.

- المثال الثالث هو زيارة أمير المؤمنين (ع) الخاصة بيوم المبعث الشريف، حيث يشير نص الزيارة إلى مناقب الأمير (ع) والعلل الظاهرة التي رجحت ميزانه ليكون هو دون غيره الوصي والإمام بعد رسول الله (ص)، فيقول النص الشريف:

«...، أَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ أَوَّلَ القَوْمِ إِسْلاماً، وَأَخْلَصَهُمْ إِيماناً وَأَشَدَّهُمْ يَقيناً، وَأَخْوَفَهُمْ للهِ وَأَعْظَمَهُم عَناء، وَأَحْوَطَهُمْ عَلى رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآله، وَأَفْضَلَهُمْ مَناقِبَ وَأَكْثَرَهُمْ سَوابِقَ، وَأَرْفَعَهُمْ دَرَجَةً وَأَشْرَفَهُمْ مَنْزِلَةً، وَأَكْرَمَهُمْ عَلَيْه، فَقَوِيْتَ حينَ وَهَنُوا، وَلَزِمْتَ مِنْهاجَ رَسُولِ اللهِ صَلّى اللهُ عَلَيهِ وَآله، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ كُنْتَ خَليفَتَهُ حَقّاً، لَمْ تُنازَعْ بِرَغْمِ المُنافِقينَ وَغَيْظِ الكافِرينَ وَضِغْنِ الفاسِقينَ، وَقُمْتَ بِالأَمْرِ حينَ فَشِلُوا، وَنَطَقْتَ حينَ تَتَعْتَعُوا، وَمَضَيْتَ بِنُورِ اللهِ إِذْ وَقَفُوا، فَمَنِ اتَّبَعَكَ فَقَدْ اهْتَدى، كُنْتَ أَوَّلَهُمْ كَلاما وَأَشَدَّهُمْ خِصاما وَأَصْوَبَهُمْ مَنْطِقاً، أَسَدَّهُمْ رَأْياً وَأَشْجَعَهُمْ قَلْباً وَأَكْثَرَهُمْ يَقيناً، وَأَحْسَنَهُمْ عَمَلاً وَأَعْرَفَهُمْ بِالأُمُورِ، كُنْتَ لِلْمُؤْمِنينَ أَباً رَحيماً إِذْ صارُوا عَلَيكَ عِيالاً، فَحَمَلْتَ أَثْقالَ ما عَنْهُ ضَعُفُوا، وَحَفِظْتَ ما أَضاعُوا، وَرَعَيْتَ ما أَهْمَلُوا وَشَمَّرْتَ إِذْ جَبُنُوا، وَعَلَوْتَ إِذْ هَلِعُوا، وَصَبَرْتَ إِذْ جَزِعُوا، كُنْتَ عَلى الكافِرينَ عَذاباً صَبّاً وَغِلْظَةً وَغَيْظاً، وَلِلْمُؤْمِنينَ غَيْثاً وَخِصْباً وَعِلْماً، لَمْ تُفْلَلْ حُجَّتُكَ وَلَمْ يَزِغْ قَلْبُكَ، وَلَمْ تَضْعُفْ بَصيرَتُكَ، وَلَمْ تَجْبُنْ نَفْسُكَ، ...» الخ.

- وفي زيارة أخرى وهي زيارة يوم ميلاد رسول الله صلى الله عليه وآله تعريف واسع بأمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام ومناقبه التي لا يضاهيها في أحد من الناس حيث يرد له فيها أكثر من سبعين توصيفاً، حيث تشير إلى ذلك بعض فقراتها مثل:

«السَّلامُ عَلَيكَ يا وَصيَّ الأَوْصياء، السَّلامُ عَلَيكَ يا عِمادَ الأَتْقياء، السَّلامُ عَلَيكَ يا وَلِيَّ الأَوْلِياء، السَّلامُ عَلَيكَ يا سَيِّدَ الشُّهَداء، السَّلامُ عَلَيكَ يا آيَةَ اللهِ العُظْمى، السَّلامُ عَلَيكَ يا خامِسَ أَهْلِ العَباء، ...»

«...، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ وُلِدَ في الكَعْبَة وزُوِّجَ في السَّماء بسَيِّدَة النِّسَاء وكانَ شُهُودُها المَلائكَةُ الأَصْفياءَ، السَّلامُ عَلَيكَ يا مصْباحَ الضِّياء، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ خَصَّهُ النَّبيُّ بجَزيل الحباء، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ باتَ علَى فراش خاتَم الأَنْبياء ووَقاهُ بنَفْسه شَرَّ الأَعْداء، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ رُدَّتْ لَهُ الشَّمْسُ فَسامَى شَمْعُونَ الصَّفَا، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ أَنْجَى اللهُ سَفينَةَ نُوح باسْمه واسْم أَخيه حَيْثُ التَطَمَ الماءُ حَوْلَها وطَمَى، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ تابَ اللهُ به وبأَخيه علَى آدَمَ إذْ غَوَى، السَّلامُ عَلَيكَ يا فُلْكَ النَّجاة الَّذي مَنْ رَكبَهُ نَجا ومَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ هَوَى، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ خاطَبَ الثُّعْبانَ وذئْبَ الفَلا، السَّلامُ عَلَيكَ يا أَميرَ المُؤْمنينَ ورَحْمَةُ الله وبَرَكاتُهُ، ...»

«...، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ كَفَى اللهُ المُؤْمنينَ القتالَ به يَوْمَ الأَحْزاب، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ أَخْلَصَ لله الوَحْدانيَّةَ وأَنابَ، السَّلامُ عَلَيكَ يا قاتلَ خَيْبَرَ وقالعَ الباب، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ دَعاهُ خَيْرُ الأَنام للْمَبيت علَى فراشه فَأَسْلَمَ نَفْسَهُ للْمَنيَّة وأَجابَ، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ لَهُ طُوبَى وحُسْنُ مَآب ورَحْمَةُ الله وبَرَكاتُهُ، ...»

«...، السَّلامُ عَلَيكَ يا عصْمَةَ المُؤْمنينَ، السَّلامُ عَلَيكَ يا مُظْهرَ البَراهينَ، السَّلامُ عَلَيكَ يا طَهَ ويَس، السَّلامُ عَلَيكَ يا حَبْلَ الله المَتينَ، السَّلامُ عَلَيكَ يا مَنْ تَصَدَّقَ في صَلاته بخاتَمه علَى المسْكين، السَّلامُ عَلَيكَ يا قالعَ الصَّخْرَة عَنْ فَم القَليب ومُظْهرَ الماء المَعين، السَّلامُ عَلَيكَ يا عَيْنَ الله النَّاظرَةَ ويَدَهُ الباسطَةَ ولسانَهُ المُعَبِّرَ عَنْهُ في بَريَّته أَجْمَعينَ، السَّلامُ عَلَيكَ يا وارثَ علْم النَّبيِّينَ ومُسْتَوْدَعَ علْم الأَوَّلينَ والآخرينَ وصاحبَ لواء الحَمْد وساقيَ أَوْليائه منْ حَوض خاتَم النَّبيِّينَ، السَّلامُ عَلَيكَ يا يَعْسُوبَ الدِّين وقائدَ الغُرِّ المُحَجَّلينَ ووَالدَ الأَئمَّة المَرْضيِّينَ ورَحْمَةُ الله وبَرَكاتُهُ، ...».

ويلاحظ بأن هذه التوصيفات وغيرها الواردة في نص الزيارة تؤكد على تميّز أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام وعلى أحقيته في الإمامة وعلى إنجازاته ونصرته للدين وعلى كفاءته العالية وقدرته على الحفاظ على سلامة هذا الدين وغيرها من الأمور التي تحث من خلال عرض النص الشريف لها على الالتزام أكثر بمنهج الإمام عليه السلام وهديه وطريقه الصافي وصراطه الواضح.

إن توضيح المعارف الواردة في نصوص الشعائر تساهم في الترويج لصلاحية العقيدة للحياة من خلال ربط المضامين الشعائرية بالقضايا المعاصرة، وقد أثبتت البحوث والإحصاءات والدراسات الحديثة لعلم اجتماع العقائد على مستوى العالم، عودة الناس من مختلف المذاهب

والأديان والملل إلى التمسك باعتقاداتهم الدينية والروحية[1]، وأحد ابرز مظاهر التعبير عن هذه العودة هو حجم الاهتمام بالشعائر الدينية لكل ملة وحجم المشاركة فيها[2]. إن ربط القضايا المعاصرة كقضايا السلوك الفردي أو الاستقرار النفسي أو الانحرافات المجتمعية أو الإصلاح السياسي أو الفساد الإداري أو النزاهة المالية أو غيرها، بالمضامين الشعائرية الموجودة في الأدعية والزيارات والشعائر الحسينية وإحياء السيرة النبوية والإمامية الشريفة، يساهم بلا شك في معالجة العديد من تلك القضايا اذا وجّهت لهذا الهدف بصورة ممنهجة، أو التخفيف منها اذا كان التقاطع فيما بينها عفوياً أو متروكاً للمصادفات الموسمية مثلاً. وسنحاول التطرق لبعض المعالجات في العناوين التي ستلي ضمن هذا الفصل.

(١) The zeal of the convert:PEW

(٢) يشير مركز PEW الأمريكي للأبحاث بان ما يقارب نصف الأمريكيين قد تحولوا عقائدياً، فهم إما تحولوا من عقيدة دينية إلى عقيدة أخرى، أو من عقيدة دينية إلى لا عقيدة (واللا عقيدة هي عقيدة بصيغة أخرى)، أو من لا عقيدة إلى عقيدة دينية، وأن ٦٩٪ من المتحولين يعتبرون المسألة العقائدية من الأمور الهامة جداً في حياتهم، وأن ٥١٪ منهم يقومون بتأدية الشعائر الدينية مرة في الأسبوع، وأن ٧٠٪ منهم يصلون بصورة يومية.

الفصل الحادي عشر
الشعائر الدينية وتعبئة المجتمع الشيعي

قال الإمام علي بن موسى الرضا عليه الصلاة والسلام في تفسير علة بعض الشعائر الدينية كالحج: "إنما أمروا بالحج لعلة الوفادة إلى الله عز وجل وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً مما مضى مستأنفاً لما يستقبل ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد وحظر النفس عن اللذات شاخصاً في الحر والبرد ثابتاً على ذلك دائما مع الخضوع والاستكانة والتذلل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من في شرق الأرض وغربها ومن في البر والبحر ممن يحج وممن لم يحج، من بين تاجر وجالب وبائع ومشتري وكاسب ومسكين ومكار وفقير وقضاء حوائج أهل الأطراف في المواضع الممكن لهم الاجتماع فيها مع ما فيه من التفقه ونقل أخبار الأئمة عليهم السلام إلى كل صقع وناحية، كما قال الله عز وجل: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] و﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ[2]﴾.

ويلاحظ في الحديث الشريف مجموعة من العلل النفسية والتربوية والدينية والاقتصادية والمعرفية وغيرها.

وهنا نركز على ثلاثة أبعاد يتم تعبئة المجتمع الشيعي فيها من خلال عملية إحياء الشعائر الدينية، وهي التعبئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

أولاً: التعبئة الاجتماعية: التضامن والتماسك

أحد تعريفات التماسك الاجتماعي لمجموعة ما، هو مدى تناغم مواقف وسلوكيات أعضائها معها، من خلال مجموعة من التأثيرات والآليات المتفاعلة في بيئتها[3].

---

(١) سورة التوبة ـ آية ١٢٢

(٢) سورة الحج ـ آية ٢٨

(٣) Social cohesion :Noah

بمعنى آخر، اذا كانت لدى المجموعة أفعال أو إرشادات أو تعليمات أو طقوس تولّد انجذاباً لدى أعضائها وتدفعهم للالتزام بتلك الأفعال أو الطقوس أو الإرشادات، وبالنتيجة تجعلهم متمسكين بعضويتهم، فهذا يعني بأن تلك المجموعة تعيش مستوى جيد من التماسك.

وسوف نرى في بحثنا هذا كيف أن الشعائر الدينية لدى شيعة آل محمد (ع) تساهم بصورة كبيرة في خلق التماسك الاجتماعي فيما بينهم.

يقول الإمام الصادق (ع): «تزاوروا فإن في زيارتكم إحياءً لقلوبكم، وذكراً لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطِّف بعضكم على بعض، فإن أخذتم بها رشدتم ونجوتم، وإن تركتموها ضللتم وهلكتم، فخذوا بها وأنا بنجاتكم زعيم»[1]، ويلاحظ هنا قوله (ع): «تعطف بعضكم على بعض» حيث يبين أحد آثار عملية الإحياء.

يقول علماء الاجتماع بأنه كلما كان الفرد منجذباً أكثر إلى مجموعته، كلما زاد اهتمامه برأي المجموعة في القضايا التي تعتبرها مهمة، وسيسعى أكثر إلى صياغة آراءه في هذه القضايا بما يتناغم مع رؤية المجموعة[2].

وحيث أن عملية إحياء الشعائر غالباً ما تكون جماعية وتتطلب تعاون شبكة من العاملين في الإحياء (راجع القسم السابق من الكتاب) فإن التأثير المتبادل بين الأعضاء يكون كبيراً، ويصبح رأي كل فرد منهم متعلقاً كالسنارة برؤية الشبكة أو المجموعة بصورة عامة، مما يخلق تجانساً وتماسكاً وتضامنا اجتماعياً بينهم.

يقول عالم الاجتماع دوركهايم[3] بأن القوة الاحتفالية للشعائر الدينية تكمن في قدرتها على إعادة إنشاء الزمرة من خلال إحياء روح التضامن بين أعضائها، مما يفضي إلى إعادة إنشاء النظام المجتمعي بأسره. وبهذا المعنى تتمتع الشعائر بقوة رمزية هائلة.

ويشير علماء آخرون[4] إلى أن الشعائر إذ تخرج الأسطورة إخراجاً مسرحياً على شكل أفعال رمزية متسلسلة ومتناسقة، إنما تفعّل قوتها الكامنة في موقف يتفاعل فيه فاعلون حقيقيون يؤدون تلك الأفعال الرمزية.

إن الإحياء يشكل فرصة للتواصل والتعارف والتعاون والتشبيك بالنسبة لعموم الأفراد الذين يحضرون أو يشاركون في الأجواء الإحيائية، وذلك للعوامل التالية:

(١) آل درويش: المجالس العاشورائية
(٢) Noah: Social cohesion
(٣) بندكتي: الشعائر بين الدين والسياسة
(٤) كلود ليفي ستروس- نقلاً عن الشعائر بين الدين والسياسة

- إحياء الشعائر يتطلب حضوراً جماعياً، ففي حالات الشعور القوي بالفرح أو بالحزن يتجه الناس للاجتماع ببعضهم البعض لتبادل المشاعر السارة أو الحزينة وإبراز تماسكهم وتضامنهم، وهذا ما يحصل مثلاً في احتفالات المواليد لدى شيعة أهل البيت (ع) وفي إحياء الشعائر الحسينية، وإن الحضور الشخصي في تلك المناسبات هو تعبير عن أهمية إبراز الانتماء إلى الجماعة التي تعظم هذه الشعائر[1].

يذكر عالم الاجتماع دوغلاس مارشال، بأن مجرد التلاقي بين أعضاء الجماعة في عملية الإحياء يشكل مصدراً قوياً للتقارب والتماسك، فهذا التلاقي على بساطته يتضمن إبراز الهوية، والتشابه، والانتماء، والقرب من بعض، وهذا كله يتولد من التجمع العفوي في مناسبة كإحياء ذكرى عاشوراء مثلاً.

- العملية الإحيائية تتطلب المشاركة، فحضور الأجواء الاحتفالية والتفاعل معها غالباً ما يدفع المتواجدين إلى المشاركة الوجدانية والحسية في الشعائر بالأفعال والأقوال والحركات والمشاعر، وهذه المشاركات تقوي حالة الاعتقاد بمفاهيم ومضامين هذه الشعائر، والا فلماذا التفاعل الوجداني معها؟ كما إن المشاركة تقوي الشعور بالمسئولية تجاه تلك المضامين والقيم[2].

- العملية الإحيائية تتطلب التنظيم، وقد تطرقنا في فصل سابق كيف تزرع الشعائر القيم التنظيمية في الإنسان، وحيث أن عملية الإحياء الجماعية هي في الحقيقة عبارة عن منظومة كبيرة من العمليات الإحيائية المتنوعة والمتناسقة مع بعضها البعض، فإن القيام بها يتطلب توافق على الأدوار بين المشاركين بصورة عامة، وتنسيق بين أفعالهم، وهذا التوافق والتنسيق يولد تفاهماً وتماسكاً لا شك فيه بين أعضاء الجماعة.

- تنظيم العمليات والممارسات الإحيائية للشعائر يتطلب التشبيك، أي ربط المجموعات والشبكات الاجتماعية والتنفيذية والاقتصادية والإدارية والثقافية (كرعاة الحسينيات، ورعاة المواكب، ورعاة المضايف، ومزينوا الشوارع، .. الخ) التي تمارس كل منها أدواراً معينة في الإحياء، ببعضها البعض وتنسيق أنشطتها لتتكامل وتتوالى وتتكاتف في سياق عملية الإحياء العامة، فكل مجموعة تعتبر بنية شبكية، والبنية الشبكية في علاقاتها الداخلية تولد إجماعاً أو تنسيقاً في السلوك والتفكير لتنفيذ الدور المطلوب منها، سواء كانت شبكة العلاقات صغيرة أو كبيرة.

(١) Shia Rituals :Elbadri
(٢) المصدر السابق

- تزدهر الممارسات التطوعية في عملية إحياء الشعائر الدينية المقدسة، مما يولد تضامناً اجتماعياً وتعاطفاً أخلاقياً بين أعضاء الجماعة.

تقول مؤلفة كتاب «رمزية الألـوان» عن مشاهداتها في المآتم النسائية في بعض قرى البحرين، بأن النساء يتطوعن بتنظيف المأتم وغسل الأواني التي تقدم فيها الشاي والقهوة وغيرها، تشرفاً بخدمة الإمام الحسين (ع) وأهل بيته والتبرك بذلك (حيث أن خدمة مأتم الحسين وشيعة الحسين هي خدمة للحسين عليه السلام)، وبعد الانتهاء ينصرفن إلى بيوتهن، ليعدن الكرة في الصباح ثم المساء، وهكذا دواليك طوال الموسم.

وتنقل عن سيدة من عائلة تمتلك أحد هذه المآتم ملاحظاتها في هذا الشأن، حيث تذكر مثلاً ما يجري ليلة ذكرى أربعين الإمام الحسين (ع)، بأن والدتها تدعو جاراتها للمساعدة في تنظيف وإعداد الأطعمة وغيرها من الاستعدادات لتلك الليلة، بعد أن يكون والدها قد أحضر الذبيحة للطبخ، فتحضر الجارات ويقمن بالمساعدة وكل ذلك من أجل الحسين (ع) والتبرك بذلك، وكل واحدة تقول للأخرى (طهري إيدش) وهي مقولة تتداولها النساء أيام عاشوراء، بمعنى طهري يدك بالمساهمة في خدمة الحسين عليه الصلاة والسلام.

وتشير هذه السيدة إلى أنهن في ليلة الوفاة (أي إحياء ذكرى الأربعين، وتسمى ليلة الوفاة تجاوزاً، حيث أن كل ليلة فيها ذكرى حزينة تسمى بذلك ويطلق على كل مناسبة من هذا النوع "تحاريم" بالعامية أي أن هذه الليلة وهذه المناسبة لها حرمة وقدسية) وبعد أن تجهز وجبة العشاء، يقمن بتوزيع الوجبة على الجيران والأهل من النساء، والعبارة التي يتداولنها (الله يعودكم، السنة وكل سنة إن شاء الله) أي نرجو لكم التوفيق لإعادة الكرة في كل عام، أما الرجال فإنهم يحضرون للعشاء في منزل صاحب المأتم، وبعد الانتهاء من وجبة العشاء يتم التوجه إلى المأتم (النساء لمأتم النساء، والرجال لمأتم الرجال) للمشاركة في التعزية على الإمام الحسين بالرثاء الحسيني، وإحياء تلك الليلة مواساةً لآل الرسول (ص)[١].

- وأخيراً فإن كل ما ذكرناه يشير إلى أن حضور الممارسات الإحيائية للشعائر يؤدي إلى إعادة إنتاج العلاقات الاجتماعية، في أوساط كل فئات المجتمع.

تقول الباحثة أمينة الفردان[٢]: ما لاحظته شخصياً بأن أيام عشرة محرم تكون فيها إعادة لإنتاج العلاقات الاجتماعية، حيث أن هناك نساء لم يلتقين على مدى شهور عدة وقد يصل

(١) الفردان: رمزية الألوان
(٢) المصدر السابق

إلى عام كامل ولكن في هذه الأيام فإن الناس يلتقون مرتين أو ثلاث مرات يومياً وبالتالي يؤدي ذلك إلى تفاعلهم من جديد.

وهناك نساء جدد ينضممن إلى المأتم من المستمعات للرثاء، وهؤلاء قد يكن ممن تزوجن حديثاً من رجال القرية أو من اللاتي انتقلن للعيش في القرية حديثاً فيتم التعرف عليهن.

إن كل هذه الحيوية في العلاقات تخلق تواصلاً وتعارفاً بين أتباع وأعضاء الجماعة الشيعية في كل مكان وتجدد التماسك والتضامن الداخلي بينهم، وكل ذلك بفضل إحياء الشعائر الدينية.

ثانياً: التعبئة الاقتصادية: ازدهار المراكز الشعائرية

عن هشام بن الحكم أنه سأل الإمام الصادق عليه السلام: ما العلة التي من أجلها كلّف الله العباد الحج والطواف بالبيت؟

فقال عليه السلام: «إن الله خلق الخلق وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين ومصلحتهم من أمر دنياهم فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد ولينتفع بذلك المكاري والجمّال ولتعرف آثار رسول الله (ص) وتعرف أخباره ويذكر ولا ينسى ولو كان كل قوم يتكلمون على بلادهم وما فيها هلكوا أو خربت البلاد وسقطت الجلب والأرباح وعميت الأخبار و لم تقفوا على ذلك فذلك علة الحج»[1].

كما تشير الرواية الكريمة فإن لإحياء الشعائر الدينية دور اقتصادي كبير ينعكس على المناطق التي تحيي الشعائر، كما ينعكس على المراكز الشعائرية الكبرى ككربلاء في العراق ومكة في الحجاز ومشهد في ايران، وغيرها من المدن المقدسة.

ولكن قبل الخوض في التعبئة الاقتصادية لعمليات الإحياء، من الجيد أن نقوم بإطلالة سريعة على الاقتصاد الشعائري.

ما هو اقتصاد الشعائر الدينية؟

أول ما يمكن الإشارة إليه بوضوح فيما يتعلق بعلاقة الشعائر الدينية باقتصاد المجتمع هو تحول المواسم الشعائرية إلى مواسم اقتصادية حيوية، حيث تروج في تلك المواسم البضائع والخدمات التي تحرك دورة المال والإنتاج والاستهلاك في المجتمع الشعائري.

---

(١) محمد: المقدسات الدينية

فمثلاً يمكن الإشارة إلى عينة من البضائع الشعائرية لدى الشيعة الإمامية، وهي:

- الملابس السوداء بصورة عامة للرجال والنساء والأطفال خلال موسم عاشوراء الطويل والذي يمتد طوال شهرين كل عام.
- الرموز الشعائرية والتي تستخدم كعلامات وشعارات لذات الموسم، كالرايات والأقمشة الملونة بألوان محددة (كالأحمر والأخضر) للمآتم الرجالية والنسائية ولمواكب العزاء.
- الأدوات الإلكترونية (مكبرات الصوت وأنظمة التسجيل الصوتي والكاميرات وغيرها) التي تستخدم في المجالس والمواكب.
- الرموز الشعائرية التي تنتج منها عينات صغيرة تباع بكميات هائلة للأطفال ويكاد لا يخلو منها بيت، كطبول العزاء، والزناجيل، والأعلام، واللوحات الفنية، ودبابيس الملابس وغيرها.
- المواد الغذائية كاللحوم والأرز والبهارات وعصير الفاكهة والقهوة والشاي والسكر والخضروات والمياه المعلبة وغيرها من الأطعمة التي يتم توفيرها باستمرار لعموم المشاركين بل ولغير المشاركين في عمليات الإحياء، وطوال الموسم.
- الرموز الدينية التي تنتج بصورة مصغرة كهدايا يعود بها زوار المدن المقدسة إلى بلادهم ليهدوها إلى أهاليهم.

وغير ذلك من المنتجات ذات الطابع الشعائري، ويمكن الإشارة أيضاً إلى الخدمات الاقتصادية التي تستهلك في أثناء المواسم الشعائرية، مثل:

- المواصلات الدولية والداخلية التي تستخدم لتنقل الزائرين والمعزين والسواح والمؤمنين الراغبين في المشاركة في مواسم الإحياء، وهذا الأمر يبدو أكثر وضوحاً في المدن المركزية للشعائر ككربلاء في عاشوراء ومكة في الحج وما شابهها.
- المواصلات الجوية أي الطيران والذي يستخدم بصورة مكثفة جداً في المواسم الشعائرية خصوصاً عند انتقال المؤمنين من مختلف بلاد العالم إلى المركز الرئيسي أو المدينة التي تشكل مهد للشعيرة.
- الخدمات السكنية كاستئجار الفنادق والشقق والمساكن للزوار في المدن الشعائرية المركزية، والتي ترتفع أسعارها بصورة مضاعفة في المواسم وتشكل دخلاً مربحاً لأصحابها.

- المطاعم والمطابخ العامة والخاصة التي تهيئ الأطعمة لمئات الألوف بل للملايين من الزوار خلال المواسم.
- شركات الاتصالات التي توفر خدمات الاتصال للملايين من الزوار الذين يتواصلون مع أوطانهم وأهاليهم.
- كما إن المواسم الشعائرية هي مواسم اقتصادية قوية لخطباء المجالس والشعراء والرواديد الذين يساهمون في إحياء الشعائر.

وغير ذلك من الخدمات والأنشطة الاقتصادية المرتبطة بإحياء المواسم والمراسم.

السياحة الدينية:

إن ما أشرنا إليه أعلاه إنما هو مثال لما قد يحصل في موسم واحد، فما بالك في المناطق التي تتعدد فيها المواسم، كمكة المكرمة والمدينة المنورة التي يمر بها موسم واحد طويل يمتد لأكثر من ثلاثة أشهر وهو موسم الحج، ثم هناك مواسم العمرة التي لا تنقطع طوال العام، وكذلك كربلاء التي يتكرر عليها في العام الواحد أكثر من أربعة مواسم رئيسية (عاشوراء والأربعين والزيارة الشعبانية وزيارة عرفة) إضافة إلى حركة الزوار التي لا تنقطع طوال العام وتكون بين مد وجزر بحسب المناسبات والأحداث، ويكون الوضع شبيه بذلك وإن بدرجة أقل أحياناً في المدن المقدسة الأخرى، كخراسان وقم، والنجف والكاظمية وسامراء، وغيرها.

ومن هنا نبع مصطلح السياحة الدينية والذي يشير إلى حركة الأسفار والزيارات المتعلقة بالمراكز المقدسة، ولكي نوضح أثر الشعائر الدينية على الازدهار الاقتصادي لتلك المناطق، نورد هنا بعض الأمثلة، وإن كان أكثرها يعود إلى أوقات ماضية وعهود قديمة (بسبب عدم توافر إحصاءات مفصلة دقيقة وحديثة)، ولكنها توضح ما نرمي إليه.

ولكن قبل ذلك من الجيد أن نشير إلى أن التجمع الذي يحصل في كربلاء المقدسة في ذكرى أربعين الإمام الحسين (ع) وصل حجمه في عام ٢٠١٠م[1] إلى حوالي ١٥ مليون زائر، منهم ٣٥٠ ألف زائر من خارج العراق، وأن مضائف الأكل التي كانت توزع الأطعمة على الزوار بالمجان، وصلت إلى ٥٠٠٠ مضيف داخل كربلاء فقط.

(١) عن قناة الفرات الفضائية العراقية، نقلاً عن محافظ مدينة كربلاء المقدسة

وهذا يعني بأن هذا الحشد المليوني هو الرابع من حيث الحجم على مستوى العالم (والثاني من حيث الحشود الموسمية السنوية)، حيث أن أكبر تجمع ديني شعائري حصل في الهند عام ٢٠٠٧م وعلى مدار ٤٥ يوم حين تجمع ما بين ٦٠ إلى ٧٠ مليون هندوسي لإحياء شعائر كامب ميلا في مدينة الله آباد وهو احتفال يتكرر كل بضعة سنوات حسب أجندة خاصة باتباع تلك العقيدة، وثاني أكبر تجمع شعائري هو عملية الحج التي يقوم بها اتباع معبد سابريمالا الهندوسي في منطقة كيرالا حيث يحج إلى المعبد ما بين ٤٥ إلى ٥٠ مليون هندوسي كل عام، أما ثالث أكبر تجمع شعائري فهو قيام الهندوس في الهند بالاغتسال في نهر غودافاري المقدس لديهم حيث تجمع ٣٤ مليون شخص وعلى مدى ١١ يوم لأداء طقوس الاغتسال الشعائرية في مدينة راجامندري، وهو احتفال يقام كل ١٢ سنة مرة.

بينما يحل موسم الحج في المرتبة السادسة (بعد أحد الأعياد في الفلبين) من ناحية كثافة الحضور حيث وصل عدد الحجاج في عام ٢٠١٠م (بما فيهم حجاج الداخل) إلى حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون حاج.

التأثير الاقتصادي للزيارة وإحياء الشعائر على مجتمعات المدن المقدسة: كربلاء والنجف مثالاً:

يقول إسحاق نقاش في كتابه عن شيعة العراق[١] حول حركة أموال الشيعة المتعلقة بالمدن المقدسة في بدايات القرن العشرين الميلادي، حيث كانت المبالغ التي ستذكر في سياق كلامه كبيرة بمعايير صرف ذلك الزمن، بأنه في عام ١٩١٨ قدر تقرير بريطاني أن الإدارة الجيدة لما تتلقاه النجف من هبات خيرية وأوقاف من ايران يمكن أن يحقق دخلاً سنوياً يقرب من مليون جنيه إسترليني.

كما يشير إلى سبعة أنواع من المدفوعات التي يقدمها الشيعة إلى المجتهدين وسدنة الأضرحة في النجف وكربلاء، وهو يقسم هذه المدفوعات إلى ثلاث فئات، الأولى تشمل نوعين من المبالغ هما سهم الإمام من الخمس (أي نصف الخمس الشرعي)، و "رد المظالم" الذي يدفع للتكفير عن أمر ما.

والفئة الثانية تشمل ثلاث أنواع ترسل أيضاً مباشرة إلى المجتهدين وهي "حق الوصية" ويتمثل بدفع ثلث الأملاك الموروثة من المؤمنين الشيعة المتوفين، ومبالغ "الصوم والصلاة" عن الأموات الذين في ذمتهم فوائت، والهبات الخيرية الطوعية.

(١) نقاش: شيعة العراق

والفئة الثالثة تشمل نوعين هما هبات خيرية تدفع مباشرة لسدنة الأضرحة، منها هبة تخصص لتوزيع الماء على الفقراء في النجف، وذكر في عام ١٩١٨ إن قيمتها السنوية تبلغ ٦٠٠٠ جنيه إسترليني.

والنوع الثاني من الهبات مالاً يخصص لإنارة أضرحة الأئمة والعناية بقبور المؤمنين الأثرياء المدفونين في مقابر النجف وكربلاء المقدسة، وقدر في عام ١٩١٨ إن دخل عتبات النجف وحدها من هذا المصدر كان حوالي ١٠ آلاف جنيه إسترليني في السنة.

وهذه المبالغ ليست قليلة في ذلك الوقت، حيث يذكر نفس المصدر بأن المجتهد الشيعي الأكبر الشيخ مرتضى الأنصاري (توفي عام ١٨٦٤) كان يتلقى ٢٠٠ ألف تومان سنوياً على شكل حقوق دينية من إيران فقط، في الوقت الذي كان إجمالي العوائد السنوية لحكومة القاجاريين التي كانت تحكم كل ايران هو زهاء ٣ ملايين تومان في نفس الفترة (أي أن ما يرد من حقوق شرعية سنوياً لمرجع واحد هو ٧٪ من ميزانية حكومة ذات بعد إمبراطوري، فكيف بما يصل لجميع المراجع والوكلاء؟).

انعكاس الازدهار المركزي للمدن المقدسة على الجوانب العلمية والسياسية:

يشير صاحب كتاب «شيعة العراق» إلى أن أول مدرسة شيعية افتتحت في النجف كانت في عام ١٠٥٦م أي قبل حوالي ألف سنة من الآن على يد شيخ الطائفة أبو جعفر محمد الطوسي، وقيل إنها كانت تدرس زهاء ٣٠٠ طالب.

ولكن التعليم الشيعي في العراق ظل حتى القرن السادس عشر الميلادي محفوفاً بالمخاطر في غياب سلطات شيعية.

وبعد مجيء الصفويين في ايران عام ١٥٠١ انتقل مركز العلم الشيعي إلى أصفهان، لكنه عاد إلى العراق بعد انهيارها، متنقلاً بين كربلاء والنجف والحلة. إلا أن النجف نهضت من جديد كمركز علمي في زمن المجتهدين محمد مهدي بحر العلوم (توفي عام ١٧٩٧م) والشيخ جعفر كاشف الغطاء (توفي عام ١٨١٢م).

وحسب (نقّاش) فإن عوامل عديدة أثرت في صعود وسقوط المراكز العلمية الشيعية، منها إمدادات الماء، والأوضاع الأمنية، وتطورات النظام الشرعي والفقه الشيعي، ومحل إقامة المجتهد الأكبر، وتدفق الموارد المالية، وتدفق الطلبة، وسياسات الحكومات.

وفي عام ١٩١٨م كان هناك حوالي ٢٠ مدرسة عاملة في النجف، كلها مدارس مسكونة، وأكبرها كانت توفر السكن فيها لخمسمائة طالب، وكانت المدارس جزءاً لا ينفصل من الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية للنجف، وكانت أحوال الطلبة وسكان المدينة مترابطة فيما بينها ترابطاً وثيقاً، حيث يقدر (نقاش) وجود حوالي ٨٠٠٠ طالب في المدينة في مطلع القرن، أي ما يمثل ٢٧٪ من سكان النجف الدائمين الذين قدر عددهم بـ ٣٠ ألف في عام ١٩٠٨م، أي أن أكثر من ربع سكان المدينة هم طلبة علم أو مدرسون، فكيف لك أن تعبر عن مدينة كهذه سوى إنها مدينة العلم وعاصمته؟

وكانت أحوال التجار المحليين تعتمد على البضائع والخدمات التي تقدم للطلبة، وكانت المدارس توفر عدداً كبيراً من فرص العمل وتستخدم مختلف الخدام والمعينين.

وفي الوقت نفسه كان أعضاء الهيئات التدريسية لهذه المؤسسات يقدمون خدمات قانونية واستشارية مختلفة لسكان المدينة، كما كان الطلبة يلبون حاجات الزوار ويقدمون خدمات دينية مختلفة محققين بذلك دخلاً إضافياً لاستكمال منحهم.

أي إن اقتصاد المدينة وأهلها قائم على كونها مدينة علمية، وإنها ما كانت لتكون مدينة علمية لو لم تكن مدينة مقدسة لدى من حولها إلى مركز علمي.

وقد شجعت صورة النجف عن نفسها بوصفها من المراكز الأكاديمية الإسلامية الكبرى، هذه المدينة على اتخاذ موقف من الحكومات والقضايا السياسية – الاجتماعية في العالم الإسلامي.

وبحلول القرن العشرين كانت قوة المجتهدين والطلاب في المدينة تشكل تحدياً خطيراً للحكومات القاجارية والعثمانية وكذلك للمصالح البريطانية المتعاظمة في العراق وايران. وأصبحت النجف تلعب دوراً كبيراً في شؤون ايران الداخلية، وهو تطور بلغ ذروته خلال الثورة الدستورية. وقد ظهرت المدينة كقوة حاولت قيادة حركة جهادية ضد التغلغل الأوربي المتزايد في بلاد المسلمين، وقامت بدور قيادي في التحريض على ثورة ١٩٢٠ في العراق[1].

ثالثاً: التعبئة السياسية

للشعائر الحسينية خصوصاً تأثير كبير في تعبئة المجتمع الشيعي سياسياً، بسبب طبيعة الذكرى التي تحييها هذه الشعائر، والتي أشرنا إلى مضامينها الخطابية والثقافية والدينية

(١) نقاش: شيعة العراق

في الفصول السابقة، ويمكن أن نشير إلى أمثلة سريعة لتوضيح ذلك، فعلماء الدين الشيعة وفقهائهم غالباً ما يستعينون بهذه الذكرى وشعائرها لدفع الشيعة في اتجاه المطالبة بحقوقهم والدفاع عن قضاياهم المحقة وتحمل مسئولياتهم السياسية والاجتماعية والإنسانية.

ولعل من الأمثلة التي يمكن الاحتفاء به في هذه الحالة هو السيد موسى الصدر وعملية تعبئة شيعة لبنان في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي، فما قام به شكّل الأساس الصالح لكل البناء الذي شيّده خلفائه من القيادات والفعاليات الشيعية بحكمة وصبر شديدين حيث أوصل الشيعة إلى المكانة التي هم عليها هنالك في الوقت الحاضر.

استطاع السيد المغيب (أعاده الله بخير وسلامة)[1] أن يمنح الطائفة الشيعية هناك هوية مجتمعية شاملة، وقام بتذكير أبنائها باستمرار بأن عليهم ألّا يتقبلوا حرمانهم كقدر لا مفر منه، وأن بإمكانهم تغيير ذلك الواقع إلى أفضل منه، وتوسل بالدين وبرموزه التعبوية ببراعة هائلة في سبيل تغيير الحالة الذهنية والنفسية كمقدمة لتغيير الواقع العملي.

وكانت خطاباته تعبوية وتحفل بالإحالات إلى رموز التشيع المركزية، ففي خطاب ألقاه في ذكرى عاشوراء في الكلية العاملية عام ١٩٧٤ قابل السيد بين حركته وبين استشهاد الإمام الحسين (ع) في كربلاء، حيث قال:

«وفي الحقيقة كان هناك حاجة إلى تضحية عظيمة تهز الضمائر وتحرك المشاعر فكانت كربلاء تلك التضحية ... وضع الإمام الحسين عليه السلام وعائلته وقوته وحتى حياته في الميزان ضد الطغيان والفساد، ثم تفجّر العالم الإسلامي بهذا الحدث الذي لم يسبقه إليه أحد...

إن هذه الثورة لم تمت في رمال كربلاء بل دخلت في مجرى حياة العالم الإسلامي وانتقلت من جيل إلى جيل ووصلت إلى يومنا هذا، إنها وديعة في أيدينا وعلينا أن نستفيد منها وأن نستخلص منها مصدراً لإصلاح جديد، لحركة جديدة، لثورة جديدة تقهر الظلم وتوقف الطغيان.

أيها الأخوة عليكم أن تختاروا بين صف الطغيان وصف الحسين عليه السلام، وإنني على ثقة أنكم لن تختاروا سوى صف الثورة والاستشهاد، حتى تتحقق العدالة ويُقضى على الطغيان.»

(١) نورثون: أمل والشيعة.

لقد حول السيد مجالس الذكر والإحياء إلى مجالس تعبوية ضمن اطار ثقافي حضاري نابع من صلب الثقافة التي يدينون بها، وقام بنشر مجالس الذكر والإحياء في مناطق وقرى لم يكن يوجد فيها إحياء أصلاً.

ويرى بعض الباحثين كنورثون بأن الحالة الجهادية في الوسط الشيعي ضد إسرائيل إنما تحولت من حالات فردية إلى حالة جماعية بسبب رد الفعل الذي تولّد لدى شيعة الجنوب من قيام قافلة عسكرية تابعة للجيش الإسرائيلي باختراق شوارع مدينة النبطية الجنوبية في يوم عاشوراء الموافق ١٦ أكتوبر ١٩٨٣م في الوقت الذي كان فيه أكثر من ٦٠ ألف شيعي يقومون بإحياء عزاء الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، مما ولّد سخطاً عارماً في البيئة الشيعية التي رأت بأن ذلك تطاول لا يمكن احتماله والسكوت عنه ودفع بالعديد من علماء الدين الشيعة في لبنان كالشيخ عبد الأمير قبلان إلى التحريض على مواجهة الجيش الإسرائيلي هناك.(١)

ومثال آخر يمكن الإشارة إليه هو الثورة الإسلامية في ايران بقيادة المرجع الديني السيد روح الله الموسوي الخميني والذي كان يوظف المقاربة العاشورائية في تشريع الثورة على حكم الشاه الطاغي، وكلمته في توصيف يوم عاشوراء في سياق تعبئة جماهير الشارع مشهورة حيث وصف يوم عاشوراء بأنه "يوم انتصار الدم على السيف"، وكانت أضخم التظاهرات الساخطة على حكم الشاه قد خرجت في يومي تاسوعاء وعاشوراء اللذين وافقا ١١ و ١٢ ديسمبر ١٩٧٨م حيث خرج في طهران وحدها أكثر من مليون متظاهر في كل يوم من هذين اليومين، وخرج شبيه بها في المدن الإيرانية الكبرى كمشهد وأصفهان وغيرها.

(١) المصدر السابق

الفصل الثاني عشر
الشعائر الدينية ودورها في ترويج مذهب آل بيت رسول الله (ص)

التعبئة الإعلامية:

للشعائر الدينية وبالخصوص الشعائر الحسينية دور كبير في إبراز الوجود الشيعي وحجمه في العالم، وفي إبراز حيوية العقيدة الشيعية وحيوية أتباعها في مختلف بقاع العالم. وفيما يلي سنعرض بعض الشواهد على انتشار هذه الشعائر والآثار التي تتركها حيثما تم إحيائها.

وفي عرضنا التالي سنتحاشى التطرق إلى عمليات الإحياء الموغلة في التاريخ، كالممارسات الإحيائية للبويهيين أو الفاطميين أو الحمدانيين أو حتى الصفويين والتواريخ التي قاربتهم، كما سنتحاشى التركيز على المناطق التي يشيع فيها الإحياء الشعائري كالعراق وايران والبحرين ولبنان وباكستان، وسنشير إلى بعض الأمثلة السريعة والموجزة خصوصاً في بقاع العالم غير المشتهرة بالتشيع، والتي يمكن توكيد الآثار العقائدية للشعائر المتولدة من عملية الإحياء.

وللتوضيح لابد من الإشارة إلى إننا سنقتبس الأمثلة والاستدلالات مما ورد في ثنايا كتابين أساسيين هما، «المأتم الحسيني: مشروعيته وأسراره» لمؤلفه السيد عبدالحسين شرف الدين، وكتاب «تاريخ النياحة على الإمام الشهيد الحسين بن علي عليه السلام» لمؤلفه السيد صالح الشهرستاني.

ويلاحظ أن أكثر هذه الاقتباسات هي عبارة عن شهادات لدبلوماسيين أو لرحالة أو لتجار أجانب كانوا يعبرون الأراضي الإسلامية خلال القرن التاسع عشر أو العشرين، وسجلوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم.

ففي كتاب «المأتم الحسيني» ينقل مؤلفه المرحوم شرف الدين ملاحظات مستشرق فرنسي في بداية القرن العشرين يدعى دكتور جوزيف الفرنساوي في كتابه «الإسلام والمسلمون»، نقلاً عن مجلة (العلم) النجفية، حيث يقول ـ من جملة كلام طويل:

(إن إقامة عزاء الحسين قد جعل كلّ واحد من الشيعة داعياً إلى مذهبه، ولا يوجد اليوم مكان فيه الواحد أو الاثنان من الشيعة إلاّ ويقيمان فيه عزاء الحسين ويبذلان في هذا السبيل الأموال الكثيرة، فقد رأيتُ في نزل ميناء مارسل شيعياً عربياً من أهالي البحرين يقيم مأتم الحسين وهو منفرد، ويرقى المنبر ويقرأ في كتاب ويبكي، ثم يقسّم ما أحضره من الطعام على الفقراء.

هذه الطائفة تبذل الأموال في هذا السّبيل على وجهَين: فبعضهم يبذلها من خالص أمواله في كلّ سنة بقدر استطاعته، ...، وبعضهم يعيّن أوقافاً لهذا المشروع لخصوص هذه الطائفة.

ويمكن أن يقال إنّ جميع فرق الإسلام من حيث المجموع لا يبذلون في سبيل تأييد مذهبهم بمقدار ما تبذله هذه الفرقة في سبيل ترقيات مذهبها، وموقوفات هذه الفرقة ضعفا أوقاف سائر المسلمين أو ثلاثة أضعافها.

كلّ واحد من هذه الفرقة هو في الحقيقة داعٍ إلى مذهبه من حيث يخفى على سائر المسلمين، بل إنّ الشيعة أنفسهم لا يدركون هذه الفائدة المترتبة على عملهم، وليس في نظرهم إلاّ الثواب الأخروي، ولكن حيث أنّ كل من عمل في هذا العالم لابدّ وأن يكون له أثر طبيعي في العالم الاجتماعي، قصده الفاعل أو لم يقصده، لم تحرم هذه الفرقة فوائد هذا العمل الطبيعيّة في هذا العالم.

ومن المعلوم أن مذهباً دعاته خمسون أو ستّون مليوناً (أي في الزمان الذي كتب فيه الكتاب) لابدّ وأن يرتقي أربابه على وجه التدريج إلى ما يليق بشأنهم، حتّى أنّ الرؤساء الروحانيين من هذه الفرقة وسلاطينها ووزرائها لم يخرجوا عن صفة كونهم دعاة، وسعي الفقراء والضعفاء في محافظة إقامة عزاء الحسين من حيث انتفاعهم من هذا الباب أكثر من الأعيان والأكابر، لأنّهم يرون في ذلك خير الدُّنيا والآخرة.

لهذا ترى جماعة كثيرين من عقلاء هذه الفرقة قد تركوا سائر أشغالهم المعاشيّة وتفرّغوا لهذا العمل، وهم يكابدون المشاق في تحرّي العبارات الرائقة والجمل الواضحة عند إلقاء فضائل رؤساء دينهم ومصائب أهل البيت على المنابر في المجالس العموميّة.

ولأجل هذه المشقات التي اختارتها هذه الجماعة فاق خطباء هذه الفرقة على خطباء جميع فرق المسلمين. وحيث أنّ تكرار الأمر الواحد يوجب اشمئزاز القلوب ومللها وعدم التأثير، تسعى هذه الجماعة في ذكر تمام المسائل الإسلامية الراجعة إلى مذهبهم بهذا العنوان على المنابر، حتّى آل الأمر إلى عوام الشيعة بفضل هؤلاء الخطباء أن أصبحوا أعرف بمسائل مذهبهم من معرفة كلّ فرقة من فرق المسلمين بمذهبها، كما أنّ اكتساب الشيعة واحترافهم بهذه الوسيلة وسائر الوسائل الراجعة إليها أيضاً أكثر من سائر المسلمين.

ولو نظرنا اليوم في أقطار العالم، نرى أنّ الأفـراد التّي هي أولى بالمعرفة والعلم والصنعة والثروة إنّما توجد بين الشيعة، والدعوة التي قام بها الشيعة إلى مذهبهم أو سائر الفرق الإسلاميّة غير محدودة ، بل أنّ آحاد وأفراد الطائفة دعاة، ما دخلوا بين أمّة إلاّ وسرى هذا الأثر في قلوبها، وليس العدد الذي نراه اليوم في الهند من الشيعة إلاّ هو أثر إقامة هذه المآتم).

وعن كتاب تاريخ النياحة ينقل الشهرستاني عن «موسوعة العتبات المقدسة» عن الكاتبة الإنجليزية المس «فريا ستارك» في كتابها «صور بغدادية» عند ذكر قصة مجزرة كربلاء، قولها: (وهي من القصص القليلة التي لا استطيع قراءتها قط من دون أن ينتابني البكاء ...) الخ.

وجاء في «موسوعة العتبات المقدسة» في فصل: «كربلاء في المراجع الغربية» ما لفظه: وقد كتب عن مأساة كربلاء كذلك، ومحرم الحرام بوجه عام، المستر «توماس لايل» الذي اشتغل في العراق معاوناً للحاكم السياسي في الشامية والنجف، في ١٩١٨ ـ ١٩٢١م، ومعاوناً لمدير الطابو في بغداد، وحاكماً في محاكمها المدنية، في كتابه «دخائل العراق» ما يقرب من عشرين صفحة، وهو يقول بعد أن شهد مواكب العزاء ولطم اللاطمين فيها:

(و لم يكن هنالك أي نوع من الوحشية أو الهمجية و لم ينعدم الضبط بين الناس، فشعرت ـ وما زلت أشعر ـ بأنني توصلت في تلك اللحظة إلى جميع ما هو حسن وممتلئ بالحيوية في الإسلام، وأيقنت بأن الورع الكامن في أولئك الناس، والحماسة المتدفقة منهم بوسعهما أن يهزا العالم هزاً فيما لو وجها توجيهاً صالحاً، وانتهجا السبل القويمة، ولا غرو، فلهؤلاء الناس عبقرية فطرية في شؤون الدين) ..الخ.

ونقلاً عن الموسوعة أيضاً، عن كتاب «تاريخ ايران» باللغة الإنجليزية، لمؤلفه السر «برسي سايكس»، عن مجزرة كربلاء بعد بيان الحادث المفجع مفصلاً، ما نصه:

(إن هذه الفاجعة كانت أساساً لتمثيل المسرحية الأليمة سنوياً، ليس في إيران التي تعتبر العقيدة الشيعية مذهباً رسميا فيها فقط، بل في كثير من البلاد الآسيوية التي يتيسر فيها وجود المسلمين الشيعة أيضاً.

وقد شاهدت هذه المأساة تمثل أمامي مرات عديدة في ايران، ولذلك يمكنني أن أعترف وأقر بأن الاستماع إلى ولولة النساء الصارخة، ومشاهدة الحزن الذي يغشى الرجال كلهم، يؤثر تأثيراً عميقاً في المرء بحيث لا يسعه إلا أن يصب نقمته على الشمر ويزيد بن معاوية، بقدر ما يصبه سائر الناس الحاضرين.

والحقيقة أن هذه المسرحية الأليمة تدل على قوة عاطفية جامحة تمتلئ بالحزن والأسى الذي لا يمكن أن تقدر بسهولة، وأن المناظر التي شهدتها بأم عيني ستبقى غير منسية في مخيلتي ما دمت في قيد الحياة).

ونقلاً عن كتاب «المجالس السنية في ذكرى مصائب العترة النبوية»، نقلاً عن رسالة للدكتور «ماربين» الألماني في فلسفة نهضة الحسين وثورته الكبرى ومأتمه، مما يدل على إقامة النياحات على الإمام الشهيد في تركيا قوله:

(حضرت مجالس إقامة العزاء على الحسين عليه السلام مراراً في إسطنبول، مع مترجم خاص، فسمعتهم يقولون: الحسين الذي هو إمامنا ومقتدانا، وطاعته وإتباعه واجبان علينا، لم يتحمل الضيم، و لم يدخل في طاعة يزيد، ولأجل حفظ شرفه وعلو حسبه وارتفاع مقامه، بذل نفسه، بذل أولاده، بذل عياله، واستعاض عن ذلك بحسن الذكر في الدنيا والشفاعة في الآخرة والتقرب من الله، وقد خسر أعداؤه الدنيا والآخرة ...، الخ.

وكانت مجالس النياحة والعزاء على الحسين الشهيد تقام أيضاً في إسطنبول، خاصة في يوم عاشوراء من كل سنة من قبل الجاليات الشيعية المقيمة في هذه المدينة الكبرى، ويحضرها أحياناً جماعات من السنة ولا سيما الرجال الرسميون، مواساة منهم للجاليات الشيعية).

وعن «موسوعة العتبات المقدسة»، عن كتاب «تاريخ الشيعة في الهند» للدكتور «هوليستر» عن أهمية شهر محرم وإقامة مراسيم العزاء فيه، ما نصه:

(إن إحياء مراسيم محرم وطقوسه في الهند قد انتشرت بانتشار الشيعة في البلاد. ويمكن أن تلاحظ في الهند وعلى الأخص في «لكنهو» حيث لا يزال شيء من البهاء والرونق الذين كانت تعرف بهما أيام ملوك «أوده» الأولين، محتفظاً به حتى اليوم).

ويصف «هوليستر» ما يسمى في الهند بالتعزية ويعتبرها من أبرز ما يلفت النظر في احتفالات الحداد في الهند أثناء محرم، ويقول عن المراثي التي تلقى في مواكب العزاء: (إنها عبارة عن قطع أدبية رائعة في بعض الأحيان)، ويشير من بينها إلى مرثية «المير أنيس» على الأخص التي يقول عنها:

(إنها مع ما فيها من طول إغراق في الغلو والمبالغة، قطعة أدبية بليغة تثير أعمق العواطف وأقوى الأحاسيس، حينما تقرأ خلال الأيام العشرة كلها، وتنطوي بين تضاعيفها على قوة بالغة في الوصف لا بد لأقوى الرجال من أن تدمع عيناه عند سماعها).

ويقول في وصف المآتم والاحتفالات العزائية في الهند: (إن عدداً غير يسير من أهل السنة والهندوس يشاركون فيها، ويعتقدون بها كثيراً).

وعن كتاب «المجالس السنية» يذكر عن الدكتور الألماني «ماربين»، قوله عن النهضة الحسينية وأثرها في الإسلام والعالم الإسلامي ما نصه:

(كلما ازداد قوة أتباع علي ازداد إعلانهم بذكر مصائب الحسين، وكلما سعوا وراء هذا الأمر ازدادت قوتهم وترقيهم، وجعل العارفون بمقتضيات الوقت يغيرون شكل ذكر مصائب الحسين قليلاً قليلاً فجعلت تزداد كل يوم بسبب تحسينهم وتنميقهم لها، حتى آل الأمر إلى أن صار لها اليوم مظهر عظيم في كل مكان يوجد فيه مسلمون حتى أنها سرت شيئاً فشيئاً بين الأقوام وأهل الملل الأخرى، خصوصاً في الصين والهند، وعمدة أسباب تأثيرها في أهل الهند هو أن المسلمين جعلوا طريقة إقامة العزاء مشابها لمراسيم إقامة العزاء عند أهل الهند.

وقبل مائة سنة لم تكن إقامة عزاء الحسين شائعة في الهند شيوعاً تاماً وظاهرة علناً، وفي هذه المدة القليلة استوعبت بلاد الهند من أولها إلى آخرها، ويظهر أنها في كل يوم في زيادة.

ولعدم اطلاع بعض مؤرخينا على كمية وكيفية هذه المآتم ورواجها استرسلوا في كلامهم على غير علم، وجعلوا يصفون إقامة أتباع الحسين لها بأنها أفعال جنون، ولم يقفوا أبداً على مقدار ما أحدثته هذه المسألة من التغييرات والتبدلات في الإسلام، والحس السياسي، والثوران والهيجان المذهبي، التي ظهرت في هذه الفرقة من إقامة هذه المآتم لم ير مثلها في قوم من الأقوام.

إن من يسبر غور الترقيات التي حصلت في مدة مائة سنة لأتباع علي في الهند ـ الذين اتخذوا إقامة هذه المآتم شعاراً لهم ـ يجزم بأنهم متبعون أعظم وسيلة للترقي.

كما أن أتباع علي والحسين في جميع بلاد الهند كانوا يعدون على الأصابع، واليوم هم في الدرجة الثالثة بين أهل الهند من حيث العدد، وكذلك في سائر البلدان.

وعندما نقيس منهم دعاتنا «المبشرين» مع صرف تلك القوة والثورة بمنهج دعاة هذه الفرقة، نرى أن دعاتنا لم يحوزوا العشر من تقدم هذه الفرقة، رؤساء ديننا وإن كانوا يحزنون الناس بذكر مصائب حضرة المسيح، ولكنه ليس بذلك الأسلوب والشكل الذي يتخذه أتباع الحسين. ويحتمل أن يكون السبب في ذلك أن مصائب المسيح في جنب مصائب الحسين لا تكون مؤثرة ومشجية للقلب بتلك الدرجة التي لمصائب الحسين. على مؤرخينا أن يطلعوا على حقائق رسوم وعادات الأغيار، ولا ينسبونها إلى الجنون).

ثم يستطرد هذا المحقق الألماني ويقول: (نحن الأوربيون بمجرد أن نرى لقوم حركات ظاهرية في مراسيمهم الملية أو المذهبية منافية لعاداتنا ننسبها للجنون والتوحش، نحن غافلون عن أننا لو سبرنا غور هذه الأعمال لرأيناها عقلية سياسية، كما نشاهد ذلك في هذه الفرقة الشيعية، وفي هؤلاء القوم بأحسن وجه.

والذي يجب علينا هو أن ننظر إلى حقائق عادات وتقاليد كل قوم، وإلا فإن أهل آسيا أيضاً لا يستحسنون كثيراً من عاداتنا، ويعدون بعض حركاتنا منافية للآداب ويسمونها بعدم التهذيب، بل بالوحشية، وعلاوة على تلك المنافع التي ذكرناها، والتي هي طبعاً أثر التهيج الطبيعي، فإنهم يعتقدون أن لهم في إقامة مأتم الحسين درجات عالية في الآخرة ...)، الخ.

كما ينقل «تاريخ النياحة» عن مقال نشر في العددين التاسع والعاشر من المجلد «٥٨» من مجلة «العرفان» الصيداوية، المؤرخين ذي القعدة وذي الحجة سنة ١٣٩٠هـ بقلم الأستاذ «السيد حسن الأمين»، بعنوان: «لمحات من تاريخ الشيعة من إندونيسيا» عن العالم الإندونيسي «حسين جاجاد ننغرات»، قوله انه (في اليوم العاشر من المحرم وهو اليوم الذي يحتفل فيه الشيعة بذكرى استشهاد الحسين تقوم عائلات عديدة بإعداد طعام خاص يدعونه «بيرسورا»، وهي كلمة مأخوذة من عاشوراء التي تعني العاشر من المحرم، وكذلك يدعى شهر المحرم بالجاوية «سورا».

ونجد أيضاً آثار نفوذ الشيعة في «اتجه» شمالي سومطرا، إذ يدعى شهر المحرم باسم شهر الحسن والحسين، وفي «مينانج كابو» على الساحل الغربي من سومطرا يدعى شهر المحرم «شهر النعش»، إشارة لعادة الشيعة واحتفالها بذكرى وفاة الحسين عندما يحملون نعشاً رمزياً، يسيرون به في الشوارع، ثم يلقونه في نهر أو مجرى مائي ...) الخ.

ثم يستطرد الكاتب فينقل الجملة التالية عن الكاتب الإندونيسي «السيد محمد أسد شهاب»، ضمن البحث عن هجرة العلويين إلى جاوة قوله: (وحتى اليوم لا يزال شهرا المحرم وصفر محترمين عند الكثيرين من الإندونيسيين فلا يقيمون فيهما أفراحاً، ولا يعقدون زواجاً، ولا يجرون زفافاً ...) الخ.

وفي المجلد «٥٦» من «أعيان الشيعة» عندما يبحث الكاتب عن تاريخ الشيعة في إندونيسيا يقول ما نصه: (وقد كان المسلمون الإندونيسيون قديماً يواصلون بعد تأدية فريضة الحج السير إلى العراق لزيارة العتبات المقدسة وحضور المأتم الحسيني في كربلاء).

وينقل «تاريخ النياحة» عن الجزء الثامن من السنة الرابعة، من مجلة «المرشد» البغدادية، ضمن مقال مترجم عن الصحف الإنجليزية ما عبارته:

(إن أول ذكرى لشهيد الطف أقيم في لندن بمناسبة يوم عاشوراء، في ١٧ جون ١٩٢٩م، الموافق ٩ محرم ١٣٤٨هـ، فقد احتفلت بهذه الذكرى الجمعية الإسلامية الغربية في لندن.

وكانت هذه أول مظاهرة إسلامية بهذا الشأن تقام في بريطانيا اجتمع فيها كثير من الإنجليز الذين اعتنقوا الدين الإسلامي، ومن المسلمين الهنود والعرب وغيرهم المقيمين في بريطانيا، وألقيت الخطب على المنابر بوصف مجزرة كربلاء واستشهاد الإمام عليه السلام).

وينقل ذات الكتاب عن العدد «٥١٥» من مجلة «الأسبوع العربي» المؤرخ ١٩٦٩/٤/٢١م، بقلم السيد «بهجت منصور»، عن النياحة على الإمام الحسين في بعض حواضر القارة الأمريكية ما عبارته:

(والهودج الكبير الذي يعده المسلمون في أمريكا الوسطى وفي مدينة «بورت أو اسباني» إحدى حواضر جزيرة ترينيداد، الواقعة في البحر الكاريبي من شمال أمريكا الجنوبية، بمناسبة إقامة شعائر الحزن على سيد الشهداء عليه السلام، يزين هذا الهودج بالذهب والفضة، وبأزهى الألوان الوهاجة وأحلاها.

ويشترك المسيحيون والهنود مع المسلمين في احتفالاتهم العظيمة بيوم عاشوراء في مسيرة عظيمة في طليعتها هذا الهودج الفخم، وتسير الجماهير وراءه تحف بها الطبول وآلات الموسيقى بأنغامها الحزينة تطوف شوارع العاصمة، وبين تعالي العويل والهتاف بحياة الحسين عليه السلام سيد الشهداء في ذكرى مصرعه، يلقى الهودج إلى البحر الصاخب، فتحمله الأمواج إلى الأعماق الزرقاء المجهولة، ويعود الجميع إلى مجالس العزاء بذكرى الحسين عليه السلام.

وأغلب الظن أن هذه الظاهرة انتقلت إلى هذه الجزيرة مع الهنود المسلمين، حيث يمارسون على غرارها في الهند، تعبيراً عن عواطفهم نحو هذه الذكرى المؤلمة، وعلى هذا النحو في معظم الأقطار الأفريقية والآسيوية يعبر المسلمون عن مشاعرهم حسب تصورهم ومعتقداتهم في هذه المناسبة.

ومنهم من ينحو بها كعرض لذلك المسرح الحسين يوم الطف بالمنطق الرزين، وبأرقى الأساليب الأخاذة بالمشاعر، مستوحين من قدسية ذلك اليوم التاريخي ضروب العبر وأنواع البطولة والايمان بالحق، فينتزعون من ذكراه أروع الصور وأبلغ الدروس وأسمى العظات، وإن كانت منهم مجرد سرد وترديد ...) الخ.

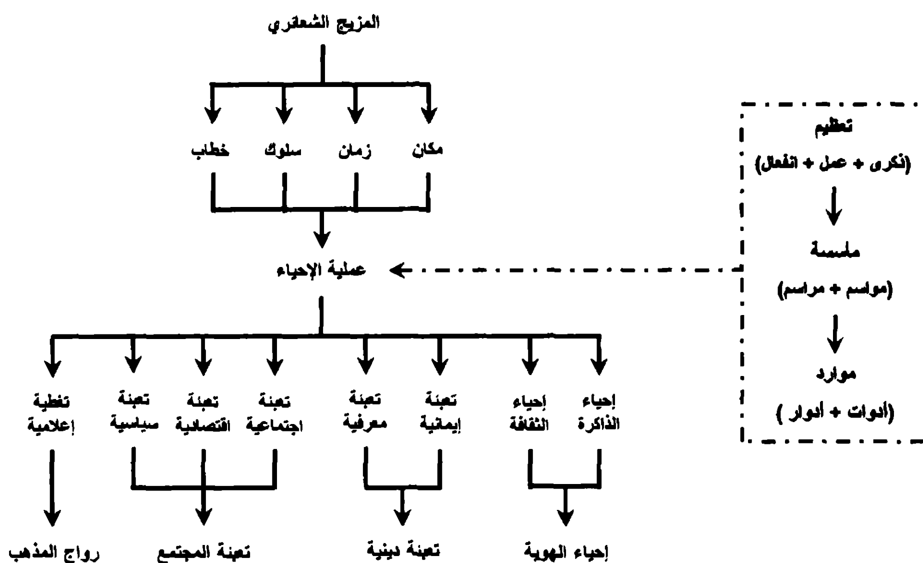
هذه شهادات عن بعض الدول التي كانت بعيدة عنا في العقود والقرون الماضية، أما ما يحصل الآن من إحياء للشعائر الحسينية في أيام عاشوراء في كل العالم فيكفي أن يكتب الباحث كلمة "عاشوراء" في احد محركات البحث على الشبكة العالمية "الإنترنت" ليجد الاحتفالات بالذكرى في كل قارة وكل إقليم بل وكل عاصمة في كل بلد في العالم تواجد فيه اتباع أهل البيت (ع).

فمن مختلف المدن الروسية، والآسيوية الوسطى خصوصاً آذربيجان وأفغانستان وشبه القارة الهندية وباكستان، وبعض المدن الصينية والآسيوية الجنوبية كبعض مناطق تايلند وسنغافورة وإندونيسيا، وبعض مدن القارة الاسترالية، إلى القارة الأفريقية خصوصاً وسطها في نيجيريا وتنزانيا والسنغال، إلى منطقة الشرق الأوسط والتي تتكثف فيها مراكز التشيع كإيران والعراق والبحرين وشبه الجزيرة العربية والكويت وعمان واليمن ولبنان وسوريا وتركيا، إلى القارة الأوربية ومدنها المختلفة في دولها الكبرى كبريطانيا وألمانيا والدنمارك، إلى مختلف المدن الواقعة في بلدان القارة الأمريكية ككندا والولايات المتحدة وترينيداد وتوباغو والبرازيل، وغيرها من بقاع الأرض، ففي كل مكان تواجد فيه اتباع أهل البيت (ع) قاموا برفع راية للإمام الحسين (ع) وإحياء ذكراه، وبذلك كانوا في الحقيقة يحيون ذكرهم هم أيضاً، ويشهرون أمرهم، ويكسبون بإظهار التزامهم العقائدي تقدير المؤمنين واحترام عموم الناس في العالم لهم.

والخلاصة هي أنه يمكن تصوير العملية الإحيائية للشعائر الدينية وآثارها الاستراتيجية، على النحو التالي:

شكل ١٢ ـ ١

الصورة النهائية لعملية إحياء الشعائر الدينية وآثارها الاستراتيجية



المصادر والمراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ إبراهيم، سعد الدين. الملل والنحل والأعراق: هموم الأقليات في الوطن العربي، الطبعة الثانية، (١٩٩٤م)، مركز ابن خلدون، القاهرة.

٣ ـ ابن المشهدي، محمد بن جعفر. المزار الكبير، الطبعة الأولى، (١٤١٩ه)، (تحقيق: الأصفهاني، جواد القيومي)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم المقدسة. (ن أ)

٤ ـ ابن طاووس، رضي الدين علي بن سعد الدين أبي إبراهيم موسى بن جعفر بن محمد. الملهوف على قتلى الطفوف، (تحقيق تبريزيان: الشيخ فارس) (ن أ).

٥ ـ ابن طاووس، رضي الدين علي بن سعد الدين أبي إبراهيم موسى بن جعفر بن محمد. إقبال الأعمال، (٢٠٠٤م/ ١٤٢٥ه)، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٦ ـ ابن طاووس، رضي الدين علي بن سعد الدين أبي إبراهيم موسى بن جعفر بن محمد. جمال الأسبوع، الطبعة الأولى، (٢٠٠٨م/ ١٤٢٩ه)، دار المرتضى، بيروت.

٧ ـ ابن قولويه، أبي القاسم جعفر بن محمد. كامل الزيارات، الطبعة الأولى، (١٤١٧ه)، (تحقيق: نشر الفقاهة)، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران.

٨ ـ ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم. لسان العرب، الطبعة الأولى، (٢٠٠٥م/١٤٢٦ه)، (تدقيق: البقاعي، د. يوسف؛ شمس الدين، إبراهيم؛ علي، نضال)، مؤسسة العلمي للمطبوعات، بيروت.

٩ ـ أكوافيفا، سابينو؛ وباتشي، إنزو. علم الاجتماع الديني: الإشكالات والسياقات، الطبعة الأولى، (٢٠١١م/ ١٤٣٢ه)، (ترجمة: عناية، عز الدين)، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة)، أبو ظبي.

١٠ ـ آل درويش، الشيخ عبدالله ابن الحاج حسن. المجالس العاشورية في المآتم الحسينية، (١٤٢٤هـ)، (ن أ).

١١ ـ الحكيم، آية الله السيد محمد سعيد الطباطبائي. فاجعة الطف: أبعادها، ثمراتها، توقيتها، الطبعة الأولى، (٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ)، مؤسسة الحكمة للثقافة الإسلامية، النجف الأشرف.

١٢ ـ الحلي، الشيخ عبدالحسين. الشعائر الحسينية في الميزان الفقهي، (١٩٩٥م)، (ن أ).

١٣ ـ الحيدري، إبراهيم. تراجيديا كربلاء: سوسيولوجيا الخطاب الشيعي، (٢٠٠٢م/ ١٤٢٣هـ)، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، إيران.

١٤ ـ الخوري، فؤاد إسحاق. القبيلة والدولة في البحرين: تطور نظام السلطة وممارستها، الطبعة الأولى، (١٩٨٣م)، معهد الإنماء العربي، بيروت.

١٥ ـ الرواشدي، عبدالرحمن سلوم وآخرون. الفضائيات الدينية في العراق: الفضائيات الشيعية ـ الهيمنة والتصدي، موقع haqnews.net (ن أ)

١٦ ـ السبحاني، الشيخ جعفر. الزيارة في الكتاب والسنة: تحليل لمفهوم الزيارة وآثارها وأحكامها، الطبعة الأولى، (٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ)، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١٧ ـ الشهرستاني، أبي الفتح محمد بن عبدالكريم. الملل والنحل، (٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ)، (تحقيق: الفاضلي، محمد عبدالقادر)، المكتبة العصرية، صيدا ـ لبنان.

١٨ ـ الشهرستاني، السيد صالح بن إبراهيم صالح، تاريخ النياحة على الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، (تحقيق: علوان، الشيخ نبيل رضا) (ن أ).

١٩ ـ الشيرازي، آية الله السيد صادق الحسيني. إحياء عاشوراء، الطبعة الأولى، (١٤٣٠هـ)، (تحرير: عبدالرضا افتخاري)، منشورات الرشيد، قم المقدسة.

٢٠ ـ الشيرازي، آية الله السيد محمد الحسيني. الدعاء والزيارة، (٢٠٠٤م/ ١٤٢٥هـ)، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٢١ـ الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه. الخصال، (١٤٠٣هـ)، (تحقيق: الغفاري، علي أكبر)، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة.

٢٢ـ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. علل الشرائع، (٢٠٠٧م/ ١٤٢٨هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢٣ـ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. عيون أخبار الرضا (ع)، (١٣٧٨هـ)، منشورات الشريف الرضي، قم المقدسة.

٢٤ـ الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه. كمال الدين وتمام النعمة، الطبعة الأولى، (١٤١١هـ/١٩٩١م)، (تحقيق: الأعلمي، الشيخ حسين)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢٥ـ الصدوق، أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه. معاني الأخبار، (١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، (تحقيق: الغفاري، علي أكبر)، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٢٦ـ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه، (١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢٧ـ الطبرسي، رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل. مكارم الأخلاق، (١٩٩٤م/ ١٤١٤هـ)، (تحقيق: الأعلمي، الشيخ حسين)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٢٨ـ العاتي، إبراهيم. الظاهرة الحسينية في الشعر العربي، (٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ)، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت.

٢٩ـ العاملي، السيد جعفر مرتضى. الصحيح من سيرة الإمام علي عليه الصلاة والسلام: المرتضى من سيرة المرتضى، (٢٠٠٨م/ ١٤٢٩هـ)، لبنان، (ن أ).

٣٠ـ العاملي، السيد جعفر مرتضى. المواسم والمراسم، الطبعة الثانية، (١٩٨٧م/ ١٤٠٨هـ)، شبكة الإمامين الحسنين عليهما الصلاة والسلام للتراث والفكر الإسلامي، alhassanain.com (ن أ).

٣١ ـ العاملي، السيد جعفر مرتضى. مراسم عاشوراء: شبهات وردود، الطبعة الثانية، (١٤٢٣ه)، (ن أ).

٣٢ ـ القمي، الشيخ عباس. مفاتيح الجنان، (٢٠٠٦م/ ١٤٢٨ه)، (تعريب: النجفي، السيد محمد رضا النوري)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

٣٣ ـ المجلسي، الشيخ محمد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ـ كتاب الإمامة (المجلد ٧)، (١٤٢٧ه)، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، قم المقدسة.

٣٤ ـ المجلسي، الشيخ محمد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ـ كتاب تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام وفضائله وأحواله (المجلد ٩،١)، (١٤٢٧ه)، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، قم المقدسة.

٣٥ ـ المجلسي، الشيخ محمد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ـ كتاب القرآن والدعاء (المجلد ١٩)، (١٤٢٧ه)، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، قم المقدسة.

٣٦ ـ المجلسي، الشيخ محمد باقر. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ـ كتاب المزار (المجلد ٢٢)، (١٤٢٧ه)، مؤسسة إحياء الكتب الإسلامية، قم المقدسة.

٣٧ ـ المجلسي، الشيخ محمد باقر. زاد المعاد، الطبعة الأولى، (١٤٢٣ه)، مكتبة فدك، قم المقدسة.

٣٨ ـ الموسوي، السيد عبدالحسين شرف الدين. المأتم الحسيني: مشروعيته وأسراره، (١٤٢٣ه)، (تحقيق: الحسون، فارس)، مركز البحاث العقائدية، قم المقدسة.

٣٩ ـ النجفي، السيد حسين بن السيد أحمد البراقي. تأريخ الكوفة، الطبعة الأولى، (١٤٢٤ه)، (تحقيق: العطية، ماجد بن أحمد)، انتشارات المكتبة الحيدرية، قم المقدسة.

٤٠ ـ النجفي، الشيخ عبدالحسين أحمد الأميني. موسوعة الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ثمرات الأسفار إلى الأقطار، (٢٠٠٧م/ ١٤٢٨ه)، مؤسسة دار معارف الفقه الإسلامي، قم المقدسة.

٤١ ـ الوردي، علي. لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (الجزء الثالث)، (١٤١٧ﻫ)، المكتبة الحيدرية، قم المقدسة.

٤٢ ـ بادي، الشيخ محمد جمعة. المصيبة الراتبة: أصداء المقتل والشعائر الحسينية، الطبعة الثانية، (١٤٣٢ﻫ).

٤٣ ـ بطاطو، حنا. العراق: الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، (٢٠٠٥م/ ١٤٢٦ﻫ)، (ترجمة عفيف الرزاز)، منشورات فرصاد، توزيع مكتبة الغدير، قم المقدسة.

٤٤ ـ بندكتي، روبير. الشعائر بين الدين والسياسة في الإسلام والمسيحية: الاحتفال الديني منبراً سياسياً في المجتمع اللبناني المعاصر، الطبعة الثانية، (٢٠١٠م)، دار المشرق، بيروت، توزيع المكتبة الشرقية.

٤٥ ـ جعفر، صادق. التأسيس: السيرة الاستراتيجية لرسول الله محمد بن عبدالله (ص)، (٢٠١٤).

٤٦ ـ جعفر، صادق. دليل الشعائر للداعي والحاج والزائر، (٢٠١٤).

٤٧ ـ جعيط، هشام. الكوفة: نشأة المدينة العربية الإسلامية، الطبعة الثانية، (١٩٩٣م)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

٤٨ ـ حسن، الشيخ مكي فاضل. المواكب الحسينية، (٢٠٠٧م)، شبكة الإمامين الحسنين عليهما الصلاة والسلام للتراث والفكر الإسلامي، alhassanain.com (ن أ).

٤٩ ـ سند، آية الله الشيخ محمد. الشعائر الحسينية بين الأصالة والتجديد، (٢٠٠٣م/ ١٤٢٤ﻫ)، (تحرير: الموسوي، رياض)، دار الغدير، قم المقدسة.

٥٠ ـ شريفي، محمود وآخرون (محررون). موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه الصلاة والسلام، الطبعة الأولى، (١٤١٥ﻫ)، معهد تحقيقات باقر العلوم، منظمة الإعلام الإسلامي، قم المقدسة.

٥١ ـ شمس الدين، محمد مهدي. واقعة كربلاء في الوجدان الشعبي، الطبعة الأولى، (١٤٢٦ﻫ/ ٢٠٠٥م)، (تحقيق: الغريري، سامي)، دار الكتاب الإسلامي، إيران.

٥٢ ـ فردان، أمينة جعفر. رمزية الألوان عند المرأة الشيعية، (٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ)، نينوى للدراسات والنشر والتوزيع.

٥٣ ـ لوسو، إميليو. نظرية الانتفاضة، الطبعة الأولى، (١٩٨٤)، (ترجمة: عبدالله، جوزيف)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٥٤ ـ محمد، السيد حسين نجيب. المقدسات الدينية، (٢٠١١م/ ١٤٣٢هـ)، دار المحجة البيضاء، بيروت.

٥٥ ـ مهدي، محمد عاشور. التعددية الأثنية: إدارة الصراعات واستراتيجيات التسوية، (٢٠٠٢م)، المركز العلمي للدراسات السياسية، عمان ـ الأردن.

٥٦ ـ نعمة، انطوان وآخرون (محررون). المنجد في اللغة العربية المعاصرة، الطبعة الثانية، (٢٠٠١م)، دار المشرق، توزيع المكتبة الشرقية، بيروت.

٥٧ ـ نقاش، إسحاق. شيعة العراق، (١٩٩٥م)، إيران.

٥٨ ـ نورثون، أ. ر. أمل والشيعة: نضال من أجل كيان لبنان، الطبعة الأولى، (١٩٨٨م)، (ترجمة: عبدالله، غسان الحاج)، دار بلال، بيروت.

59- Alba-Juez, L., **Perspective on discourse analysis: Theory and practice**, (2009), Cambridge Scholars Publishing, UK.

60- Ashmore, R. D.; Deaux, K.; McLaughlin-Volpe, T., An organizing framework for collective identity: Articulation and significance of multidimensionality, **Psychology Bulletin**, (2004), Vol. 130, No. 1, 80-114.

61- Assmann, J., Collective memory and cultural identity, originally published in **Kultur und Gedachtnis**, eds. Jan Assmann and Tonio Holscher (Frankfurt/Main: Suhrkamp, 1988) 9-19.

٦٢- Benoist, A. de, On identity, originally appeared in **elements,** ١١٣ (Summer ٢٠٠٤). Translated by Kathy Ackerman and Julia Kostova.

63- Brewer, M. B.; Grdner, W., Who is this "We"? Levels of collective identity and self-representations, **Journal of Personality and Social Psychology**, (1996), Vol. 71, No. 1, 83-89.

64- Clifford, G., **Religion as a cultural system**. In: The interpretation of cultures: Selected essays, (1993), pp.87-125. Fontana Press.

65- Clingingsmith, D.; Khwaja, A. I.; Kremer, M., **Estimating the impact of Hajj: Religion and tolerance in Islam's global gathering**, (2008), Harvard Kennedy School, USA.

66- Elbadri, R., **Shia Rituals: The Impact of Shia Rituals on Shia Socio-Political Character**, (2009), Naval Postgraduate School, Thesis, USA.

67- Friedkin, N. E., Social cohesion, **Annual Review of Sociology**, (2004), Vol. 30.

68- McCullough, M. E.; Willoughby, B. L. B., Religion, self-regulation, and self-control: Associations, explanations, and implications, **Psychology Bulletin**, (2009), Vol. 135, No. 1, 69 – 93.

69- Nakash, Y., An attempt to trace the origin of the ritual of Ashura, **Die Welt des Islams**, New Series, (1993), Vol. 33, No. 2, pp. 161 – 181.

70- PEW, **Is there a global resurgence of religion?**, (2006), Pew Research center, USA.

71- PEW, **The "Zeal of convert": Is it the real deal?**, (2009), Pew Research center, USA.

72- Schopflin, G., **The construction of identity**, Österreichischer Wissenschaftstag, ٢٠٠١.

73- Shah, T. S., **"Why God is winning?"**, (2006), Pew Research center, USA.

74- Van Dijk, T. A., **Critical discourse analysis**.

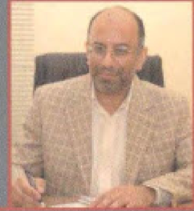
المحتويات

القسم الثاني
إحياء الشعائر الدينية

القسم الثالث
الآثار الاستراتيجية للشعائر الدينية

استراتيجية الشعائر الدينية عند الشيعة الإمامية

THE STRATEGY OF SHIA'S RELIGIOUS RITUALS



صادق جعفر

باحث في شؤون الاستراتيجية والقيادة

الاهتمامات البحثية:

- استراتيجيات التمكين السياسي والمجتمعي.
- إدارة المشاريع اللاربحية ومنظمات المجتمع المدني.
- الأداء القيادي والاداري للمرأة في عالم الأعمال التجارية.
- استراتيجيات الشركات الصغيرة والمتوسطة.
- شئون المجتمع المدني وحقوق المرأة.

من مؤلفاته:

- السيرة الاستراتيجية لرسول الله محمد بن عبد الله (ص)
- الاستراتيجيات الناجحة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة
- دليل أفضل الممارسات الإدارية في العمل التطوعي
- التمكين الشيعي: استراتيجيات تمكين الشيعة وتعزيز أوضاعهم في العالم
- الأحوال الشخصية والأسرية والقانونية للمرأة البحرينية
- الحقوق الشخصية للمرأة البحرينية في ظل الانتخابات البرلمانية لعام 2006م

هذا الكتاب:

إن علاقة الشعائر بالأديان علاقة حيوية ومصيرية، فالأديان الحيوية هي التي تتمظهر في شعائر واضحة ومفهومة، بينما الأديان الخاملة هي التي تخلوا من الشعائر الحيوية اليومية أو غير اليومية ذات الإيقاع المتقارب.

إن الأديان ذات الشعائر هي أكثر حظا في البقاء والاستمرار من الأديان التي تقتصر على نصوص وأفكار مخزونة بين دفاف الكتب والقراطيس، فالدين يجب أن يتفاعل معه الناس بأبدانهم وعقولهم وسلوكهم وأوقاتهم وبقاعهم وأموالهم وأرواحهم وأعمالهم لكي يشعرون بوجوده باستمرار ولا ينسونه أو ينفصلون عنه.

من خلال هذا الكتاب يمكن للقارئ أن يتعرف على:

- طبيعة الشعائر المكانية والزمانية والسلوكية والخطابية
- أهم الأدوات والأدوار التي تساهم في إحياء الشعائر الدينية
- دور الشعائر في تشكيل الهوية والذاكرة الشيعية
- الآثار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للشعائر
- الآثار الإعلامية والمعرفية والدينية للشعائر

جيكور للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت

Jeekor جيكور

Designed by CMYK Studio